المعلم بُطرُس البُستاني وقاموسه «محيط المحيط»

د. عبد الكريم اليافي

آل البستاني أسرة انتقلت مع صروف الزمان من زراعة أشجار الفاكهة وأغراس الريحان الى زراعة العلم والثقافة والعرفان في ربوع بلاد الشام ، أعني سورية والأردن وفلسطين ولا سيما لبنان • من أعلامها المعلم بطرس البستاني الذي يعد ركنا من أركان النهضة العلمية الحديثة •

ولد في قرية الدبيّة سنة ١٨١٩ • وظهرت عليه في صباه مخايل النجابة والذكاء في مدرسة القرية ، أرسل بعدها الى مدرسة عينورقة (١٨٣٠ ــ ١٨٤٠) فحصّل علوم العربية من صرف ونحو و عروض ولغة وأدب ، كما حصّل العلوم التي كانت تدرس اذ ذاك كالتاريخ والجغرافية والحساب والمنطق والفلسفة واللاهوت ، الى جانب اللغات السريانية واللاتينية والايطالية ، ثم غدا يمارس حرفة التعليم فاستكمل في تعليمه من الثقافة والمعرفة ما فاته في زمن تعلمه • وظل يهتم بالتعليم ويزاوله ويشرف عليه وينشر الثقافة والعلم فلقب بالمعلم وهو أشرف الألقاب •

وقع ميلاده في عهد السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨ ــ ١٨٣٩) • وفي هذا العهد استولى ابراهيم باشا بن محمد علي على بلاد الشام عام ١٨٣١ ، وبقي فيها نائباً عن والده حتى نهاية عام ١٨٤٠ حين اضطره ضغط الدول الأوربية الى التخلي عن الحكم والجلاء عن بلاد الشام • فقد أرسلت تلك الدول

المتحالفة مع الدولة العثمانية وهي انكلترة والنمسا وبروسيا مراكبها في شهر ايلول الى سواحل لبنان لتجبر ابراهيم باشا على الخروج • وكان الانكليز بحاجة الى ترجمان • وكان بطرس قد شدا شيئاً من الانكليزية في أثناء مقامه بمدرسة عين ورقة في بيروت وبعدها فاستعمله الانكليز لهذا الشأن •

كان زمن ابراهيم باشا في بلاد الشام زمن تسامح واقبال على العلم • وقد فتحت سياسته المتسامحة الباب أمام بعثات التبشير الأجنبية • فخف المبشرون أول الأمر الى بيروت ، ومنها بالتدرج الى سائر أنحاء الشام • وفي سنة ١٨٤٠ قدم الدكتور كرنيليوس فان ديك الهولندي الأصل الأمريكي النشأة الى سورية فجال فيها ورأى البلاد محتاجة الى المدارس العليا • فأنشأ مدرسة عبية في لبنان عام ١٨٤٦ ، واستعان بالمعلم بطرس الذي كان صديقاً حميماً له في انشائها فتولى التعليم فيها عامين •

ثم نزل بطرس الى بيروت عام ١٨٤٨ وسُمي ترجماناً للقنصلية الأمريكية فيها واستعانه المرسلون الأمريكيون في ادارة الأعمال بمطبعتهم وفي ترجمة التوراة • وبقي في تلك الوظيفة حتى عام ١٨٦٢ اذ تركها لابنه البكر سليم • وقد رسخت علائق المودة والألفة بينه وبينهم فمال الى مذهبهم البروتستنتي •

غدا علماً يشار اليه بالبنان في ميدان الثقافة والنشاط الاجتماعي فكثرت أعماله ، واشتد اكبابه على التعريب والقاء الخطب والمحاضرات وتأليف الكتب والمطالعة والاستزادة من العلوم الحديثة .وشرع في تأليف قاموسه «محيط المحيط».

أدرك المعلم بطرس فضل العلم على البلاد ومكانة التربية والتثقيف فيها ، فأنشأ في بيروت مدرسة عالية سماها « المدرسة الوطنية » وأقامها على مبادىء الحرية الدينية وعلى أساس الجامعة الوطنية العثمانية • فخف اليها الطلاب من مختلف أنحاء الشام والعراق وغيرها وذاع خبرها وانتشر فضلها • فأنعمت عليه الحضرة السلطانية العثمانية بوسام عال تقديراً لجهوده ومكافأة لخدماته • وتولى ابنه سليم نيابة رئاسة المدرسة •

كذلك اهتم بالصحافة. فاستعان بابنه هذا في انشاء أربع صحف ومجلات هي : نفير سورية والجنان (مجلة شهرية) والجنّة (مجلة اسبوعية) والجُنَينة (جريدة يومية) تختلف في حجومها وفي أوقات صدورها ٠

أما نفير سورية فقد جاء في « محيط المحيط » قول المؤلف في مادة « نفر » :

« والنفير أيضاً البوق ينفخ فيه ٠ فارسية ٠ ومنه نفير سورية وهي أمال لنا أنشأناها في أثناء حادثة سنة ١٨٦٠ للمسيح في احدى عشرة نشرة سميناها بالوطنيات » ٠ وأما بقية الصحف فتنمّ أسماؤها على حنين دفين الى البساتين والرياض التي كان آل البستاني يعيشون في أجوائها وخمائلها ٠

ولقد كانت الدولة العثمانية قد منحت رعاياها من غير المسلمين امتيازات خاصة في الشؤون الدينية والمذهبية واعتبرت قضايا التعليم تابعة لتلك الأديان والمذاهب ، وذلك في نص فرمان الكلخانة (قصر الورد) الذي صدر في عهد السلطان عبد المجيد عام ١٨٣٩ بعد أن خلف أباه السلطان محموداً الثاني في الحكم ٠

وكانت المدارس الطائفية أول الأمر دينية يجري التعليم فيها في الأديرة والكنائس ٠ ولكن سرعان ما تطورت وغدت معاهد تعليمية عصرية تسلك مناهج خاصة بها ولا ترتبط بمناهج المدارس الحكومية ٠ وكانت لها الحرية في استعمال لغة التعليم التي تراها مناسبة لها ٠ فكان المسيحيون العرب حراصاً على اللغة العربية يقبلون على اتقانها ويعلّمون بها ٠ ولما كان التعليم في مدارسهم بالعربية سبقوا في ذلك المدارس الحكومية التي كانت تعلم باللغة التركية ؛ واستطاعوا أن ينشئوا التعليم العربي الحديث في مدارسهم وأن ينبغ فيها عدد من الكتاب والبلغاء والمؤلفين ؛ وكان ذلك دعماً للغة العربية ولازدهار بيانها ٠ وعزّز هذا الازدهار أن طوائف المبشرين شرعوا أول الأمر يُدرّسون العلوم في مدارسهم باللغة العربية ثم انتقلوا بعد رسوخ أقدامهم واستتباب أمورهم الى تعليمها بالانكليزية والفرنسية حسب نوع بعثاتهم ٠ كانت تلك المدارس التبشيرية تشجع العربية أول تأسيسها ثم ما عتّمت أن حاربتها واستبدلت بها لغاتها الأجنبية ٠ وكذلك بعض أحوال التبشير ٠

أهم آثار المعلم بطرس قاموسه «محيط المحيط» و «دائرة المعارف» وهي موسوعة علمية ما تزال مرموقة الشأن •

أنهى محيط المحيط عام ١٨٦٩ وصدر عام ١٨٧٠ في مجلدين كبيرين •

واختصره وسمى المختصر «قطر المحيط» • وقد رفع نسخة من « محيط المحيط » الى الحضرة الشاهانية ونسخة الى الصدارة العظمى وأخرى الى نظارة المعارف في الاستانة فكان للمعجم موقع حسن في تلك الدوائر العالية وأجازه السلطان عبد العزيز بالجائزة الأولى التي يجيزها السلطان أمثاله وهي الوسام المجيدي من الدرجة الثالثة مع مائتين وخمسين ليرة عثمانية مجيدية •

وقد وعد المؤلف في آخر قاموسه (الطبعة الأصلية) بتأليف معجم للأعلام فكتب : « اذ كان طول الوقت وكبر حجم الكتاب ولحاجة المشتركين وغيرهم لم تسمح لنا أن ندرج أسماء الأعلام في آخر هذا الكتاب قد استصوبنا أن نفردها في كتاب خاص بها ونقدمها للمشتركين حال خروجها من المطبعة » • ولكنه رأى بعد ذلك أن يتوسع في هذا المشروع الثقافي فعمد في عام ١٨٧٥ الى تأليف « دائرة المعارف » التي أشرنا اليها آنفاً والتي هي عنوان فخر لآل البستاني • أصدر في حياته ستة مجلدات • وتوفي وهو في بدء السابع فأتم السابع والثامن ابنه سليم • وتوفي قبل الشروع في التاسع • فأصدر أبناؤه الباقون الجزء التاسع بمعاضدة ابن عمهم سليمان البستاني مترجم الالياذة • ثم توقف العمل حتى قدم هذا العلامة الأخير القاهرة فأخذ يتم الكتاب مع ابني عمه نجيب ونسيب فصدر الجزء العاشر ثم الحادي عشر دون اكتمال الدائرة •

كانت وفاة المعلم بطرس في أول أيار عام ١٨٨٣ فانهد ركن من أركان الثقافة العربية والشامية وبقيت آثاره العلمية ومآثره الوطنية تعرب عن مكانته العالية الى جانب رجالات العلم والأدب الخالدين •

محيط المحيط

جاء في فاتحة هذا المعجم اللغوي الغني :

« الحمد لله الذي أنطق العرب بأفصح الكلمات ، وجعل العربية شامة في وجنة اللغات • أما بعد فهذا المؤلف يحتوي على ما في محيط الفيروزأبادي الذي

هو أشهر قاموس للعربية من مفردات اللغة وعلى زيادات كثيرة • فقد أضفت الى أصول الأركان فيه فروعاً كثيرة وتفاصيل شتى، وألحقت بذلك اصطلاحات العلوم والفنون وكثيراً من المسائل والقواعد والشوارد وغير ذلك مما لا يتعلق بمتن اللغة • وذكرت كثيراً من كلام المولدين وألفاظ العامة منبهاً في أماكنها على أنها خارجة عن أصل اللغة • وذلك لكي يكون هذا الكتاب كاملا وشاملا يجد فيه كل طالب مطلوبه من هذا القبيل » •

وحقاً ظهر هذا المعجم متحلياً بتلك الصفات وجامعاً لكل ما يحتاج اليه المتعلم والباحث في حدائق التراث وبساتين اللغة ومتداول الكلم والمصطلحات • وأولى مزاياه الشمول والتجميع والاحاطة والايجاز والدقة الى مدى بعيد • ويكاد يغني عن معجمات عدة ومراجع قديمة ومستجدّة •

ختم المؤلف الجزء الثاني من القاموس بهذه الفقرة المتواضعة التي لا تصدر الا عن عالم يقدر العلوم وعمق أغوارها ومكابدة الباحثين والمؤلفين وامكان السهو من جانب وتحريف النساخ والمطابع من جانب آخر •

« كان مرادنا أن نذيّل كتابنا هذا باصلاح ما ربما يكون قد وقع فيه من غلط المطبعة أو السهو • ولكن قد استحسنا تأخير ذلك الى وقت مستقبل لكي يكون لنا فرصة كافية لمراجعته ولمن أراد أن يجيب طلبنا •• بتنبيهنا الى ما يعثر عليه فيه من هذا القبيل » •

مستدركات على محيط المحيط

مطالعة المعجمات كالتطواف في المعالم القديمة الأثرية وكاستجلاء ملامح الحياة الحديثة والعصرية ، تعرض على القارىء صوراً من حياة العصور المتعاقبة تليدها وطريفها • كل كلمة تحمل صورة أو تشفّ عن أثر ، أو تسجل عادة قديمة أو مستحدثة ، أو تسمي شيئاً من الأشياء ، أو تصف خُلُقاً من الأخلاق • وهي أيضاً تشبه التجول في روضة من الرياض الحافلة بأنواع الرياحين والأزهار والثمار حلوة ومرة ، مأكولة ومجتواة • وهي أيضاً وسيلة من وسائل تقوية الحافظة بتذكير الكلم الحية الغافية فيها قد يحتاج المرء اليها حيناً بعد حين للتعبير الدقيق ،

والوصف الأنيق ، وزيادة التشويق ، أو للتحليق في آفاق الأحلام ، وأجواء الأوهام، وضروب المجازات والتشابيه والتنقل مع صروف الأيام .

ولهذا كله يطيب لنا حين تسنح نهزة من الزمن أن نصرف عن جفوننا طيوف الوسن فنرجع الى ما تيسر بين أيدينا من المعجمات وكتب اللغة على تشابهها أحياناً وتفاوتها تارات ، ونهصر أفانين التعبير ونجني أزاهير البيان ونعود أكثر زاداً ، وأقوى امداداً ، وأحفل قلماً ومداداً .

كان معجم «محيط المحيط» في طبعته الجديدة الأخيرة الأنيقة التي أنجزتها مكتبة لبنان أحد تلك المعجمات الحديثة التي نتصفحها ونرجع اليها لاتساعه ومحاولة احاطته بالقديم والحديث وسهولة مطالعته .

وفي أثناء ذلك عثرنا فيه دون استقراء كامل ولا استقصاء على هفوات تسربت من سهو أو خطأ مطبعي أو ايجاز مخلّ .

وقد حرصنا على تقديم هذه المستدركات الى القراء كي يتحفظوا في النقل والى مكتبة لبنان العامرة التي تقوم بجهود مشكورة في تولّيها طبع القواميس والمعجمات من كل نوع لعلها تستجيب في طبعة مقبلة للرغبة التي أبداها مؤلف محيط المحيط في تسديد العمل واستكمال الأثر بمراجعته مراجعة كليّة، فانه يستحق ذلك لمكانته واتساعه وإحاطته .

عمدنا الى تقييد ما عثرنا عليه في طبعته الأخيرة أثناء عملنا في « معجم العماد الموسوعي » . ولكنا لم نكتف فرجعنا الى طبعته الأولى لنتبيّن الأغلاط أنفسها . ووضعنا أرقام صفحات هذه الطبعة بين هلالين . هذا مع ما يعن من استطرادات ربما تكون مفيدات .

* * *

ص ١ (٤) مادة أبز « نجيبة أبوز تصبر صبراً عجيباً في العدو » .
الصحيح « تضبر ضبراً عجيباً في العدو » ضبر الفرس والمقيّد يضبر ضبراً وضبراناً جمع قوائمه ووثب . وذلك أن أبز معناها الأصلي وثب . وربما كان عذر البستاني أن التصحيف ورد في أكثر معجمات اللغة .

ص ٣ (٨) مادة أثر « ولست بمأثور في ديني أي متّهم » .
الصحيح : « أي لست ممن يؤثر عنه الشر » . وهي رواية ثانية لقول عليّ

عليه السلام . أما الرواية الأولى فهي :« لست بمأبـور في ديني » أي بمتّهم في ديني فيتألّفني النبيﷺ بتزويجي فاطمة.

في الصفحة٨ (٢٠) مع أناسم المعجم« محيط المحيط » فقد فاتتـه مادة أزق وهي موجودة في القـاموس المحيـط وفي غيره . جاء في المحيط « أزق صدره كفرح وضرب أزْقاً وأزَقاً ضاق أو تضايق في الحرب كتأزّق فيهما . والمأزق كمجلس المضيق . واستُؤْزق على فـلان ضاق عليه المكان » . وهي كما يرى القارىء الكريم مادة مهمة كثر استعمال المأزق منها في كلام الناس وكتاباتهم .

ص ١٠ (٢٥) مـادة أشر « الأُشْر والأَشَر التحزيز الذي في الأسنان » .
الصحيح : « الأُشُر والأُشَر .. » .

ص ٢٠ (٤٩) . جاء في مادة أهـل « وأهل الأهواء أهل القبلة » . هكذا !. ينقل مؤلف محيط المحيط في أمثال هـذه المادة عن كتـاب « التعريفات » للشريف الجرجاني . ولكنه هنا لم يستوف النقل فأصبح نقلـه مخـلاً ومزريـاً . ونص « التعريفات » هو « أهل الأهواء أهـل القبلة الذين لا يكون معتقدهم معتقد أهل السنة . وهم الجبرية والقدرية والروافض والخوارج والمعطلة والمشبهة . وكل منهم اثنتا عشرة فرقة فصاروا اثنتين وسبعين» . ولو وقف البستاني في النقل عند أهل السنة لكفى . ولكن وقوفه عنـد أهـل القبلة محرج ومخل .

ص ٢٥ (٥٨) . عند شـرح معاني حرف الباء . جاء فيه والمعنى « التاسع المجاورة » والصحيح المجاوزة بالزين لا بالراء . وهـذا في الغـالب مـن الخطـأ المطبعي .

وجاء فيه « والحادي عشر التبعيض كعن » . والصحيح كمن .

ص ٥١ (١١٩) « البَلَخْش ضرب من النبات » .

الصحيح : « البَلَخْش وهو اللعل كما في نخب الذخائر لابن الأكفاني وهو جوهر أحمر شفـاف مسفر صاف يضاهي فائق الياقوت في اللون والرونق، ويتخلف عنه في الصلابة » . سمي كذلك اشـارة الى المكان الذي يكثر وجوده فيه وهـو بَلَخْشان . جاء في معجم البلدان لياقوت« بَذَخْشان بفتحتـين والخـاء معجمة ساكنة وشين معجمة محركة وألف ونون . والعامة يسمونهـا بلخشان باللام وهـو الموضع الذي فيه معدن البلخش المقاوم للياقوت .

في الصفحة ٦٤ (١٤٩) مادة بيض «وأيام البيض بالاضافة أي أيام الليالي البيض قيل هي من كل شهر الثالث الى الخامس عشر • الصحيح الثالث عشر الى الخامس عشر • وذلك أن القمر في ليالي تلك الأيام رهن الابدار •

ص ٩٥ (٢٢٠) مادة جدّ •

« ولولا ثلاثٌ هنّ من شيمة الفتى وجَدّك لم أحْفَلْ متى قام عودي»

الصواب : « لم أحْفِلْ » •

ص ١٠٨ (٢٥٢) الجست اسم حجر هندي والصحيح الجمست •

ص ١٢٤ (٢٨٩) « والجمل أيضاً حبل السفينة • ومنه في سورة الأعراف ولا يدخلون الجنة حتى يدخل الجمل في سُمّ الخياط • وفسر بعضهم الجمل في الآية بالحيوان المعروف •

ومنه قول الشاعر :

ولو أن ما بي من جوى وصبابة على جمل لم يبق في النار كافر »

الصحيح حتى يلج الجمل في سم الخياط • ولا حاجة لضبط السين في سم بالرفع لأنها مثلثة وقراءتنا بالفتح •

ولا بد لنا هنا من بعض التوسع : فالآية الكريمة هي الأربعون في سورة الأعراف كما سلف • وهي بتمامها : « ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين » •

تفسير المفسرين الجمل بحبل السفينة أو الحيوان للدلالة على الامتناع. وفي فهمنا المتواضع للقرآن الكريم نرى أن ذلك ممتنع عليهم حتى يغيّروا طبائعهم ويؤمنوا بآيات ربهم ولا يستكبروا عنها • أما الاستشهاد بقول الشاعر ذاك فيراد به الغلو • ومعنى البيت أن ذلك الحيوان القوي لو حُمّل ثقل الجوى والصبابة الذي حمله الشاعر المحب لنهكه وأضناه حتى صار كالخيط الدقيق يدخل في سم الابرة وعندئذ يدخل المجرمون الجنة ولا يبقى في النار كافر •

وعندنا ليس في القرآن الكريم غلوّ •

ص ١٢٦ (٢٩٢) « وقال في الكليات الجمهور بضم الميم وهو الأصل (وفيه نظر لأن هذا الوزن غير موجود في العربية مطلقاً) • الصحيح : وهو الأصل • وقيل بالفتح (وفيه نظر •••) انظر تفصيل ذلك في تاج العروس ••

وجملة « والاسكان تخفيف وكلاهما مصدر بمعنى الاجتماع » لا محل لها هنا بعد لفظ الجمهور في محيط المحيط ٠

وفي الصفحة نفسها وفي مادة جنب «وفي سورة القصص فبصرتُ به عن جنب» بضم تاء الفاعل ٠ والصحيح «فَبَصُرَتْ به عن جنب» بتاء التأنيث الساكنة ٠

ص ١٦٧ (   ) مادة حسب « قال في الصحاح وحَسِبْتُه صالحاً أحسَبُه بالفتح مَحْسَبَةً ومَحْسِبة وحِسباناً بالكسر أي ظننته. ويقال أحْسِبُه بالكسر، وهو شاذٌ لأن كل فعل كان ماضيه مكسوراً فان مستقبله يأتي مفتوح العين نحو عَلِم يعلَم الا أربعة أحرف جاءت نوادر: حَسِب يحسِب ويحسَب وبئِس يبأس ويبئِس ويئِس ييأس وييئِس ونعِم ينعَم وينعِم فانها من السالم بالكسر والفتح ٠ ومن المعتل ما جاء ماضيه ومستقبله جميعاً بالكسر: وَمِق يَمِق ووفِق يَفِق ووثِق يثِق وورِع يَرِع وورِم يرِم وورِث يرِث وورِيَ الزند يرِي وولِي يلي » ٠ الموجود في الصحاح ورِع يرِع بدلاً من وزِع يزِع ٠

جاء في كتاب « المزهر » لجلال الدين السيوطي (ج٢ ص٣٧ ــ ١٣٧٨ هـ ــ ١٩٥٨ م) « وأما فَعِل فقياس مضارعه يفعَل (بفتح العين) وجاء بكسرها وجوباً في مضارع ومق ووثق ووفق وولي وورث وورع وورم ووري المُخ ووعِم، وبكسرها جوازاً مع الفتح في مضارع حسب ونعم ويئس وبئس ووغر ووحر ووله ووهل وولع ووزع ووهن ووبق وولغ ووصب » هذا ووري الزند خرجت ناره ووري المخ اكتنز ٠

وفي كتب اللغة يبس بالكسر ييبس بالفتح ويابَس وييبِس كيضرب شاذ (الفيروزابادي) ٠ كذلك في التاج (طبعة الكويت) في الأحرف الأربعة النوادر يَبِس ييبِس بدلاً من بئس يبئِس ٠ وهذا ما نراه نحن لأن بعض كتب اللغة لا يذكر في مادة بئس المضارع النادر يبئِس ٠ (انظر أيضاً الخصائص لابن جني ج١ ص٣٧٦ ــ ٣٧٩) ٠

ونسأل أنفسنا أحياناً أعمل اللغوي الذي يؤلف معجماً مجرد الجمع أم الجمع مع التمحيص والتحقيق ٠

ص ١٦٩ (٣٩٥) مادة حسن ٠ « ومنه في سورة بني اسرائيل ادعوا الله أو الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » ٠

الصحيح : « ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ... »
وكذلك « ومنه في سورة براءة : قل هل تربَّصون إلا احدى الحُسْنيين »
الصحيح : « قل هل تربَّصون بنا إلاإحدى الحسنيين »
ص ١٨٢ (٤٢٥) « وحقيقة الحقائق عندهم أيضاً هي العمى » .
يريد عند الحكماء . والصحيح « هي العماء بالمدّ » لأن العماء عند الفلاسفة هو المادة الأولى لعالم الكون والفساد . وهو مبدأ خلق العالم أي ما ندعوه اليوم بالسديم . والعماء في اللغة السحاب المرتفع .
ص ١٨٤ (٤٢٨) « الحُك إبرة الملاحين تتجه دائماً الى القطبة الشمالية فيهتدون بها الى معرفة الجهات مولدة » . الصحيح « الحقّ » لأنهم كانوا يضعون الابرة المغناطيسية في حق صغير .

وقد نبه على هذا الغلط الأب انستاس ماري الكرملي في تعليقاته على كتاب « نُخَبُ الذخائر في أحوال الجواهر » لابن الأكفاني ص ١٠٠ بقوله في بحث المغنطيس : « ولهـذا سماها العرب المولّدون « حق الابرة » ونقلها بعض الأجانب ممن لا يحذق لفظ القاف فقال الحك . وهو غلط وقع في هاويته صاحب « محيط المحيط » وكل من نقل عنه كصاحب البستان وغيره » .
قلنا نحن : ووقع في هذا الغلط المستشرق دوزي في معجمه « تكملة المعاجم العربية » فجاء فيه :

Aiguille aimantée, M. حك »

والحرف M اشارة الى نقله عن محيط المحيط .
هذا وقد نقل معجم دوزي الى العربية د. محمد سليم النعيمي نقلاً موفقاً وعلّق عليه تعليقات ذات فائدة . ولكنه في مادة « حك » من المعجم اقتصر في تعليقه على ما ذكره محيط المحيط دون أن ينبه على التحريف الواقع .

ووقع في الغلط نفسه مؤلف « موسوعة المورد » ولكنه شرح الابرة المغنطيسية شرحاً كافياً وسليماً فجاء فيها «البوصلة ، الحك ، بيت الابرة ، ابرة الملاحين، الابرة المغنطيسية أداة لتعيين الجهات بواسطة ابرة مغنطيسية أو مجموعة من الابر المغنطيسية مرتكزة على نقطة استناد فهي تتحرك بحرية وتشير الى الشمال المغنطيسي Magnetic north يعزى اختراعها الى الصينيين الذين استخدموها

في الملاحة حوالى العام ٨٠٠ للميلاد • وأغلب الظن أن العرب أخذوا البوصلة عن الصينيين • ومن الثابت تاريخياً أنهم استعانوا بها في أسفارهم البحرية • وعن طريق العرب انتقلت البوصلة الى الأوربيين فزودوا بها سفنهم ابتداءً من منتصف القرن الثاني عشر للميلاد » •

ووردت الابرة المغنطيسية في « دائرة المعارف » للبستاني بعنوان « إبرة القُبلة » • والضم خطأ مطبعي لأن المراد هو القِبلة بكسر القاف أي الابرة التي تدل على جهة قبلة المسلمين وهي جهة الكعبة الشريفة اذ تتحدد الجهة بعد معرفة الشمال والجنوب تقريباً حسب المكان • ووردفيدائرة المعارف نفسها قول المؤلف: « وربما سماها بعض المولدين بالحك » •

واتماماً للفائدة نورد ما ألحقه الأب أنستاس بكتاب « نخب الذخائر » في بحث المغنطيس (٩٩) :

« وقال في «كنز التجار» :من خواص المغنطيس أن رؤساء البحر الشامي (أي بحر الروم أو البحر المتوسط ، وخطأ البحر الأبيض المتوسط) اذا أظلم الجو ليلا ولم يروا من النجوم ما يهتدون به على تحديد الجهات الأربع يأخذون إناءً مملوءً ماءً ويحترزون عليه من الريح بأن ينزلوه الى بطن السفينة، ثم يأخذون إبرة وينفذونها في سَمُرَةٍ أو قشّة حتى تبقى معارضة فيها كالصليب ، ويلقونها في الماء الذي في الاناء فتطفو علىوجهه، ثم يأخذون حجراً من المغنطيس كبيراً ملء الكف ويدنونه من وجه الماء ،ويحركون أيديهم دورة اليمين ، فعندها تدور الابرة على صفحة الماء ، ثم يرفعون أيديهم على غفلة ،و سرعة فان الابرة تستقبل بجهتيها جهة الجنوب والشمال •

رأيت هذا الفعل منهم عياناً في ركوبنا البحر من طرابلس الشام الى الاسكندرية في سنة أربعين وستمائة • وقيل ان رؤساء مسافري بحر الهند يتعوضون عن الابرة والسمرة شكل سمكة من حديد رقيق مجوّف مستعد عندهم يمكن أنه اذا أُلْقي في ماء الاناء عام وسامت برأسه وذنبه الجهتين من الجنوب والشمال • انتهى كلام كنز التجار » •

ثم ذيل الأب كلامه بحاشية ننقلها أيضاً لفائدتها • قال :

« وتسمى هذه الابرة إبرة الملاحين وبالفرنسية Boussole فقال بعضهم بوصلة تقريباً لها • وهي بالانكليزية Sea compass أو Compass أو Mariner's needle . وقد عربت في عهد ابن خلدون بصورة كنباص أو قنباص • قال : الكنباص أو القنباص صحيفة مكتوبة عليها القوانين المحصلة عند النوتيين والملاحين على شكل ما هي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة وعليها يعتمدون في أسفارهم (مقدمة ابن خلدون ص ٥٤ ط٣ البيروتية المشكولة) والكلمة الانكليزية من اللاتينية المولدة Compassus بمعنى المساير والماشي لأن النوتي يسايرها في اتجاهها • فأنت ترى من هذا البسط أنها وردت بمعنى الخريطة البحرية وبمعنى ابرة الملاحة وهي بسين في الآخر أو بصاد » (نخب الذخائر ص ١٠٠) •

هذا وعبارات ابن خلدون تختلف عما ذكره الأب اختلافاً بيناً • وهي عند التدقيق ما يلي : « والبلاد التي في حافات البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود ، وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص وعليها يعتمدون في أسفارهم » • (ج ١ ــ ص ٢٩١ نسخة علي عبد الواحد وافي) •

نعود الى اللفظ الفرنسي الذي ذكره الأب أنستاس • فقد ظهر عام ١٥٢٧ مشتقاً من اللاتينية Bussola . ومعناه علبة صغيرة • ومرادفها في الفرنسية Compas قريب من اللفظ الانكليزي • وللفظين الانكليزي والفرنسي بضعة معان (منها الفرجار أو البركار) تجمعها فكرة القياس الذي كان في رأينا يجري بعدّ الخطوات • والخطوة في اللاتينية Passus .

هذا ومن المهم في علبة الابرة المغنطيسية أن تصنع من مادة غير مغنطيسية وتدرّج في جوانبها كميناء الساعة وتوضع في وسطها إبرة ممغنطة ترتكز على محور رأسي تدور حوله طليقة في مستو أفقي فيتجه طرفاها نحو قطبي الأرض المغنطيسيين اللذين هما قريبان من قطبي الأرض الجغرافيين فيعين ذلك على تعرّف

الجهات · ولها أشكال متعددة حسب استعمالها على سطح الأرض وفي البحر وفي الجو ·

نزيد على تعليق الأب أنستاس ماكتبه المؤرخ المقريزي في كتابه «المواعظ والآثار بذكر الخطط والآثار» (ج١ ص ٢١٠ مكتبة الثقافة الدينية) وهو قوله : « وما برح المسافرون في بحر الهند اذا أظلم عليهم الليل ولم يروا ما يهديهم من الكواكب الى معرفة الجهات يحملون حديدة مجوّفة على شكل سمكة ويبالغون في ترقيقها جهد المقدرة ثم يعمل في فم السمكة شيء من مغناطيس جيداً ويحك فيها بالمغناطيس · فان السمكة اذا وضعت في الماء دارت واستقبلت القطب الجنوبي بفمها واستدبرت القطب الشمالي · وهذا أيضاً من أسرار الخليقة. فاذا عرفوا جهتي الجنوب والشمال تبين منهما المشرق والمغرب · فان من استقبل الجنوب فقد استدبر الشمال وصار المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره · فاذا تحددت الجهات الأربع عرفوا مواقع البلاد بها فيقصدون حينئذ جهة الناحية التي يريدونها » ·

وفم الحق ، وقد يقولون الحقة ، مدوّر قسموه اثنين وثلاثين قسماً سموا كل جزء منها خَنّاً وجمعه الأخنان · وتكون المسافة بين الخنين بالمقابلة مع درجات الدائرة $\frac{٣٦٠}{٣٢}$ = ١١,٢٥° اي ١٥ً ١١° · ونسبوا الأخنان الى مطالع النجوم الثوابت ومغاربها. في الشمال نجم القطب وقد يسمونه الجاه وفي الجنوب سهيل كل خن معروف باسم نجم من تلك النجوم ·

ولما أخذ البحارة الاسبان والبرتغاليون ذلك كله عن العرب سموا الخن Rumbo أي الجهة وانتقل الى البحارة الانكليز والفرنسيين بشكل Rhumb مذكوراً في معجماتهم · وهكذا مظاهر الحضارة العربية منسابة في تاريخ الغرب وتفاصيله المختلفة صغيرة وكبيرة ، كما هي حضارة الغرب تنساب في حياتنا العربية اليومية ·

وصادف عند كتابتنا هذه السطور أن اطلعنا على ما جاء في الابرة المغنطيسية بالمعجم العربي الأساسي الذي صدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وأشرف عليه كوكبة من اللغويين في العصر الحاضر فوجدنا أنها « قطعة صغيرة من

الصلب رقيقة محددة الطرفين ممغنطة تدور حول محور أفقي وتتجه دائماً الى القطب الشمالي تستخدم في التعرف على الجهات » •

الصواب أنها تدور حول محور رأسي في مستو أفقي وأنها تتجه الى القطب الأرضي المغنطيسي الشمالي وتستعمل في تعرّف الجهات،لا التعرف على الجهات، يقال : تعرفت ما عندك أي تطلبت حتى عرفت • ثم بلغ منا العجب مبلغه أن هذا المعجم العربي الأساسي أغفل مادة أبَر النخل والزرع يأبُره ويأبِره أبراً وإباراً وإبارة ألقحه وأصلحه ، وكذلك أبّره تأبيراً ، مع أن النخل نبات عربي قديماً وحديثاً • ومثل هذا التعبير شائع بين الناس وفي الكتب العربية • ولا حاجة بك أيها القارىء الكريم الى تصفح بقية المعجم العربي الأساسي • فانك عندئذ ستجد الاغراب والعجب العجاب • وكم يبدو الفرق كبيراً بين محيط المحيط الذي ألفه عالم في ابان النهضة العربية والمعجم العربي الأساسي الذي صدر عن«المنظمة» بعد ما يقرب من مائة وعشرين سنة •

هذا وقد ورد في العربية ألفاظ تدل على المَغْنَطيس يتفاوت ضبطها بعض التفاوت وهي زيادة على ما سلف المِغْنَطيس والمَغْنيطِس والمِغناطيس وهو معرب بعضه طبيعي وآخر صنعي ولاحاجة للافاضة في ذلك لأنه متدارس في كتب الفيزياء •

ص ٢٤٣ (٥٦٤) مادة خطف «والخَطّاف أيضاً طائر أسود • الصحيح : بضم الخاء •

ص ٢٤٦ (٥٧٢) مادة خفي يمثل المؤلف على نون التوكيد الخفية أو الخفيفة • بقول الشاعر :

« ولا تهينَ الفقير علّك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه »

لا حاجة لواو العطف في أول البيت اذ بها يختل الوزن •

ص ٣٣٧ (٧٨٥) « الرصع فراخ النخل الواحدة رصعة »

الصواب : فراخ النحل بالحاء المهملة •

وكذلك المُرْصَع النخل له رصعج مراصيع •

الصواب : النحل بالحاء المهملة •

ص ٣٣٨ (٧٨٧) والمرضع اللؤم وصفار النخل ·
الصحيح وصفار النحل بالحاء المهملة ·
ص ٣٤٣ (٧٩٨) مادة رفرف ، «في سورة الواقعة متكئين على رفرف » ·
الصحيح « وفي سورة الرحمن ···»

ص ٤٣٤ (١٠١٣) مادة سنّ · «وطُعِنَ الرجل في سنه على المجهول أي شاخ وهرم ·
الصحيح : وطَعَنَ الرجل في السنّ أوفي سنّه على المعلوم أي شاخ وهرم ·

ص ٤٧٨ (١١١٤) مادة شكل « ماحكي عن ابن الرقمع ··»
الصحيح عن أبي الرقعمق ·
ص ٤٨٦ (١١٣٢) مادة شهد « وشواهد الأشياء اختلاف الأكوان بالأحوال والأوصاف والأفعال كالمرزوق يشهدعلى الرازق والحي على المحيي وأمثال ذلك»·

الصحيح « وشواهد الأسماء ··· »لأن الرازق والمحيي من أسمائه تعالى والمرزوق والحي من الشواهد ·

ص ٥١٧ (١٢٠٤) مادة صلو
« المصلى موضع الصلاة · وقد يستعمل عند المولدين للجبانة التي تقام فيها الصلوات على القبور » ·

ما ندري من أين أخذ البستاني هذا التفسير لأنه لا تجوز في الاسلام الصلاة على القبر · وكان عليه أن يتحرز دائماًفي كلامه على ما يتعلق بالاسلام خشاة الزلل · على أنه قد يفرد في الجبانة مكان هو مصلى يصلي فيه على الجنائز قبل الدفن لا على القبور ·

ص ٥٢١ (١٢١٤) مادة صنو « ومنه في سورة الرعد وجناتٍ من أعنابٍ وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان» ·
الصحيح : « وجنات" من أعنابٍ وزرع" ونخيل صنوان" وغير صنوانٍ » ·

ص ٥٦٨ (١٣٢١) مادة ظهر « وظاهر الممكنات هو تجلّي الحق بصور أعيانها وصفاتها وهو المسمى بالوجود الالهي ·· »
الصحيح : « بالوجود الاضافي » ·

ص ٦٣٩ (١٤٨٥) مادة عنق « وماخبره الا كعنقاء مغرب ٠٠٠»
الصحيح : « وماخبزه ٠٠٠ » وهو من تصحيف الطبع ٠

ص ٦٥٤ (١٥٢٢) مادة غرب ٠ «وحين قبل الجسم الكل من الاستدارة علم أن الخلاء مستدير ٠ ولما كان الجسم أصل الصور الجسمية الغالب عليها غسق الامكان وسواده فكان في غاية البعد من عالم القدس وحضرة الأحدية يسمى بالغراب الذي هو مَثَل في البعد والسواد » ٠

النص كما أشار اليه المؤلف مأخوذ من كتاب « التعريفات » وصوابه : « وحين قبل الجسم الكلي من الأشكال الاستدارة علم أن الخلاء مستدير ٠ ولما كان هذا الجسم ٠٠٠ »

ص ٦٧٢ (١٥٦٥) مادة غين « وغين على قلبه بصيغة المجهول غيناً تغشته السهوة أو غُطّي عليه وألبس أو غشي عليه أو أحاط به الزين ٠
الصحيح ما جاء في الطبعة الأصلية (ص ١٥٦٥) أو أحاط به الرين بالراء المهملة ٠

ص ٦٧٣ (١٥٦٥) مادة غين ٠ « وقال في التعريفات: الغين دون الدين وهو الصدأ فان الصدأ حجاب رقيق يزول بالتصفية ونور التجلي لبقاء الأعيان معه ٠ والدين هو الحجاب الكثيف الحائل بين القلب والايمان ٠ ولهذا قالوا : الغين هو الاحتجاب عن الشهود مع صحة الاعتقاد » ٠ الصحيح هو الرين بالراء بدلا من الدال المكسورة في كلا الموضعين ٠ وقد وقع الخطأ أيضاً في الطبعة الأصلية

ص ٦٨٧ (١٥٩٧) مادة فرق ٠ « وفي التعريفات الفرق اشارة الى خلق بلا حق ٠ وقيل مشاهدة معبودية » ٠
الصحيح : مشاهدة العبودية ٠

ص ٧٠٣ (١٦٣٤) مادة فند ٠ وردهذان البيتان :

« ما رأينا لغراب مثلاً ... اذ بعثناه يجيءُ بالمشملة
غير فند أرسلته قابساً ... فثوى حولاً وسب العجلة »

الصحيح يجي بلا همزة ولا علامة سكون تحامياً لجزم الفعل دون جازم وذلك كما جاء في المعجمات العربية ٠

جاء في « لسان العرب » : « الأصل في قوله يجي يجيء بالهمزة فخفف الهمزة للضرورة » .

وجاء في « أساس البلاغة » : « قال أبو زيد ، وقد يدعون الهمزة فيقولون جا يجي والناس يجون .

ولا بأس هنا أن نستطرد فنشرح من هو فند معتمدين على ما جاء في محيط المحيط . هو « اسم أبي زيد مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص أرسلته مولاته عائشة ذات يوم ليأتيها بشعلة نار من بيوت الجيران ، فوجد قوماً ذاهبين الى مصر ، فتبعهم من فوره وأقام هناك سنة، ثم قدم . ولما دخل الحيّ أخذ ناراً وجاء يعدو الى بيت عائشة ، فعثر بحجر هناك وتبددت النار التي كان قد أتى بها فقال: تعست العجلة . فضرب به المثل . يقال هو أبطأ من فند . وفيه قال الشاعر : « ما رأينا ... » المشملة كساء يُتدثر به . وغراب اسم رجل أرسلوه ليأتيهم بها فأبطأ فقال بعضهم البيتين مشبهاً إياه بفند المذكور آنفاً .

ص ٧٠٣ (١٦٣٧) مادة فنو «الفناة البعرة ج فنوات » الصحيح: البقرة وهذا خطأ مطبعي .

ص ٧١٩ ، (١٦٧٣) مادة قدر . « وفيها ــ أي التعريفات ــ أيضاً القدر خروج الممكنات من العدم الى الوجود واحداً بعد واحد مطابق للقضاء » . الصحيح مطابقاً .

ص ٧٥٩ ، (١٧٦٦) ، مادة قنع . « القناعة الرضى بالقسمة . وعند أهل الحقيقة هي السكون عند عدم المأكولات» .
الصحيح عند عدم المألوفات (كما في التعريفات) .

ربما كان المعلم البستاني جائعاً حين كتب هذا اللفظ . ذكر جرجي زيدان في كتابه « مشاهير الشرق » (ج٢ ، ص٢٩ ــ ٣٠) في صفات المعلم بطرس وأخلاقه « فاذا بدأ بعمل أكبّ عليه بكلّيته مواصلا العمل للقيام به . وكانوا اذا افتقدوه ليلا أو نهاراً عثروا عليه في مكتبه وأوراقه » . فربما نسي الطعام عندئذ وسكن عن ... المأكولات .

ص ٨١٠ ، (١٨٨٤) ، مـادة لحق« ولاحق الآطال في قـول امرأة من بني الحارث :

لـو يشـا طار بـه ذو ميعـة   لاحق الآطـال فهد ذو خُصَل

أرادت به ضامر الجنين » .

الصحيح ضامر الجنبين . وهو خطأ مطبعي .

ص ٩٠٥ (٢١٠١) « نعاه له ينعاه نَعْياً ونُعِياً ونعياناً أخبره بموته » .

الصحيح نَعِيّاً بدلاً من نُعِيّاً .

ص ٩٨٧ ، (٢٢٩١) ، « الوهابية فرقـة من الاسـلام محدثـة أتباع عبد الوهاب » .

الصحيح أتباع محمد بن عبد الوهاب . وهي ليست فرقة من الاسلام ولكنها حركة تجديدية .

ص ٩٨٨ ، (٢٢٩٣ ـ ٢٢٩٤) . « الايهام مصدر أوهم . وعند أهل البديع هو أن يذكر لفظ له معنيان قريب وغريب . فاذا سمعه الانسان سبق الى فهمه القريب . ومراد المتكلم الغريب . وأكثر المتشابهات من هذا الجنس . ومنه قوله: والسموات مطوية بيمينه . ويقـال له التخييل أيضاً » .

الصحيح والسموات مطويات بيمينه (سورة الزمر) .

ثم ان المتعارف عند أهل البديع أن الايهام هو التورية . وقد جاء في مـادة وري في محيط المحيط نفسه عند الكلام على التورية أنها يقال لها الايهام وهـي « أن يطلق لفظ له معنيان أحدهما قريب والآخر بعيد . فيراد البعيد منهما ويورّى عنه بالقريب » . وكان من المناسب عند شرح الايهام أن يذكر المؤلف مرادفه وهو التوريـة وأ نيستعمـل لفظي القـريب والبعيد كمـا هـو متعارف لا القـريب والغريب .

على أنه في رأينا من المناسب التفريق بين التورية والايهام منجهة والتخييل من جهة أخرى . وقد لمح ذلك النويري في كتابه نهاية الأرب (ج٧ ص ١٣٢) .

حيث يقول متأثراً بتفسير الزمخشري :« وعند علماء البيان التخييل تصوير حقيقة الشيء للتعظيم كقوله تعالى : (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) والغرض منه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين الى جهة حقيقة أو مجاز » .

ثم يقول صاحب « الكشاف » بعد موجز تلك العبارة التي استقاها النويري: « ولكن وَقْعُ فهمه أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هواناً لا يوصل السامع الى الوقوف عليه الا إجراءُ العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل . ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء فان أكثره وعِلْيَتَه تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديماً . وما أُتي الزالون الا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدروه حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفتقرة اليه وعيال عليه اذ لا يحل عقدها المورية ولا يفك قيودها المكربة الا هو . وكم من آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة ، لأن من تأوّل ليس من هذا العلم في عير ولا نفير ، ولا يعرف قبيلا منه من دبير » . يريد جار الله بالعلم الذي يؤمىء اليه ويعلى شأنه علم البيان لا علم البديع الذي يشتمل في محسناته المعنوية على التورية والايهام . ويريد بعلم البيان حقيقة البلاغة وذروتها في تصوير الأشياء حسب معارج الخيال وقوة الايحاء . وقد أتينا بجملة فقراته تنويها بأساليب البيان المبتكرة لا لمجرد الوقوف على قواعد جامدة ، يتوارثها النقلة ، والمتسرعون من المؤلفين .

الخلاصة أننا أوردنا هذه المستدركات في هذا المقال حرصاً على تلافيها هي وأشباهها . وسنح لنا في البحث الاستطراد الى قضايا لا تدخل في حسن تأليف المعجم ولكنها تعين على التبصّر وحب التنقيب وعلى الانطلاق وزيادة البحث والتنقير .

□ حاشية :

كتبنا هذا البحث ثم راينا أن نرجع الى « مجلة المجمع العلمي العربي . (مجمع اللغة العربية اليوم) بلمشق لعلنا نجد من سبقونا الى مثل هذا الاستدراك • فحصنا عن أكثر أجزائها القديمة وصفحناها فالفينا نفراً من هؤلاء كانهم الفرسان فوق ساحات الطعان في مباريات واسعة ومناقشات بارعة نامل أن نورد زبدة كلامهم وخلاصته اتماماً للفائدة في عدد مقبل من مجلة « التراث العربي » ونغفل جهد الاستطاعة ما كان من قبيل تشقيق الكلام وتفويق السهام والتهجم الذي لا يستحب ولا يرام • ولكنا مع ذلك نورد خلاصة تحقيق ورد في الجزء ١٢ والمجلد الخامس (كانون الاول سنة ١٩٢٥ م ـ جمادى الأولى ١٣٤٤ هـ) عنوانه « عدوى الأغلاط في دواوين اللغة » كتبه محقق أغفل اسمه ، ونكتفي به الآن لنشير الى الشدة والقسوة اللتين كانتا تلازمان النقد والرد •

جاء في « محيط المحيط » : شان يشون شوناً فرّج الشؤون أي الهموم » • ويرى الناقد المحقق أن هذا الشرح غلط فاحش انتقل الى عديد من المعجمات الحديثة عربية وأجنبية • وهو يذكر النصوص التي عثر عليها في هذه المعجمات العربية العربية والعربية الفرنسية والعربية الانكليزية والعربية اللاتينية والعربية التركية ، وأن ذلك التفسير خروج عن مصطلح العرب وعدول الى الوهم • ورأى « أن الداء سرى من صاحب محيط المحيط الذي أفسد لغة عدنان بما حشا كتابه من الأغلاط المتنوعة » (هكذا) ويكب على أصل الخطا فيرى أن كتب اللغة المعتمدة تقول : يشون الرؤوس أي يفرج شؤونها • والشؤون جمع شان من معانيه مَوْصِل قبائل الرأس وهي القطع المشعوب بعضها الى بعض (أي ما نسميه في التشريح الدروز جمع درز) • ولا يقف المحقق عند هذا بل ينقّر في كتب اللغة فيجد عقبة جديدة أخرى حين يرى في تاج العروس وفي لسان العرب وغيرهما نصاً غريباً وهو « قال ابن بزرج قال الكلابي هو يشون الرؤوس أي يفرج شؤونها ويخرج منها دابّةٌ تكون على الدماغ • ويبذل المحقق اجتهاده فيرى قولهم دابّةٌ تحريفاً عن دواية وهي الغشاء او السحاية او القشرة التي تكون على الدماغ ، وأن مؤلف محيط المحيط قد توهم حين فسّر الشؤون بالهموم من عند نفسه فضل أي ضلال • هذا وعندنا أن هذه المادة شان يشون مخففة من شان يشؤن ومشتقة من شؤون الرأس اي مواصل قبائله كما ينم على ذلك كلام اللغويين •

على أن ثمة اخطاء كثيرة سوف نحاول الاتيان عليها • بعضها سطرها بتهجم قوي الأب أنستاس ماري الكرملي •

كان ولا يزال اللغويون والأدباء وغيرهم من أصحاب كل نحلة بعضهم قساة في الغالب على بعض • وربما كان هذه القسوة في بعض مظاهرها ناشئة عن ضيق الذرع وعن العنت الذي يلقونه في بحوثهم وتنقيرهم الذي لا ريث فيه ولا فتور، شان كل باحث ممحص ومجتهد مدقق ، أو كان ذلك ناجماً من المشاركة والغيرة وأن يحظى بعضهم بالشهرة والمكانة أكثر من بعض • وقد علمنا القرآن الكريم في خطاب النبي شعيب لقومه « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » (الأعراف ٨٥) أي لا تنقصوهم حقوقهم • ولو تامل كل فريق لعلم أنهم ينتمون في الجهد والعمل الى أسرة واحدة نبيلة وكريمة وأن بعضهم يكمل بعضاً وأن الرفق والاحترام سبيل التعاون والاكتمال • وما أحسن قول أبي تمام حبيب بن أوس يخاطب صديقه ورصيفه علي بن الجهم :

إن يُكد الاخاء فاننا ... نغدو ونسري في إخاء تالد
أو يختلفْ ماء الوصال فماؤنا ... عذب تحدَّر من غمام واحد
أو يفترقْ نسب يؤلفْ بيننا ... أدب أقمناه مُقام الوالد

★ ★ ★

أين نقف من تراثنا عامّة

ومن علوم العربيّة خاصّة

صلاح الدين الزعبلاوي

المختار عندي أنه لا يزال في كل علم من علوم العربية مجال للبحث ومتسع للنظر ، وموضع للتعمق والتبسط ، على أن نخبر قبل كل شيء ما انتهى اليه أسلافنا في ما ألّفوه وحققوه فلا يغيب عنا شيء مما أحاطوا به ووقفوا عليه من دقائق هـذه العلوم ·

ونحن نود أن نخبر هذا كله عن الأوائل فنفرغه في أذن واعية ، لا لنردده ونجمد فيه فنشير برأيهم ونتكلم بكلامهم في كل موضع ، فنجري مجراهم ونجوز مجازهم لمكان الثقة بهم في تحري الصواب ، اذ لا بد من تجديد البحث في ذلك وترويضه ، بل تليينه وتمرينه ·

فاذا أقبلنا على تراثنا في علوم العربية اقبال استئناس وانبساط ، فنحن لا نقبل عليه اقبال محاكاة واحتذاء ، على غير استدلال أو مقايسة ، بل نبتغيه ابتغاء معالجة واصطفاء ، فنقتدح له زناد الرأي ونصرّف فيه أعنّة الفكر ، ونستفرغ في ذلك الوسع ونستغرق الطـوق ·

ومن أجل هذا نؤكد أننا لسنا مع القائلين : « من العلوم علوم نضجت واحترقت وهي علم النحو » أو القائلين : « لم يبق من جليل الأمر ولا صغيره لقائل بعدهم قول » ، بل لا نحسب أننا نرى رأي الامام أبي عثمان المازني (ت ٢٤٧ هـ) القائل : « من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي » ، كما حكاه ابن الأنباري أبو البركات (٥٧٧ هـ) في كتابه (نزهة الألباء في طبقات الأدباء) · هذا على ما انطوى عليه كتاب سيبويه من أصول هذا العلم والكشف عن أغراضه ، والغوص على دقائقه وخفيّ مقاصده ، وعلى ما ضم من منثور المسائل وشتيت الفوائد ، وما بذل في تأليفه من جهد الفكر واعنات الروية · وقد شغل العلماء بهذا الكتاب ، وعلى رأسهم المازني أبو عثمان

ابن بكر محمد (٢٤٩ هـ) وتلميذه المبرّد محمد بن يزيد بن عبدالله (٢٨٥ هـ) وتوليا اقراءه وافهام محتواه .

☐ موقف أدباء العصر من التراث عامة :

وقد وقف كبار أدباء العصر من تراثنا عامة والتراث الأدبي خاصة ، نحو هذا الموقف، فهذا الدكتور طه حسين ، رحمه الله ، يقول في (مرآة الاسلام) : « وسبيلهم الى هذه اليقظة الخصبة واحدة لا ثانية لها ، وهي أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم ، لا ليقولوا انهم يذكرونه ، بل ليعرفوه حق معرفته ، ويفقهوه حق فقهه ، ويحسن المتخصصون فهم العلم بدقائقه وتيسيره لغير المتخصصين » . وقد أراد فوق ذلك أن ينبه على أن « باب الاجتهاد في فهم النصوص القديمة وتحقيقها لم يغلق .. وأن الأدب القديم كله صالح لأن يخضع للمناهج العلمية الحديثة ، تكشف أسراره وتتعرف أصوله ، ذلك ما يجعل نتائج البحث وأسلوبه أقرب الى الثورة منها الى التحقيق الأدبي .. » .

وهكذا فعل الأستاذ عباس محمود العقاد، رحمه الله ، في ما عقده من فصول في (مجلة الهلال لشهر نيسان ١٩٣٦) في موضوع التراث العربي ووسائل احيائه في هذا العصر . اذ رأى « أن الوسيلة المثلى لايجاد الرغبة في احياء التراث العربي ، هو مزجه بالحياة الحاضرة واقحامه في مراحلها ، فلا يشارفه الانسان كما يشارف متحفاً قديماً للآثار المحفوظة ، بل يشارفه كما يدخل في معترك الحياة وينغمس في تيار الشعور والعاطفة ، وليس ذلك بعسير اذا حُسنت المطالعة وحسُن الاجتهاد وحسُن التنبيه .. » .

وهذا الأمير شكيب أرسلان ، رحمه الله ، يعقد فصلا في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٣٧ (المجلد / ١٥ – ص / ٤٤٢) فيقول : « وهكذا ستكون ثقافة العرب بعد اليوم غير جامدة على القديم الذي ثبت للعرب المحدثين وجوب التبديل فيه والاضافة اليه ، ولن تكون منسلخة من القديم جاحدة في التبرؤ منه ، بل ستكون ثقافة جامعة بين القديم والحديث .. » .

وقد نحا هذا النحو الدكتور محمد عمارة في كتابه الحديث (نظرة جديدة الى التراث) وقد صدر عام ١٩٧٩ . على أنه نبه على أمرين :

الأول : اختيار ما يقدم الى الأجيال الحاضرة والمستقبلة من نصوص التراث ، وهنا تتباين الآراء وتتعارض المذاهب .

الثاني : الالحاح على تبين المدارس الفكرية الحرة من التراث ، وهي المدارس التي أعلت قدر العقل ورفعت من شأنه لا سيما المعتزلة ، وهم أول من أشاد بالعقل من الفرق الاسلامية فرأوا فيه من القدرة والسعة ما يخوله أن يكون الفيصل بين الحق والباطل والفرقان بين الخير والشر ، والحكم في أمر الدين والعقيدة، فهو المعتمد في اقامة البرهان على كل ما يتعلق بالله ، خلافاً للسلفيين الذين استمسكوا بالنصوص ووقفوا عندها وكفوا

عن التأويل ورأوا أن العقل أضعف من أن يرقى الى السلطة التي جعلها له المعتزلة فقدرته الى حد معلوم ، فناهضوا المعتزلة ومنجاز مجازهم ·

وكان من معتدلي أصحاب السنة شيخ الاسلام أبو العباس تقي الدين ابن تيمية ، وهو الامام الجليل الذي ثبت لخصومه فدحض كل ما أرجفوا به حوله وانتصر عليهم بقوة حجته، بعد أن آذوه ونالوا منه وآلوا به الى السجن غير مرة ، وفي السجن ألّف ابن تيمية معظم كتبه ومنها (رد تعارض العقل والنقل) وقد تلمذ له كثير من أعلام الباحثين · وكان آخر ما آل اليه ابن تيمية السجن في قلعة دمشق · وقد جُرد آخر أيامه من القلم والدواة فعكف على العبادة حتى توفي فيها ، رحمه الله ، عام (٨٢٧ هـ) ·

واذا كان ابن تيمية قد اعتمد الكتاب والسنة وآثار الصحابة في بحوثه فجعلها سنده الأول ، فانه لم يهمل العقل وتفكيره ، ولكنه لم يجاوز به قدره ومجاله ، وكان يستدل أولا ثم يعتقد ما أدّاه اليه دليل النص · وقد تحدث عنه كثير من الباحثين ، وممن وفق لايضاح مذهبه الدكتور محمد يوسف موسى ، في كتابه (ابن تيمية) ·

☐ **موقف مجامع اللغة من الأصالة والمعاصرة وجهدها في استحداث المصطلح :**

وها هي ذي مجامع اللغة العربية تنهج هذا المنهج في استساغة كل معاصرة اتسعت لها الأصالة ، فلا تضيق عن شيء من ذلك الا أن تأباه روح العربية وطرائقها · فليست مجامع اللغة معاهد يعتصم بها أعضاؤها ليرددوا ما قاله أسلافهم من العلماء فيتعبدوا بكلامهم ويعرضوا عن مواكبة الحياة المتدفقة الزاخرة ولا يلقوا بالا لما يمكن أن تتجهز له العربية لتكون لسان الحضارة الراهنة كما كانت لسان الحضارة الغابرة ·

وقد اتسع العمل في مجامع اللغة هذه وفي المؤسسات العلمية واللغوية الأخرى فتحقق على يديها ما كان مراد أمانيها وقبلة رجاء المتخصصين، اذ أثمر غرس جهودها في مضمار استحداث الألفاظ والمصطلحات العلمية معاجم متخصصة في علوم الطب والصيدلة والزراعة والكيمياء والفيزياء وغيرها فاقت ما ألفته المجامع من معاجم لغوية حديثة كمعجم الوسيط وبعض أجزاء المعجم الكبير ، وقد تولى الاشراف عليهما مجمع اللغة العربية بالقاهرة ·

وقد غدت الحاجة ماسة الى وضع معاجم لألفاظ الحضارة المادية وأخرى لمصطلحات الهندسة والفيزياء النووية وعلم النبات والحيوان والجيولوجية وعلم الاقتصاد وعلم النفس والتربية وعلم الآثار والجغرافيا والتاريخ وللفنون والفلسفة ·· فخطت المجامع في هذا المضمار خطوات فسيحة جادة ·

ولا بد من الافادة في وضع مثل هذه المعاجم من العودة الى كتب التراث ككتاب أقراباذين القلانسي في مصطلحات الصيدلة ،وبحر الجواهر لليوسفي الهروي ، وشرح تشريح القانون لابن سينا للطبيب المعروف ابن النفيس (١٢٨٨ م) ومفاتيح العلوم للخوارزمي (٩٩٧ م) وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١٧٤١ م) ·

□ مجامع اللغة وما اتخذته من ضابط في التخطئة والتصويب :

جرت مجامع اللغة غالباً في ما عقدته من المؤتمرات في القاهرة ، على نهج صريح لزمته وراعته في أحكامها بالتخطئة والتصويب ، وهو ينطوي على اساغة ما شاع على ألسنة الكتاب وجرت به أقلامهم ما اتسعت له الأصالة ولم تمنع منه روح العربية وطرائقها ، لكنها لم تستمسك بهذا الخط في كل حين ، بل تحولت عنه وأقصرت فجعلت تتلطف لتخريج ما لا يصح من أساليب الكتابة متى شاع ، وتتأتى لتلتمس الوسائل لتأويله ، بل تبتغي كل سبيل لتخلص الى اجازته والحكم بصحته ولو لم ينصره دليل مفحم أو تسعفه حجة قاطعة ·

فقد حاولت لجنة الألفاظ والأساليب مثلا أن تتخذ قراراً بصحة قول القائل (لعب فلان دوراً في هذا المضمار) ، وهي تعلم حق العلم أنه ترجمة حرفية لعبارة أجنبية تغاير طرائق العربية وأن (لعب) فعل لازم ، وأن اللعب أدنى الى اللهو وأبعد عن العمل الجاد· قال تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ــ الأنبياء ــ/١٦ » وقال أيضاً : « قال أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ــ الأنبياء/٥٥» · وقد قال أحد الأعضاء : « ان من أكبر الخطأ أن يصدر مجمع اللغة العربية رخصة لا سند لها من ضوابط اللغة ··· وأخشى أن تنشر العامية بمثل هذه الرخص »، وقال عضو آخر : « أيصح قولك لعب القرآن دوره في تخليد اللغة العربية » ، فأدى ذلك الى رجحان كفة الرافضين لقرار اللجنة · وقد تم ذلك عام ١٩٧٨ ·

ثم عادت اللجنة فعرضت العبارة على التصويت في العام الذي تلاه · وحين أفصح الأعضاء عن انكارهم لاجازة التعبير أحجم الرئيس عن طرح الاجازة على التصويت ·

□ أمثلة مما صوّبه مجمع اللغة العربية بالقاهرة من العبارات الشائعة :

وقد صوبت لجنة الألفاظ والأساليب في مجمع اللغة العربية بالقاهرة استعمال (التغطية) بمعنى (الاستيعاب) ، وهي في الأصل ترجمة حرفية للفظ أجنبي ، واتخذ المجمع قراره بذلك · فاذا صح هذا كان لك أن تقول (ذهب فلان لتغطية أخبار المؤتمر) وأنت تعني أنه (ذهب لتقصي أخبار المؤتمر واعلانها) فكيف يُعبّر عن جمع الأخبار لاعلانها بالتغطية ، والتغطية في العربية هي الستر والحجب ، وكيف يستقيم قولك (قد توفر في السوق ما يُغطي الحاجة) وأنت اذا سترت الحاجة وحجبتها استغنيت عن السوق وما فيها ·

وقد صوبت لجنة الألفاظ والأساليب قول القائل (فوضت فلانا في الأمر) وهو ترجمة حرفية ، والأصل أن تقول (فوضت الأمر الى فلان) واتخذ مجمع اللغة العربية بالقاهرة قراراً بذلك · واستندت اللجنة في تصويبها الى امكان حمل العبارة على (نزع الخافض)، وقالت انه كثير في العربية واستشهدت بقول الشاعر (تمرون الديار) أي تمرون بها أو حملها على (التضمين) باشراب (فوض) معنى (أناب) أو (وكّلَ) ، وقالت (وما يُصاغ منه في لغة السياسة (الوزير المفوض) · (مجلة المجمع القاهري/١٩٧٧) ·

أقول اذا ما عدنا الى الفصل الذي عقدناه حول (أوجه القياس والسماع في حذف الجار) في كتابنا (مسالك القول في النقد اللغوي) ، وجدنا أن مذهب الجمهور في (نزع الخافض) أنه سماع لا وجه فيه لقياس ، كما جاء في (الأشباه والنظائر) للامام السيوطي (١٩٤/٣) وقد قصره الأكثرون على ما نُصب وحقه الجر من ظرف مكان لم يستوف شرط نصبه (مفعولا فيه) • ذلك أنهم شرطوا لنصب الظروف أن يكون فضلة من زمان أو مكان ، واطلقوا الزمان ولم يقيدوه ، على حين حددوا المكان بأن يكون مبهماً كجلست أمامك أو مقيد المقدار كسرت فرسخاً • أو مصوغاً من مادة الفعل كجلست مجلسك •• وخصصوا المكان المبهم بما كان اسماً من أسماء الجهات الست كفوق وتحت •• أو كان له مثل حظه في الابهام نحو قوله تعالى (أو اطرحوه أرضاً) • فاذا اتفق ظرف مكان ليس على شيء من الابهام فمن حقه الجر لفظاً ، فان جاء منصوباً في كلام من يُوثق بعربيته قيل انه منصوب على (نزع الخافض) على جهة الاتساع ، ومن ذلك (تمرون الديار) والأصل (على الديار) أو (بالديار) ، وقوله تعالى « ولأ قعدن لهم صراطك مستقيماً ــ الأعراف ١٥/ » وهكذا ••

أما قول اللجنة : ان نزع الخافض كثير شائع في اللغة وذهابها الى أن بابه مفتوح لا يضبطه سماع أو يحده قياس ، أقول اذا أصح ما استنته اللجنة ، فاقل ما فيه أنه موجب للبس ، مقيس على نادر ، متنكب عن الجادة في أساليب التعبير ، واذا شايعنا المجمع وجعلنا حذف الجار على (نزع الخافض) قياسا جاز لنا أن نعدل بكل مجرور الى النصب حملا على ذلك، بل ساغ لنا أن نتحول عن حال كل فعل في اللزوم والتعدي الى حال غير حاله دون ناظم ، وهذا نهج لا يثمر في اللغة الا انتقاض أحكامها واضطراب حبلها ، وهذا ما لا مساهلة في دفعه ولا مياسرة في اتقائه •

وقد يتسع بعض الأئمة حيناً فيحملون ما نصب ، وليس هو ظرف زمان أو مكان مبهم ، على (نزع الخافض) ، لكنهم لا ينحلون الفعل في ذلك حكماً في التعدية غير حكمه ، كما نزع اليه المجمع اللغوي القاهري ، وانما يجرونه في ما جاء منصوباً بغير عامل من فعل مذكور ، فقد جاء (ملّة) بالنصب في قوله تعالى : «وهو اجتباكم وما جعل عليكم من حَرَج ملة ابراهيم ــ الحج » ، فحملوا نصب (ملّة) على نزع الخافض ، كما جاء في تفسير الجلالين ،والمختار في هذا أن يقدروا الفعل الناصب الذي يقتضيه المعنى كما فعل العكبري محب الدين أبو البقاء (٦١٦ هـ) في كتابه (البيان في اعراب القرآن) • وقد نحا تفسير الجلالين هذا النحو في قوله تعالى (فطرة الله التي فطر الناس عليها ــ الروم / ٣٠ » ، فلجأ الى توجيه نصب (فطرة) بتقدير فعل يناسب المعنى فقال : (أي الزموها) •

أما حمل اللجنة قولهم (فوضت فلاناً) على (التضمين) فليس أرجى حالا من حمله على (نزع الخافض) • فاذا تدبر القارىء باب (التضمين) في اللغة كما بسطنا القول فيه بكتابنا (مسالك القول في النقد اللغوي) عرف أن التضمين انما شُرع لغرض تعبيري وفائدة معنوية ، وأن له شروطاً لا بد من استيفائها ، وقد أوصى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ألا يلجأ الى التضمين الا لغرض بلاغي • فاذا عمدت اللجنة الى أي ضرب من

ضروب (الاتساع) في اللغة لتسويغ الخطأ فلا شك أنها جارت عن قصد السبيل وجرت في الحكم بلا دليل . وليعد من شاء الى الفصل الذي أشرنا اليه في كتابنا أو أي مرجع آخر ليحيط بالمسألة فيكون منها على يقين جازم .

وأما اقرار قولهم (الوزير المفوض) والأصل (المفوض اليه) فلا حاجة به الى اقرار قولك (فوضت فلاناً) ، اذ يمكن حمله على حذف الصلة (اليه) كما حذفوها في كثير مما اصطلحوا عليه في التسمية ، فقد قالوا (اسم مشترك) أي مشترك فيه ، كما قالوا (فريضة مشتركة) أي مشترك فيها . كما قالوا (المأذون والمحجور) والأصل (المأذون له والمحجور عليه) . قال صاحب المصباح : « وأذنت للعبد في التجارة فهو مأذون له ، والفقهاء ، يحذفون الصلة تخفيفاً فيقولون : العبد المأذون كما قالوا محجور ، بحذف الصلة ، والأصل محجور عليه » . وقالوا (الظرف المستقر) بفتح القاف أي المستقر فيه ، وهو بخلاف (الظرف اللغو) في اصطلاح النحاة ، وهكذا (كتاب مغلوط) أي مغلوط فيه ...

□ أمثلة مما صوّبه مجمع اللغة العربية بالقاهرة من جموع التكسير :

ومما أقره مجمع اللغة العربية بالقاهرة في مؤتمره اطلاق جمع ما كان على زنة (فاعل) على (فواعل) ، وقد جاء في القرار (لا مانع من جمع فاعل لمذكر عاقل على فواعل نحو باسل وبواسل) (مجلة المجمع القاهري/٩٧٣) . وقد اعتمدت اللجنة في ذلك على أن العرب قد جمعت مما جاء على (فاعل) لمذكر عاقل ثلاثين جمعاً أو أكثر . **والصحيح أنه لا مساغ البتة لاباحة جمع فاعل على فواعل اذا كان وصفاً لمذكر عاقل ، ولا عبرة بما جاء منه على هذا النحو ولو فاق الثلاثين . اذ لا مندوحة عن تعرف حال الصفة فاذا جرت على الفعل فلا بد من جمعها جمع سلامة كقولك (هؤلاء ذائعو الصيت) و (مانعو الزكاة) ، ولا وجه البتة لقولك (هؤلاء ذوائع الصيت)و (موانع الزكاة) اذا قصدت الرجال .**
وقد جاء في التنزيل (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين/ التوبة ـ ١١٣ » . أفيصح أن تقول في معناها (التوائب العوابد الحوامد السوائح الرواكع السواجد الأوامر ..) ؟ فالأصل في (فاعل) اذا كان وصفاً لمذكر عاقل أن يجمع جمع تصحيح، فاذا جمع جمع تكسير فقد أشبه الاسم فأنزل منزلته في الجمع . قال سيبويه في الكتاب (٢٠٦/٢) : (كما قالوا في الصفة التي ضارعت الاسم ، وهي اليه أقرب من الصفة الى الاسم ، وذلك راع ورعيان وشاب وشبّان » . وجمع فعلان بالضم انما هو للأسماء دون الصفات كما في الهمع (١٧٨/٢) . واذا تدبرت ما جمعوه من (فاعل) وصفاً لمذكر مما قيل على (فواعل) تكسيراً ونسبوه الى الشذوذ استطعت أن تردّ كثيراً منه الى مضارعة الاسم أيضاً . فاذا تأملت (الفارس) لم تر أنه على شيء من الحدوث ووجدت أنك لست بحاجة الى ذكر موصوفه أو تقديره ، لشهرة استعماله منقطعاً عنه ، واختصاصه ، فانت تقول (مررت بفارس) كما تقول (مررت برجل) ولا تخشى فيه اللبس فتكسّره في الجمع كما تكسّر الأسماء . قال البغدادي في خزانة الأدب (٢٠٦/١) حول جمع فارس

على فوارس : (فقالوا انه من الصفات التي استعملت استعمال الأسماء فقرب بذلك منها ولأنه لا لبس فيه ، كما ذكر سيبويه ، من أن الفارس في كلامهم لا يقع الا للرجال » • وقد فصّلنا القول في هذا في كتابنا (مذاهب وآراء في نشوء اللغة وتدرج معانيها) فأوضحنا سبب جمع (هالك على هوالك) و (غائب على غوائب) وشاهد على شواهد وباسل على بواسل وهازم وخارج على هوازم وخوارج ، والأصل أن تجمع جمع سلامة •

وأعجب من ذلك وأذهب في الغرابة اطلاق المجمع القاهري في مؤتمره جمع (مفعول على مفاعيل دون تفريق بين صفة جارية على فعلها وأخرى مضارعة للاسم • فاذا صح هذا قلت (حوادث مشاهيد ، وأيام معاديد ، وأشياء مواضيع) في معنى قولك (حوادث مشهودة أو مشهودات وأيام معدودة أو معدودات وأشياء موضوعة أو موضوعات) وكان لك أن تقول في معنى الآيات « اننا لمردودون ـ النازعات/ ١٠) و (انهم لهم المنصورون ـ الصافات / ١٧٢) و (الحج أشهر معلومات ـ البقرة / ١٩٧) و (أكواب موضوعة ـ الغاشية / ١٤) كان لك أن تقول في معناها : (أئنا لمراديد) و (انهم لهم المناصير) و (الحج أشهر معاليم) و (أكواب مواضيع)، بل لو صح ما نزعوا اليه لجاز لك أن تقول : (هؤلاء مسارير أو مآسير أو مشاكير أو مآجير •) جمع مسرور ومأسور ومشكور ومأجور•

□ الاحتجاج بالتطور اللغوي في اقرار الخطأ الشائع :

ونحن لا ننكر تدرج معاني الكلم وتجددها بالمجاز ومجاز المجاز والنقل من الخاص الى العام ، ومن العام الى الخاص ، وقد بسطنا القول في ذلك • في كتابنا (مذاهب وآراء في نشوء اللغة وتدرج معانيها) فليعد اليه من شاء من القراء ، الا أن للتدرج والتجدد أصولا وحدوداً لا بد من مراعاتها والأخذ بها ، بل نعتقد جازمين أن لاوجه لجمود المعنى في اللفظ كما يبدو ذلك حيناً في كثير من المعاجم العربية ، وأن اعتماد كثير من المحدثين على ظاهر النص والتعويل عليه في التخطئة والتصويب مخالف لأصول ارتقاء اللغة وسنن تحول معانيها وطرائق تعبيرها بتحول العصور والأجيال ، وأنه لا بد أن تؤلف في العربية معاجم حديثة على مثال ما يؤلف في اللغات الحية الأخرى دقة واحكاماً واستقصاء ، اذن لأنسنا بالتجدد والتدرج والتوالد في معاني الكلم ، ولمسنا بمعارضة النصوص المحكية بعضها ببعض ترجمة لحياة كل كلمة تظهرك على قصة حالها وتقفك على مسالك تحولها ودروب تنقلها في التعبير والتدرج بها في ما تعنيه من حال الى حال ، فلا بد من اغناء المادة اللغوية وتكثير مفرداتها بالاشتقاق والتعريب والقياس والتوليد • ويكون ذلك دليل حيويتها ووفور تدفقها واطراد تكاملها ومجانستها للفكر ثراء وافتنانا واتساعاً • ويشهد بذلك ما تقرر من صلة اللغة بالفكر وصلة الفكر بالحياة في كل عصر • فاللغة معجم تختطه الأمة لحضارتها وعبقرية أبنائها وما عُرفوا به من كريم المآثر والشمائل وما تتخذه لأداء رسالتها من رفيع الغايات وشريف المطالب وما أسموه بالمثل الخلقية والقيم الروحية ودعوه بتطلعات القوم وطموحهم ، فهي وعاء لذلك كله • والتأريخ لمعاني الكلم موضوع له شأن خطير وليس تدارك هذه الناحية في لغتنا على شيء من اليسر والسهولة • على أن التطور اللغوي لا يعني على كل حال اقرار ما لا سند له من ضوابط اللغة •

□ **نقد المجامع لا يعني أننا نغلو في التخطئة عامة أو ننكر الموفور من فضلها والمشكور من جهدها :**

على أن ما نقدناه على مجامعنا لا يُعدشيئاً مذكوراً اذا ما قيس بما حققته هذه المجامع من حظ وافر مشكور في خدمة لغة الضاد، وأعضاؤها شيوخ قد حملت المجلات اللغوية من علمهم وتحقيقهم ما يستصبح بضوئه في الغوص على أسرار العربية واستقراء دقائقها واعدادها لتكون لغة الحضارة المعاصرة ٠

ولا يظنن ظان ، اذا ما منعنا شيئاً مما أقرته المجامع ، أننا نغلو في حمكنا ونقسو ، فقد أدلينا في ذلك بالشاهد والدليل ٠ ونحن لسنا مع النقاد الذين أسرفوا فقطعوا بفساد كثير مما جرت به أقلام الكتّاب وطاعت بـه ألسنتهم ، فخلصوا الى حجر الصحيح الظاهر من كلامهم ومنع ما استقام من أساليبهم ، فقد أسغنا بالنظر والحجة كثيراً مما ارتاب النقاد في صحته فحكموا بفساده ، في معظم ما ألفناه من الكتب لا سيما كتابنا الأول (أخطاؤنا في الصحف والدواوين) ، وقد صدر عام ١٩٣٩ م ٠

□ **الموقف من التراث النحوي :**

قد نادى كثير من العلماء باعادة النظر في تراثنا النحوي واشتدت الشكوى من تعسّره، ولا اعتراض على هذا ولا ملام ، وثمة اليه دافع وعليه مستحث ٠ ولكن لا مناص لمن يعرض لذلك أن يتدبر نحو النحاة جملة وتفصيلا وأن يسعه علماً والا كان كلامه كلام مجازف معتسف ، بعيداً عن مرمى السداد ، بل لا بد للباحث في هذا المضمار أن يعرف للنحاة فضلهم ويحمد لهم جهدهم فلا يتحيفهم بتحامل أو غضّ ، و يرسل لسانه فيما تناولوه ، على غير روية ، أو يلوم في ما يكون العذر في أمثاله ٠ ذلك قبل أن يأخذ عليهم ما تجاوزوا فيه غرضهم وركبوا فيه مركباً وعراً لينتهوا بالنحو الى سبيل موحش شاق ٠

ذلك أنه كان للقياس شأن أي شأن في نشأة النحو واستنباط أحكامه ورسم حدوده وتقعيد قواعده ، ولو لم يكن كل النحو قياساً ٠ ويعني القياس الاستدلال الذهني الذي يراد به استنباط القواعد وتعليلها ، وهو مدار علم النحو عند الأئمة ٠ وقد بنى النحاة القياس على العلة النحوية وقسموا العلل الى ثلاث : تعليمية وقياسية وجدلية نظرية ، كما فصل القول في ذلك الزجاجي أبو القاسم عبدالرحمن بن اسحاق (٣٤٠ هـ) في كتابه (الايضاح في علل النحو) ٠ وقد قصدوا بالعلة التعليمية العلة التي أريد بها وعي نظم اللغة وتعليمها كقولك : هذا مرفوع لأنه فاعل وذلك منصوب لأنه مفعول به ٠ وأما العلة القياسية فهي التي تقوم على اشتراك المقيس والمقيس عليه في ما تصوّروا أنه موجب للحكم فيهما ، كحملهم بناء اسم (لا) النافية للجنس على بناء (خمسة عشر) ، بدليل أنه اذا فصل بين جزأي التركيب في كل منهما امتنع البناء ، وقيل ان بناء اسم (لا) النافية للجنس قد بني على معنى (من) الاستغراقية ٠٠ وقيل لاجتماع الأمرين لأن التركيب وتضمن معنى الحرف مفردين لا يوجبان البناء ، والأول هو مذهب سيبويه وعليه الأكثرون ٠ وهكذا تتشعب الآراء في تحديد العلة القياسية ، وقد تتجاذب الحكم الواحد علتان أو أكثر فيبنى على قياسين أو أكثر ٠٠

□ ما شاب النحو وقياسه من تعقد نبابه عن غرضه :

ومهما يكن من أمر فان القياس الـذي استند فيـه الى احـدى العلتين التعلميـة والقياسية انما يجانس طبيعـة اللغة وخصائصها دون القياس الذي اعتمد العلة الجدلية النظرية فنحا نحو الفلسفة واتسم بسمتها ، وغدا صناعة بل رياضة عقلية ونشاطاً ذهنياً، وجعل التعليل أصلا وغاية لا وسيلة وحاجة ٠ وبين قياس العلة التعليمية والقياسية من جانب وقياس العلة الجدلية النظرية من جانب آخـر من التفاوت والتنافر ما لا خفاء به ولا لبس ٠ ولا شك أن المعول عليه من التعليل ما قرن فيه صحة الحكم النحوي بسلامة المعنى وتحقيـق المراد منه ، دون التعلق بما تقتاد اليه براعة الصناعة ويؤدي اليه الافتنان بها من الاغراب في الجدل والتأويل ٠ وقد دعا ايغال النحاة في التعليل الى اتخاذ حجج نحوية لا تثبت على نقد أو نظر ، فعمد كثير من النحاة الى توهينها وتزييفها ، ونبهوا على سقمها ووهيها ،ودلّوا على تعارضها وتخاذلها وخروجها عن غرض النحو ٠

وزاد في اشكال النحـو وخفاء مسالكـه ما أصاب التاليف فيه من التواء ولابس تعليمه من توعر والتباث ، فادى ذلك الى تعسر فهمه وتعذر وعيه ٠

ثم ساهم في ذلك أن المتأخرين من علماء النحو قد تحولوا به عما كان عليه من البحث في صحة تاليف الكلم للتعبير عما في النفس من أغراض الى البحث في ضبط الأواخر اعراباً وبناء ضماناً لسلامة اللسان من اللحن وقصر الأمر عليه ، وبسط الكـلام في عوامـل ذلك والاسهاب في تعليله بالجـدل النظري فبـدأ النحو بعد هذا وقـد غار ماؤه وشـاه بهاؤه وساء مذاقه ٠

□ اختلاف العلماء في تاويل كثير مما بد أنه على غير القياس :

ومما زاد في عسر الفهم للاصول النحوية اختلاف آراء العلماء في تأويل كثير مما بدا أنه على غير قياس مشهور ، وتباين مذاهبهم في توجيهه ٠ وقد جاء من ذلك قوله تعالى : « ان هذان لساحران ــ طه/ ٦٣ » ٠ وقوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون ــ المائدة/ ٦٩ » ، كما ذكره العكبري في كتابـه (البيان في اعراب القرآن) ٠ وجاء منـه في الحديث : « ان من أشد النـاس عذاباً يـوم القيامة المصورون » وقد روي بحذف (من) أيضاً ، كما ذكـره النووي في كتابـه رياض الصالحين ص/ ٧٤٣) ، والحديث : « ان بين يدي الساعة ثلاثون دجالاً كذاباً » كما ذكره العكبري في كتابه (اعراب الحديث النبوي ــ ص ٢٣١ و ٢٧٧) ٠

أقول لا جدال في اعراب قول الله تعالى (ان هذان لساحران) باسكان (ان) لأن (ان) هذه هي المخففة من الثقيلة، والأكثر اذا دخلت على الجملة الاسمية اهمال عملها ، وهي قراءة حفص وابن كثير ٠ على أن الاشكال في قراءة (انّ) بالتشديد ، فالمختار ها هنا أن تكـون (الألف) في (هذان) علامة التثنية في أحوالها الثلاث ، وهي لغة بني الحارث ٠ أقول لـو خرجت الآية على ما ذكرنا لسقط كثير مـن الجهد في تكلف وجوه الاعراب الأخرى ٠

أما (الصابئون) في (الآية/ ٦٩) من سورة المائدة ، فالمختار توجيهها على لغة بني الحارث نفسها ، ولو استبعده العكبري • واذاكان أبو حيان في البحر المحيط قد انتهى في توجيه رفع (الصابئون) الى أربعة أوجه ،فقد انتهى بها العكبري الى ستة وجوه ذكرها في كتابه المذكور •

والمختار في الحديث « ان من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » أن يخرّج على أن اسم (ان) هو ضمير الشأن المحذوف ، على حد قول الأخطل :

انّ من يدخل الكنيسة يوماً يلق فيها جآذراً وظباء

واستبعاد رواية الحديث ، بحذف (من)، لأن المعنى يأباه ، اذ ليس (المصورون) أشد الناس عذاباً كما قاله ابن هشام في المغني •

وكذا القول في تباين آراء النحاة في بيت الفرزدق :

وعضُ زمانٍ يا بن مروان لم يَدَعْ من المال الا مُسحتا أو مجلّفُ

وعضّ زمانٍ بالاضافة معطوف على ماقبله ، والاسحات : الاستئصال، وهي لغة نجد، والمجلّف الذي بقيت منه بقية ، أي سنة ذهبت بالأموال واستأصلتها •

وقد روي البيت فيما روي بنصب (مُسحت) ورفع (مخلّف) ، فحار العلماء في تأويل عطف (مجلّف) المرفوع على (مسحت)المنصوب ، وتكلفوا في ذلك وجوهاً متباينة من الاعراب • وقد بدت دلائل الجهد فيما قالوه ، بل قال الزمخشري ، فيما حكاه البغدادي في شرح شواهدالرضي : «هذا بيتلا تزآل الركب تصطك في تسوية اعرابه » •

وممن تكلف الجهد في اعراب البيت : الخليل والكسائي والفراء وثعلب وأبو علي الفارسي وابن جنّي • وقد ذهب ابن قتيبة الى اجمال الطلب في تخريج البيت والرفق بالباحثين فقال في كتابه الشعر والشعراء« رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة » • وما أحسب أن الضرورة في الشعر تنقض أصلا من أصول العربية في عطف المعطوف على المعطوف عليه • والمختار عندي أن يخرّج البيت على رواية من رواه : (لم يدع من المال الا مسحت أو مجلّف) برفع مسحت ومجلّف حملا على المعنى ، فكأنه قال : لم يبق الا مسحت أو مجلّف ، والحمل على المعنى باب جليل من العربية ، على ألا يُعمد فيه الى غلو أو اغراب ، كما فعله الزمخشري •

غلا الزمخشري في تكلفه حين خرّج قراءة الرفع من قوله تعالى : « فشربوا منه الا قليل منهم — البقرة/ ٤٩ » برفع قليل مع كونه مستثنى من كلام تام موجب ، حين خرّجه حملا على المعنى ، والرفع قراءة أبَيّ والأعمش • فقد جاء في الكشاف (١/ ٣٨١) أن قوله تعالى (فشربوا منه الا قليل منهم) كأنه قيل (فلم يطيعوه الا قليل) ! وعندي أن الأظهر في تخريج قراءة الرفع هذه أن يكون (قليل) مبتدأ خبره محذوف تقديره (لم يشربوا) • كذلك قول أبي قتادة : (وأحرموا كلهم الا أبو قتادة » على تقدير (الا أبو قتادة لم يُحرم)•

فـ (الا) هنا بمعنى (لكن) ، وأبو قتادة مبتدأ و (لم يُحرِم) خبره • (كتاب اصابة الداهي لأحمد اسماعيل البرزنجي/١١) •

وكذا الأمر في ما اصطنع النحاة تقديره من الكلام فتكلفوه ليقوّموا به اعرابهم ، كقولهم ان التقدير في (اياك والأفعى) :أحذرك من التقاء نفسك والأفعى ، وفي (زيداً رأيته) : رأيت زيداً رأيته ، وفي (عمرك الله) : بتعميرك الله ، أي باقرارك له بالبقاء ، ومثله كثير •

وهكذا القول في التباس ما جاء من التعريفات في بعض أبواب النحو • فانظر ما قاله الامام رضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي (٦٨٦ هـ) ، في بيان الفرق بين بعض أنواع البدل وعطف البيان ، في كتابه (شرح الكافية/٣٣٧) : « البدل تابع مقصود بما ينسب الى المتبوع ، وأقول وأنا الى الآن لم يظهر لي فرق بين بدل الكل وبين عطف البيان، بل لا أدري عطف البيان الا البدل ، كما هو ظاهر من كلام سيبويه » •

☐ الشكوى من تعسر النحو والمطالبة بتيسيره :

الشكوى من عسر الفهم لأصول النحو قديمة • فهذا خلف الأحمر بن حيان أبو محرز البصري ، أستاذ الأصمعي (١٨٠ هـ) يؤلف كتاباً لمساعدة الدارسين على فهم أصول النحو فيقول في مقدمته : « ولما رأيت النحويين وأصحاب العربية أجمعين قد استعملوا التطويل وكثرة العلل ، وأغفلوا ما يحتاج اليه المتعلم المتبلغ في النحو من المختصر والطرق العربية والمآخذ التي يخف على المبتدئ حفظه ويعمل في عقله ويحيط به فهمه ، فأمعنت النظر والفكر في كتاب أؤلفه وأجمع فيه الأصول والأدوات والعوامل ، على أصول المبتدئين ، ليستغني به المتعلم عن التطويل ، فعملت هذه الأوراق • ولم أدع فيها أصلا ولا أداة ولا حجة ولا دلالة الا أمليتها فيها • فمن قرأها وحفظها وناظر عليها علم أصول النحو كله ، مما يُصلح لسانه في كتاب يكتبه ، أو شعر ينشده، أو خطبة أو رسالة ان ألّفها،وبالله التوفيق.. المقدمة في النحو لخلف الأحمر ـ تحقيق التنوخي » •

* * *

وقد استمرت الشكوى من تعسر النحو ،فهذا الامام عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) في القرن الخامس الهجري قد أشار في كتاب(دلائل الاعجاز) الى أن النحاة قد انتهوا حيناً الى ضرب من التكلف ولون من التعسف ،كما أشار الى أن وراء كل فساد في النظم اغفالا لحكم من أحكام النحو ، وكل صحة تحقيقاً لهذا الحكم حين قال في كتابه هذا : « فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه ، ان كان صواباً ، اذ خطؤه ان كان خطأ ، الى النظم ، الا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له ، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة النظم أو فساده أو وصف بمزية أو فضل فيه ، الا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية، وذلك الفضل ، الى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله ، ويتصل

بباب من أبوابه..» . وهكذا أذكى الجرجاني العين ، بما تقدم من كلامه ، على أن موضوع النحو أشمل من أن يُحد ببحث أواخر الكلم وعلامات الاعراب اتقاء للحن ، وأنه لا بد أن يتجاوز ذلك فيشمل الكشف عن أسرار النظم وأغراضه ودواعيه ، اذ لا يجوز أن يتحول النحو من البحث في صحة تأليف الكلم للتعبير عما في النفس من أغراض ، الى البحث في ضبط الأواخر اعراباً وبناء ، وقصره على ما يتصل بذلك ، ثم بسط الكلام في عوامل هذا الضبط والاسهاب في تعليله بالجدل النظري .

ونبه الجرجاني بذلك على خطأ النحاة في فصل موضوع النحو عن البلاغة ، وضرورة تلازمهما . فاذا كان غرض النحو أول الأمر هو وقاية اللسان من اللحن والخطأ ، فكان لهذا نحو الاعراب ، فان النحو كذلك معني بدلالة النظم وتحليل الجملة فيه الى ما تتألف منه من أجزاء ، وشأن كل جزء منها في التركيب ، والبحث في تأثر دلالة الجملة بتغير موضع كل جزء من صاحبه تقديماً أو تأخيراً ، وتخير الكلمة التي تروق وتؤنس في موضعها من الجملة لتلائم جاراتها فيما تشفّ عنه من معنى ، وقد تثقل وتوحش في موضع آخر ، فقد بسط الجرجاني القول في هذا كله .

وقد عمد الأستاذ ابراهيم مصطفى ، رحمه الله ، في كتابه (احياء النحو) الى الخوض في مباحث طريقة تتناول حد النحو ، كما رسمه النحاة ، وأصل الاعراب ومعانيه ، فتبسط وتعمق وأوغل ، ثم نادى بالتجديد في علم النحو واختطاط نهج حديث في فهمه واساغته ، وفي معالجته وتعليمه ، وقد خلص في ذلك الى القول : « ولقد آن لمذهب عبد القاهر الجرجاني أن يحيا وأن يكون هو سبيل البحث النحوي ، فان من العقول ما أفاق لخطته من التفكير والتحرز ، وان الحس اللغوي أخذ ينتعش ويتذوق الأساليب ، ويزنها بقدرتها على رسم المعاني والتأثير بها ، من بعد ما عاف الصناعات اللفظية وسئم زخارفها ـ ص/ ٢٠ » . على أن هذا الذي أخذه صاحب الاحياء على النحاة في اساءة تصور حد النحو وموضوعه ، لا يمكن أن يؤخذ على سائر الأئمة ، فمن هؤلاء من جعل للنحو المجال الذي ينبغي أن يجول فيه ويصول ، ومنهم ابن جني في خصائصه ، والزمخشري في مقدمة كتابه (المفصل) ، وابن سيده في مخصصه ، والسكاكي في مفتاح العلوم ، وابن عصفور في المقرب ، والشاطبي ابراهيم في شرح الخلاصة ، والأشموني شرح الألفية ، وابن كمال باشا في رسائله ، والصبان في شرح الأشموني ، هذا فضلا عن الامام الجرجاني في دلائل اعجازه ، وقد مهد لهذا صاحب الصناعة سيبويه نفسه في كتابه . وبسطنا الكلام في ذلك في فصل عقدناه على موضوع النحو في غير كتاب من كتبنا .

وقد ذهب الدكتور محمد مندور في كتابه (النقد المنهجي) و (في الميزان) الى أن مذهب الجرجاني هو أصح وأحدث ما وصل اليه علم اللغة في أوروبة ، وهو مذهب العالم السويسري المعروف دوسوسير المتوفى (١٩١٣) ، في اتخاذ منهج تحليلي في نقد النصوص واعتبار اللغة مجموعة من العلاقات لا مجموعة من الألفاظ . وقد قصد الدكتور بكلامه هذا الى مذهب (البنوية) ، وهو مذهب فكري أدبي يعتمد تحليل النص الى بناه وتفكيك البنية الى أجزائها المتنقلة واعادة تركيب هذه الأجزاء بحيث تعود منتظمة مترابطة تختلف

فيها الصورة باختلاف مواقع هـذه الأجـزاء بعضها من بعض • وكان من رواد هذا المذهب الفيلسوف الفرنسي رولان بارت ، وعلمـاء كثيرون كتشوفسكي ومينيه وسوسير وماير ، وكان الفضل في استوائه وتكامله للفيلسوف الفرنسي كلود ليفي اشتراوس •

وقد أشار كثير من المؤلفين الى الصـلة البينة بين مذهب الجرجاني في (النظم) وآخر ما توصل اليه علماء الغرب في مباحثهم في (علم اللغة الحديث) ، ومنهم الأستاذ محمد خلف الله في كتابه (المنزع النفسي في بحث أسرار البلاغة) والدكتور احسـان عباس في كتابـه النقد الأدبي عند العرب) ، والدكتور تمـام حسان في كتابـه (اللغة العربيـة معنـاها ومبناها) والدكتور أحمد مطلوب في كتابـه (عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده) ، بل هذا ما عمد اليه الدكتور جعفر دك الباب في كتاب (الموجز في شرح دلائل الاعجاز في علم المعاني) فخلص من بحثه الى أن من حق مذهب الجرجاني أن يظفر بالمكان اللائق به في علم اللغة الحديث ، لا لان مذهبه هذا يكمل النظرية (البنوية الوظيفية) الحديثـة ، بـل لأنه يعتمد الى ذلك على مفهوم البنية العميقة والبنية الظاهرية للجملة ، فهـو يمثـل بذلـك اتجاهاً متطوراً في علم اللغة الحديث • وقـد بسطنا القول في ذلك ، في مقـالنـا (الجملة الفعلية والاسمية) بمجلة (التراث العربي الدمشقية ــ العدد / ٤٢) •

وقد أشار الى نحو مما ذكرناه عن شكوى العلماء من تعسر النحو وعذلهم النحاة على تجاوز غرضهم في معالجته ، ابن مضاء ، في القرن السادس الهجري ، في كتابه الشهير (الرد على النحاة/ ٢٨٠) اذ قـال : « واني رأيت النحويين رحمهم الله قد وضعوا صناعة النحـو لحفظ كلام العرب من اللحن ، وصيانته من التغير فبلغوا الغاية التي أمّوا وانتهـوا الى المطلوب الذي ابتغوا ، الا أنهم التزموا ما لا يلزمهم وتجاوزوا القدر الكافي فيمـا أرادوه منه ، فتوعرت مسالكهم •• » • ولا شك أن ابن مضاء قد سُبق الى كثير مما ذهب اليه حين قال بالغاء (العامل) وانكـار العلل الثواني والثوالث واستبعاد الجدل النظري والحجـاج الفلسفي وكل ما ينأى باللغـة عن طبيعتهـا ويلفت عن واقعها ، بل كل ما لا يفيد في ضبط أحكامها وتحقيق الغاية في الكشف عن أصولها في التعبير عن أغراض النفس •

ومن ثمَّ كان لا بد من تشذيب النحـو بتليينه وتيسيره، بل ارساء قواعده على تحقيق الغاية منه وذلك بتعريته مما انتابه من تعقيد نبا عن روح اللغة، وما لا بسه من تعليل جدلي باعد بينه وبين غرضه ، وما داخله من فضول تجاوز به موضوعه وخصوصه ، ومن تحول عن البحث في صحة تاليف الكلم للتعبير عن أغراض النفس الى الايغال في البحث عن العوامل التي تضبط بها الأواخر اعراباً وبناء •

□ السبيل الى تيسير النحو :

أقول اذا تهيأ للنحو كتاب سهل الملتمس سلس المطلب ، حذف منه الفضول ، وأسقط ما أعضل فيه من تأويل وتخريج وتعليل ، ثم أُعفي مما لا جدوى فيه ولا طائل فاقتصر على ما لا بد من احكامه ، ولم ينصرف الى حركات أواخر الكلم في وجوه الاعراب دون ما توحي به من معنى ليضم الى نحو الاعراب نحو الدلالة ، وقد كان كثير من النحاة لا يأبهون بمـا

وراء اختلاف الأعراب من تباين صور الأداء في كل نظم ، أقول اذا تأتى للنحو هذا كله ثم تسنى له بعد ذلك معلم بصير حاذق ينظر اليه نظره الى أداة ووسيلة ، لا صناعة وغاية ، ويرعى في ما يلقيه سن المتعلم المتلقي ، أقول اذا تحقق للنحو ما قدمنا ، بدا سهل المنال داني المقطوف ، فالنحاة قد اتخذوا قانون النحو استنباطاً مما قاله العرب الفصحاء شعراً ونثراً، فكان لا بد من الأخذ بهذا القانون لضبط النطق بكلام العرب كما قالوه ، وتفسيره بما أرادوه منه ، فهم انما استنوا ما استنوه حفاظاً على سلامة لغة العرب واستقامة ألسنتهم ٠

واذا كان لا بد من اعمال النظر في هذا القانون بتجديده فينبغي أن يصرف أكبر الجهد الى ايجاد وسيلة تربوية يمكن بها تيسير قواعد النحو بل تيسير تقعيد النحو ، وذلك بعد تحريره مما علق به من تعقيد ، ومن اغراق في التعليل والتأويل والتخريج ، وتعريته مما شابه من جدل فلسفي ومنطق عقلي حادا به عن خصوص اللغة وطبيعتها ، ثم الاجتزاء من أحكامه بما يستعان به على تحقيق غايته ، ضماناً لتذوق حلاوة اللغة والاحساس بجمالها، والتنبيه على دقة أساليبها للتعبير عن دقيق معانيها ٠

واذا كان غرض النحو الأول صحة النطق بالعربية وقراءتها قراءة تضبط بها أواخر الكلم ويفهم بها ما يسمع منها وما يقرأ فهماً صحيحاً دقيقاً ، فان غرضه البعيد أن يصبح النطق بالعربية لدى الدارسين عادة وسليقة ٠ ولا يكفي في ذلك تبين قواعد النحو دون ممارسة قراءة كلام العرب ومعالجته ، والبدء بما كان منه سائغاً محبباً الى القارىء مذللا ، جلياً واضحاً مبيناً ، لا عسر فيه ولا عناء ، وقد وفق بعض المؤلفين في تضمين كتب النحو نصوصاً عربية مشوقة حية سائغة مألوفة يستعينون بها على تقويم اللسان وضبط الشكل يستفتحون بها ثم يتأدون الى ذكر القاعدة وشرحها ، وقد استشعروا عقم المبادرة الى ذكر القاعدة جافة موحشة لا يمهدلها نص يصاحبها ويؤنس بها ويرهف لها الفكر فيجلوها ويلتمس لها المساغ والوصلة الى الفهم والحفظ ٠

وقد قام مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في دورته الحادية عشرة لمؤتمره العام ١٩٤٥ ، بوضع قواعد لتيسير النحو أول مرة ، ثم فصّل القول فيها بعد أن تقدم الدكتور شوقي ضيف بمقترحاته في هذا الشأن ، وأصدر بعد تمحيصها مقرراته في دورة الخامسة والأربعين عام ١٩٧٩ ، وشفعها بشرحها والاحتجاج لها في رسالة مطبوعة عام ١٩٩١ ٠

□ بعض ما ألف من كتب النحو الميسّرة :

قام بعض النحاة قديماً بتأليف مصنفات في النحو ، سهلة الشريعة والأسلوب ، عذبة المورد واضحة التعبير ، لا سيما في القرن الرابع الهجري ٠ وقد ساهمت المصنفات في تيسير فهم النحو وتعليمه ، فكانت رائدة في هذا المضمار ٠ ومن هؤلاء العلماء الزجّاجي أبو القاسم عبدالرحمن بن اسحاق (٣٣٧ هـ) ، واسم كتابه (الجُمَل) ٠ واذا كان الزجاجي قد أراد لعلم النحو أن يكون مستقلاً خالصاً مما يشوبه من المنطق والفلسفة وغيرهما

في كتابه (الايضاح في علل النحو) ولم يُخف سخطه على من مزج النحو بهما فخص (العلل التعليمية) بعنايته ، وهي ما يستعان به على معرفة كلام العرب ، ثم (العلل القياسية) التي يمكن بها ضبط الأحكام النحوية ، وحاول استبعاد (العلل الجدلية النظرية) ، فقد شاب كلامه في كتاب (الايضاح) هذا آثار واضحة من الفلسفة والمنطق ، ومن الفقه وعلم الكلام أيضاً • أقول اذا كانت هذه حال الزجاجي في كتابه الايضاح ، فقد استطاع أن يعري كلامه جملة من آثار هذه العلوم كافة في كتابه (الجمل) فبدا كتابه هذا خالصاً للنحو وحده ، سهل المنال •

وهكذا فعل الزبيدي الأندلسي أبو بكر محمد بن الحسن (٣٧٩ هـ) في كتابه (الواضح في علم العربية) ، وقد تبوأ الزبيدي في علم النحو مكانة فريدة فكان كتابه هذا كفيلا بتحرير كثير من مسائل النحو ، وايضاح مبهمها وحل مشكلها وتقريب بعيدها •

ومضى في شريعة التيسير ابن جني أبو الفتح عثمان (٣٩٢ هـ) في كتابه (اللمع في التصريف) ، وقد عُرف كتابه هذا بوضوح منهجه ونصاعة فكره ، لا يجد القارىء في فهمه عناء ، وفي تبين قصده كدا • وقد عنى العكبري أبو البقاء عبدالله بن الحسين بشرح الكتاب فزاده وضوحاً في كتابه (المتبع في شرح اللمع) •

وممن عني بتيسير العربية في بعض مؤلفاته ابن هشام الأنصاري جمال الدين (٧٦١ هـ) في القرن الثامن الهجري ، كما فعل في كتابه (قطر الندى وبلّ الصدى) وشرحه ، وكتابه (شذور الذهب في معرفة كلام العرب) وشرحه ، وقد ارتأت مشيخة الأزهر في نظامها الجديد عام ١٩٣٥ م ، تدريس الكتاب الأول في السنة الابتدائية الثالثة ، كما رأت تدريس الكتاب الثاني في السنة الابتدائية الرابعة •

وقد ألّفت جماعة من العلماء بمصر (القوصيّ والشلبي والشيخ خليفة) كتاب (تيسير النحو) للسنة الثالثة الابتدائية والخامسة الأولية عام (١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م) نهجت فيه النهج الذي أقرته لجنة تيسير تدريس العربية في وزارة المعارف المصرية ، وأخذت بالتوجيهات والقرارات التي انتهى اليها المؤتمر الثقافي العربي الأول ، وقد عقد ببيت مري في لبنان خلال ايلول من عام (١٩٤٧ م) • واعتمد فيه المؤلفون طريقة حديثة فاستفتحوا بالنص العربي المشوق من القصص الطريفة ، قبل اقرار القاعدة النحوية ، وشفعوا النص بأسئلة نحوية استناداً الى النص نفسه فأتت تجربتهم حيّة ناجحة •

□ ما وراء تيسير العربية :

واذا كان قد كثر الكلام على تيسير العربية وتجديد نحوها ، على ما انتهجناه ، فليس ذلك بدعاً ، وهو أمر لا غنى عنه ، لا في الاعداد لاكتساب المهارة اللغوية محادثة وكتابة وحسب ، بل في السعي وراء ابتغاء لغة واحدة سَلسَة سليمة واضحة دقيقة ، سليمة من كل انحراف عن أصولها ، واضحة بوضوح الفكر ، دقيقة بدقة التعبير ، لغة يمكن أن تكون عاملا يُضرم الروح القومية فيلقح وحدة الأمة ويوثق عروتها ويستوقد الجهد لنبذ كل دعوة الى تطور لغوي ينتهي بلسان الأمة الواحدة الى الانشطار والانقسام ، لغة يستعان

بها في محاولة جادة لمساهمة العرب في بناء الحضارة الحديثة مساهمة أصيلة مبدعة ، وحفزهم الى استئناف رسالتهم في رفد الحضارة العالمية وايلاء هذه الحضارة ثمرات نتاجهم الفكري بلسانهم المبين وما يتميز به من خصائص وسمات ٠

وأكثر ما يؤذي مثل هذه اللغة المختارة الواضحة الدقيقة السليمة من كل انحراف عن أصولها الأولى ، جماعة من المترجمين قد جروا في ترجمتهم الى العربية على أن يأتوا بالفاظ من العربية ترادف في الدلالة أصلا ألفاظ الجملة الأجنبية المترجمة ، فيضموا بعضها الى بعض كما ضمت في النص المترجم، دون أن يرعوا في ذلك خواص النظم والاسناد والمجاز في العربية ، فيقع في ما ترجموا الخلل والفساد ، لتغاير أصول التعبير في اللغتين ٠ وهم لو تدبروا الجمل الأجنبية فتصوروا معانيها في أذهانهم ، ثم أتوا بكلام عربي سديد يعبر عما تصوروه من هذه المعاني ، سواء أساوقت ألفاظ النص الأجنبي أم لم تساوق ، لأصابوا ووقعوا على الغرض ، دون أن يغشى أداءهم اضطراب أو قلق أو تعقيد بادي التكلف ، أو لبس في الفهم وغموض في القصد ٠ ولا بد أن يلاحظ المترجم أنه اذا ترادف لفظ أجنبي ولفظ عربي في موقع من التعبير فلا يشترط أن يتفق لهما ذلك في موقع سواه ٠

□ الموقف من التراث البلاغي :

لا بأس أن نعيد هنا ما ذكرناه في الكلام عن التراث النحوي ، فنحن اذا أقبلنا على التراث البلاغي لنسّعه خبرا ونعيه فهما فانا لا نقبل عليه لنأخذ به ونحتذيه دون نظر أو تدبر ، وانما نبتغيه ابتغاء معالجة واصطفاء فنصرّف فيه أعنة الفكرة **ذلك أن علينا أن نتفهم ما انتهى اليه أسلافنا في ما وضعوه وحققوه في هذا المضمار فلا يغيب عنا شيء مما أحاطوا به من أصول علوم البلاغة وفروعها ووقفوا عليه من دقائقها وغوامضها، ثم نعيد النظر في ذلك كله فلا نجمد فيه ولا نلبث عنده ، على ما انطوى عليه هذا التراث البلاغي من نهج علمي بارع وما جادت به قرائح الأوائل في ما اتخذوه لعلومه من حدود مرسومة ومعالم واضحة ، سعيا وراء تقويم اللسان العربي لفظا والافتنان في صوغ أساليب التعبير و تقويمها وتذوق ما تشفعنه من جمال الصورة وحسن الأداء ٠**

ولعل كتاب اعجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى اللغوي البصري (٢٠٦ هـ) هو أول ما ألف في البلاغة العربية ، وتلته كتب كثيرة ككتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ (٢٥٥ هـ) ، فكتاب الشعر والشعراء وأدب الكاتب لأبي قتيبة عبدالله بن مسلم (٢٧٦ هـ) ، فكتاب الكامل للمبرد أبي العباس محمد بن يزيد (٢٨٥ هـ) ، فكتاب البديع وطبقات الشعراء لابن المعتز عبدالله (٢٩٦ هـ) ، فكتاب النكت في اعجاز القرآن لعلي بن عيسى الرماني المعتزلي (٣٨٤ هـ)، فكتاب بيان اعجاز القرآن لأحمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (٣٨٨ هـ) ، فكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) ، فكتاب سر الفصاحة لأبي محمد بن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ) ، فدلائل الاعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) ، وقد استن سنته محمود بن عمر الزمخشري في

تفسيره (الكشاف) ، فكتاب (مفتاح العلوم) ليعقوب بن يوسف السكاكي (٦٣٦ هـ) فكتاب الايضاح لجلال الدين القزويني (٧٣٩ هـ) ٠

ولا ننس ما كان لهؤلاء من فضل في ما بذلوه من الوسع في ارساء قواعد هذه العلوم ، فلا علينا اذا قبسنا من نتاجهم وتنسمنا ما نستعين به على استتمام ما بذلوه وما سبقوا اليه وروّضوا الصعاب له ، لا سيما ما أتحف به العربية الرماني المعتزلي في الغوص على حقائق بلاغة القرآن والكشف عن أسرار اعجازه وسلطانه على النفوس واستبطان صور الجمال من نصوصه ، وما ذهب اليه من أن البلاغة انما تقوم على ايصال المعنى الى القلب في أحسن صورة من اللفظ ، وما جاء به الخطابي من بحث البلاغة وأقسامها واعجاز القرآن وكشفه عن البصر بمواطن الجمال في نظم القرآن واستشفاف باديها وخافيها ٠ ذلك الى ما تفوق به الجرجاني في كتابيه النفيسين دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ، في شرح مذهبه في (النظم) ، والكشف عن صلة البلاغة بالاعجاز ، وبيان أن جوهر الكلام انما هو المعنى القائم في النفس ٠ وقد أضاف في كتابه (أسرار البلاغة) : « وهذا موضع لا يبنى الا اذا كان المتصفح للكلام حساسا يعرف وحي طبع الشعر وخفيّ حركته التي هي كالهمس وكمسرى النفس في النفس/ ٢٩٦ » ٠ ولا يعني هذا تعذر الوصول الى معرفة العلة في الجمال ، فما دام للجمال أسباب فلا مناص من الاهتمام بطلبها والتأتي لها ، وبذل الوسع في التماسها ، ذلك لابتناء صور الجمال وتتبع ظواهره واتخاذ المقاييس لتقويمه ٠

ما عيب على البلاغة العربية :

قد كتب كثيرون في البلاغة عند العرب كالأستاذ عبد العزيز البشرى في كتابه(المختار) والأستاذ أحمد ضيف في كتابه (مقدمة لدراسة بلاغة العرب) ، والأستاذ أحمد الشايب في (الأسلوب) ، والأستاذ طه أحمد ابراهيم في(تاريخ النقد الأدبي عند العرب) والأستاذ أمين الخولي في (البلاغة العربية وأثر الفلسفة) ، فضلا عمن تقدم ذكرهم كالدكتور محمد مندور والأستاذ محمد خلف الله والدكتور احسان عباس والدكتور تمام حسان والدكتور أحمد مطلوب وسواهم ، وقد عرف هؤلاء لأعلام البلاغة فضلهم في ما ألفوه في علوم البلاغة واستوعبوه من أصولها وأحاطوا به من مسائلها ، لكنهم عابوا عليهم جوانب لا بد من الاشارة اليها ٠

من ذلك مثلا ما ذكره الأستاذ عبد العزيز البشري في كتابه (المختار) وقد ضم جملة من المقالات تناولت في ما تناولته فصولا في النقد الأدبي ٠ وقد أخذ البشري على أعلام البلاغة أن عنايتهم كانت أدنى الى النقد الجزئي في البيان ، منها الى النقد الكلي ٠ قال الدكتور جمال الدين الرمادي في كتابه (عبدالعزيز البشري) : « ويرى البشري أن أظهر ما نحسه من ضعف النقد الأدبي أو بعبارة أبين من قصور علوم اللغة العربية في هذا العصر، أن سلفنا وجهوا كل عنايتهم الى النقد الجزئي ، أعني نقد الكلمة في الجملة ، أو نقد الجملة في العبارة، فاذا كان الكلام نظماً جرى النقد للبيت مستقلا ، وأحياناً للبيت من حيث

اتصاله بما بعده ٠٠ أما نقد الكلام مجتمع الشمل ، وتناوله من حيث استواء الصورة واتصال المعاني واتساق الأفكار ، وتلاحم الأجزاء ، فذلك ما لم يكن للبلاغة منه حظ جليل » ٠

وقد عاب بعضهم على البلاغة العربية ما علق بها من صيغ منطقية فلسفية حبست عنها دفقة الحياة فباعدت بينها وبين خصوصها ٠ وقد بسط القول في هذا الأستاذ أمين الخولي في كتابه (البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها)٠ وممن نهج هذا المنهج في اتخاذ مثل هذه الصيغ ، على ما اختطه من نهج علمي في دراسة اللسان العربي في كثير من التدقيق والتحليل والاستقصاء ، السكاكيّ في كتابه (مفتاح العلوم) ، فقد كانت صيغة البلاغة أدنى الى الصيغ الفلسفية المنطقية منها الى تعرّف الصور البيانية ٠

ولا بد بعد ذلك من اعادة النظر في ما اتصل بالبلاغة العربية من تعريفات وتقسيمات كقول السكاكي مثلا : « المجاز عند السلف قسمان لغوي وعقلي ، واللغوي قسمان : راجع الى معنى الكلمة وراجع الى حكم الكلمة ، والراجع الى معنى الكلمة قسمان : خال من الفائدة ومتضمن لها ، والمتضمن لها قسمان استعارة وغير استعارة ٠٠٠ » ٠

وشبيه بذلك ما جاء به القزويني في كتابه الايضاح من أنواع البديع فكانت سبعة وأربعين نوعاً ، وتوالت الزيادة في هذه الأنواع فبلغت عند الصفيّ الحلّي (٧٥٠ هـ) ، في قصيدته البديعية الميمية مائة وأربعين نوعاً، بل تعدت هذا الحد عند الشيخ عبد الغني النابلسي صوفي دمشق (١١٤٣هـ) ، في بديعيته الميمية فكانت مائة وستين نوعاً ، وقد أشار الى نحو من هذا الأستاذ عز الدين التنوخي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق في مقدمة كتابه (تهذيب الايضاح) الذي جاء شرحاً لكتاب (الايضاح) لجلال الدين القزويني ٠

كما عابوا البلاغة باللبس والابهام واشكال الدلالة ، والتمسوا أن تكون الصور البيانية أكثر جلاء ووضوحاً ، فلا تكلف الذهن في استشفاف غرضها كدّاً ، أو تلزم الروية في الافصاح عن مضمونها جهداً ٠

كما رأوا أن تُعرى البلاغة عما داخلها من فضول القول وأن يُكتفى من أصولها وأحكامها بالزبدة ، ليمكن التعويل على كل ما من شأنه أن يحفز الحاسة الفنية الى التماس ما يشفّ عنه النص من صور جمالية تنبثق من كل متكامل الأجزاء ٠

وقد كان الأدب أولا فاستلزم النقد الأدبي تقويماً له وتثقيفاً ، ثم كانت البلاغة فاتخذت مقاييسها لاحكام البيان وتذوّق ما فيه من ابداع وجمال ٠

☐ كيف السبيل الى اتقان العربية :

ولا يظنن ظان أن السبيل الى اتقان العربية مقصور على دراسة العربية بدراسة علومها، فقد لا يُغني الكاتب أن يحيط بالنحو ليُحسن التعبير ويجيد السبك. قال ابن خلدون عبد الرحمن (٨٠٨ هـ) في مقدمته : « ان العلم بقواعد الاعراب انما هو علم بكيفية

العمل ، وليس هو نفس العمل ، ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية ·· اذا سئل في كتابة سطرين الى أخيه أو ذي مودة أو شكوى ·· أو قصد قصدوه ·· لم يُجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي ·· » · ذلك أن اتقان العربية بالوقوف على أنماط التعبير فيها وأساليب التأليف انما ينبغي أن يعوّل فيه أول الأمر على اكتساب الملكة اللغوية واختزان حسّها · ويتم ذلك بالممارسة والرياضة ، **أعني أن الوسيلة المختارة الى احسان الأداء واحكام البيان ، بعد الالمام بقواعد العربية ، أن يكثر العربي سماع العربية من أربابها وفرسانها ، ويكون لحفظه حظ وافر من أقوالهم فتتسع روايته لأمثالهم وأشعارهم،فيعي بذلك نظام صوغهم ومتصرف قولهم وينهج سبيل الفصحاء في تأليف الكلام نثراً ونظماً ، وتتأتى له بهذا ملكة لغوية يتحرك بها لسانه سليقة وطبعاً وتتفتق بها قريحته سجية وطوعاً ، فيحس بما يستملح من القول وما يُستعذب ، وما يمج منه ومايستهجن** · قال أبو عثمان الجاحظ عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ) في البيان والتبيين : « ليس في الأرض كلام أمتع ولا أنفع ، ولا آنق ولا ألذ في الأسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء والفصحاء » ·

ولا شك أن ما جاء بحكم الفطرة تسنى بلا عسر ولا مشقة ، وما جاء على جهة التكلف والتحصيل لم يخل من جهد وعناء · واذا واتت الملكة اللغوية نطقاً وكتابة خرجت على حظ من الاحسان والجمال فتأتت بها ديباجة مشرقة وصيغ مونقة ·

وقد جرى بعض العلماء على تخريج أبنائهم على النطق بالعربية السليمة فأخذوا على أنفسهم ألا يكلموهم الا بها منذ طراءة سنهم فبلغوا ما في أنفسهم وطاعت ألسنة الأبناء بالعربية ينطقون بها عفواً صفواً وكأنهم نشؤوا في بادية لا تعرف الا الفصيح من العربية ·

ومن ثم حقت كلمة الداعين الى التكلم بفصيح العربية في المدارس ابتدائية وثانوية وجامعية ، داخل قاعة الدرس وخارجها ، والداعين الى تفقد لغة الاعلام مسموعة ومكتوبة ومرئية والعناية بها ، ضماناً لسلامتها من اللحن واللغو والابتذال ، وليس تحقيق هذه المهمة الخطيرة على شيء من اليسر والسهولة ،فهو عمل يكبر على طاقة الأفراد بل جهد حكومة من الحكومات ، ولا بد فيه من تعاون الحكومات العربية ومجامعها اللغوية وجامعاتها لبلوغ هذه الغاية ، والا صح فينا قول الشاعر :

متَى يبلغ البنيانُ يوماً تمامَه ... اذا كنت تبنيه وآخر يهدم

وقد نبهنا على ذلك في كتابنا (أخطاؤنا في الصحف والدواوين) الصادر عام ١٩٣٩ ، كما نبهت عليه مؤتمرات مجامع اللغة العربية بالقاهرة فيما اتخذت من أجل هذا من توصيات ·

خصائص العربية وسماتها

العربية موغلة في القدم :

تتميز العربية أول ما تتميز به أنها لغة عريقة موغلة في القدم · قال الدكتور عبدالكريم اليافي في كتابه : (دراسات فنية في الأدب العربي) : « أما مكانة اللغة العربية في اللغات فينبغي أن نعرف أنه لا توجد في القديم ولا في الحديث لغة تضاهيها في المزايا وتحاكيها في الخصائص والفضائل · وليس كلامنا من وحي العاطفة ، وان كنا نُجل العاطفة، ولا هو من قبيل الفخار ولا الحماسة ، وان أصبحا سائغين لغرض التشجيع في هذا العصر المضطرب البيان ، ولكن كلامنا مبنيّ على تلمس الصفات الموضوعية · فاللغة العربية من أقدم اللغات الحية ، بل هي أقدمها على الاطلاق ، وقدمها هذا يحبوها تراثاً ثرياً ويمهد لها مرونة واسعة ويزودها بتجارب كبيرة ·· ولقد نشأت وعاشت واكتملت وعمّرت واستمرت الأحقاب الطوال وهي لا تزال في ريعان القوة والنمو ، على رغم ما تصادف من صعاب ، وما ذلك الا لأنها تحوي فضائل ضمنية ليست للغات ماتت وانقرضت كاللغة اليونانية واللاتينية وأمثالهما » ·

العربية لغة مثالية روحية :

وتتميز العربية بانها لغة روحية مثالية · ذلك أن العربية ليست لغة تاريخية من حيث نشوءها الموغل في القدم وحسب ، بل انها لغة روحية مثالية من حيث كانت وعاء لمثل العرب الخلقية وقيمهم الروحية ، ومعجماً لما اختطوه لتحقيق ذاتهم من رفيع الغايات وما ابتغوه في أداء رسالتهم من كريم المآثر وشريف المطالب · قال الدكتور عثمان أمين في كتابه (فلسفة اللغة العربية) : « ان أول السمات التي تتميز بها لغة القرآن ، هي أنها تنحو نحواً من المثالية لا نظير له في أي لغة من اللغات الحية المعروفة ، ففلسفة اللغة العربية تفترض ، أول وهلة ، مثالية عميقة صريحة ، تحسب حساب الفكرة والخاطر والمثال ، وتضعها في مكان الصدارة والاعتبار » · قال المستشرق الفرنسي هنري لوسل ، في صحيفة لوموند الفرنسية : « اللغة العربية والحضارة العربية الاسلامية تزودان الدارس لهما نظرة جديدة الى العالم » ·

وليس الكلام على علاقة الفكر العربي بالعربية حديثاً أو طريفاً ، فثمة علاقة عضوية أصلا بين الفكر واللغة ، فالعربي انما يفكر من خلال لغته ، وليست العربية أداة تعبير وحسب ، بل وسيلة تفكير أيضاً · وقد تبسط الفلاسفة قديماً في هذا ومنهم الفيلسوف أبو النصر محمد بن محمد طرخان الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) حين بحث مذهبه في اللغة عامة ، وفي النحو ،وعلاقة اللغة بالفكر ، في كتابه (احصاء العلوم) · واذا كان لكل لغة أساليب في التعبير تقتضي صيغاً خاصة في التفكير فالعربية أكثر اللغات تفرداً وخصوصية في هذه الصيغ والأساليب · ومن ثم تعذرت الترجمة الحرفية ، واستحال التطابق بين الأصل العربي وترجمته الى أي لغة من اللغات · لا سيما اذا كان النص المترجم في الأصل

معجزاً في آدائه وبيانه كالقرآن الكريم • ومن يتدبر ترجمات القرآن الكريم القائمة الى أي لغة من اللغات ، يدرك الفارق البيّن بين ما يوحي به الأصل وما تعنيه الترجمة •

□ الحروف العربية وجرسها الموسيقي :

وتتميز الحروف العربية بجمال وقعها في الأسماع واتساق جرسها في الآذان • قال الأستاذ محمد المبارك عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، رحمه الله ، في كتابه (خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد) : « أضيف الى ما تقدم من الوظيفة المعنوية للحروف الهوائية ، أي حروف المد والحركات ، وظيفة فنية صوتية أو وظيفة موسيقية • فان هذه الحروف هي التي تفسح المجال لتنوع النغمة الموسيقية للكلمة الواحدة أو الجملة الواحدة ، لسعة امكاناتها الصوتية ومرونتها ، وتقاربها من هذه الناحية بقية حروف الزيادة المجموعة في قولك ــ من سألته ــ لخصائصها الصوتية المواتية » •

□ تميز العربية باشتقاقها :

تنفرد العربية بخصوصية متميزة في تكوين الفاظها واشتقاق بعضها من بعض ، ذلك أنها قد ابتنت جذورها الصوتية لألفاظها بمحاكاة أصوات الطبيعة ثم اعتمدت هذه الجذور فاثبتتها في بناها مقاطع وكلمات جانست ما تدل عليه من معان • وحين تكامل بناء اللغة باشتقاق الكلم بعضها من بعض ، انبثق عن كل أصل مفردات انطوت على جذور هذا الأصل وحملت معناه ، ولو غايرت صيغها صيغته •

وسواء أخذنا بمذهب المحاكاة لأصوات الطبيعة في التعبير ونشوء اللغة ، اعتماداً على ما لدى الانسان من قدرة فطرية على صوغ مقاطع لغته ، في مشاكلة المسموع وابداع من الذات ، وهو المذهب العلمي السائد الراجح في نشوء اللغة ، أو أخذنا بمذهب الاصطلاح والمواضعة الذي ذهب اليه فريق من أئمة العربية ، **فقد تميزت العربية باثبات كلماتها لهذه الجذور المشار اليها ، وتوالد ألفاظها بعضها من بعض ، توالداً يوفر للفرع ملامح الاصل ويخلف به سمة تخلد فيه ولا تنفك عنه ، على تعاقب مراحل تكامله وارتقائه • فاذا تغيرت معالم الكلم الفرنسية مثلا بتقادم العهود وخفيت معالمها بانسلاخ القرون فجهل أبناؤها أدب أسلافهم ، ما لم يكونوا قد توفروا على تراثهم واستنبطوا أصوله لا تينية ويونانية ، فان ألفاظ العربية تخلد فيها معالمها باقية مستمرة توحي بارومة أصلها وتنبىء بطرق اشتقاقها ، مهما تقلبت صورها وتدرجت دلالاتها باختلاف مراحل ارتقائها وشروط تكاملها** • وهذا ما يسهل على أبناء العربية تبيّن أدب الأجداد ، على بُعد الشقة وانطواء المراحل ، على حين تخفى في ألفاظ اللغات اللاتينية عامة ملامحها لتعدد أصولها المشتركة ، واختلاف هذه الأصول في تصاريفها بافتقادكثير من أحرف الجذور وزوالها ، بل تتلوّن أصواتها وتغيب اللحمة بين مفردات ما انبثق عن أصل واحد ، وتبدو صور هذه المفردات المتفرعة شائهة باهتة لا تنمّ على أرومة •

وقد قسم علماء العربية الاشتقاق فجعلوا منه الصغير والكبير والأكبر ، فعنوا بالصغير أن يكون بين اللفظين المشتق والمشتق منه اتفاق في الحروف وترتيبها وتناسب في المعنى

كضارب ومضروب من الضرب ، وعنوا بالكبير أن يكون بين اللفظين أو الألفاظ اتفاق في الحروف دون ترتيبها ككمل وملك ولكم ، وأرادوا بالأكبر أن يكون بين اللفظين أو الألفاظ اتفاق في بعض الحروف وتقارب في الباقي كجبل وجبر ، وحلف وحرف ، وحمس وحمش وهكذا ٠٠

☐ المناسبة بين ألفاظ العربية ومعانيها :

ان ما قاله بعضهم في تميز العربية بقيام المناسبة بين ألفاظها ومعانيها ينبغي ألا يرسل على اطلاقه ، فقد جفا عن هذا المذهب كثير من العلماء في كلامهم على نشوء اللغات عامة، اذ قال أصحاب المذهب البنوي Structuralisme .

انه ليس ثمة علاقة بين معنى اللفظ وصورته اللفظية ، واعتلّوا لذلك بتعدد اللغات في الأصل ، وتعاقب كلمات مختلفة على معنى واحد في لغات متعددة ، وفي لغة واحدة ٠

وانما يصح القول بهذا المذهب في مناسبة اللفظ لمعناه عامة في مرحلة من مراحل نشوء اللغة ، هي المرحلة الصوتية التي لا بد لأي لغة أن تجوزها ، وينبغي أن ينبه هنا على أن محاكاة الألفاظ لأصوات الطبيعة في هذه المرحلة لا تجري على طريقة واحدة ، ذلك أن المحاكاة ليست آلية ، بل تختلف في كل لغة عن سواها ، لأن قدرة كل جماعة بشرية على صوغ مقاطع لغتها الخاصة بها انما تتأثر بجارحة سمعها وجهاز نطقها ، وهما يختلفان في جماعة بشرية عن جماعة أخرى ٠

واذا تجلت هذه المناسبة في الألفاظ العربية في طراءة نشوء اللغة فاتى اللفظ موحياً بمعناه في المرحلة الصوتية ، فان ارتقاء العربية وانتقالها الى المرحلة اللفظية واستحكام بنيتها وانتهاءها الى مستقرها في الأصل الثلاثي للفظ ، ثم اغتناءها بالاشتقاق والتصريف والتقليب ، كل ذلك حال دون بقاء المناسبة على صورتها الأولى من الوضوح ، اذ لا بد أن تخبو أو تتوارى في كثير من الألفاظ ٠ والتغير لا يقع على اللفظ ومادته وصورته وحسب ، وانما يلابس معناه أيضاً ٠

ولا يمنع هذا أن يكون طابع هذه المناسبة مستمراً منذ نشوئها في كثير من الألفاظ العربية ، بحيث تكون صورة اللفظ دليلا على صورة الحدث ، وهذا ما أشار اليه ابن جني في كتابه (الخصائص) في فصل أسماه (امساس الألفاظ أشباه المعاني ــ ١/٥٤٤) اذ قال : « اعلم ان هذا موضع شريف لطيف ، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول والاعتراف بصحته ٠ قال الخليل : كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا : صرّ ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا : صرصر ٠ وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلان : انها تأتي للاضطراب والحركة نحو النَقَزان والغَلَيان والغَثَيان، فقالوا بتوالي حركات الأفعال » ٠ وقال : «وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو الزعزعة والقلقلة والصلصلة والجرجرة والقرقرة ٠٠ فجعلوا المثال المكرر للمعنى المتكرر٠٠» ٠ وقال : «ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلا على تكرير

الفعل فقالوا : كسّر وقطّع وفتّح وغلّق ، وذلك أنهم جعلوا الألفاظ دليلة المعاني ، فاقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل ، والعين أقوى من الفاء واللام ، وذلك لأنها واسطة لهما ومكنوفة بهما فصارا كأنهما سياج لها ومبذولان للعوارض دونها ٠٠ » ٠ ثم قال: « فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ونهج ملتئب عند عارفيه مأموم ٠ ذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذون عليها ٠٠ من ذلك قولهم خضِم وقضِم ، فالخضم الأكل للرطب كالبطيخ والقثاء ٠٠ والقضم للصلب اليابس، نحو قضمت الدابة شعيرها..فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب ، والقاف لصلابتها لليابس ٠٠ » ٠

☐ العربية لغة الاعراب :

والعربية الى ذلك لغة الاعراب ٠ قال أبو القاسم بن اسحاق الزجاجي في كتابه (الايضاح) : « الأسماء لما كانت تعتريها المعاني فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة،ولم يكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني ،جعلت حركات الاعراب تُنبيء عن هذه المعاني وتدل عليها ، ليتسع لهم في اللغة ما يريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة » ٠

وقال الامام عبد القادر الجرجاني في كتابه (دلائل الاعجاز) : « ان الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذي يفتحها ، وان الأغراض كامنة فيها حتى يكون المستخرج لها ٠ وانه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض ، والمقياس الذي لا يُعرف صحيح من سقيم حتى يرجع اليه ٠ ولا ينكر ذلك الا من ينكر حسَّه والا من غالط في الحقائق نفسه ـ ص/٢٦ » ٠

ونقول في شرح ذلك أنه متى أمكن الكشف بالاعراب عن أجزاء النظم وضابط ائتلاف هذه الأجزاء بعضها ببعض ، أمكن التصرف فيها بتقديم وتأخير لتتنوع بهذا صور الأداء فتستجيب لما يدق من المعاني ٠ ولا تتسع لذلك اللغات غير المعربة اذ يثبت في نظمها مواضع هذه الأجزاء فيضيق بها نطاق التصرف وتتحد لذلك صور الأداء ٠

☐ قدرة العربية على استيعاب الدخيل :

تتميز العربية بصلاحها لقبول كل ما لايناقض خصوص اشتقاقها وتصاريفها من جديد وطريف ، وقدرتها على استيعابه بحيث تخضعه لأصولها وتسلكه في بنيتها فاذا هو جزء من مادتها وبضعة من نسيجها ٠

وقد اعتاد العرب اذا قبسوا لفظاً أعجمياً أن يشذّبوه فينقصوا بعض حروفه أو يزيدوها ، ويغيروا بناءه ليناسب أوزان العربية وأبنيتها ٠ وقد يطلقون التصرف فيه حتى تغيب فيه عجمة الأصل فيبدو عربياً ٠ وهم يستثنون من ذلك بعض الألفاظ لا سيما أسماء الأعلام ٠

وقد اختلف العلماء فيما نسبوه الى العجمة أو عزوه الى لغة بعينها فأصابوا الرأي حيناً وأخطأهم التوفيق فالتبس عليهم وجه الصواب حيناً آخر ، ذلك لقصور مقاييسهم

التي اتخذوها معياراً من جهة ، وتعسّر الحكم في تنقل الألفاظ بين اللغات وخفاء قرائنه اذا دار بين لغات من فصيلة واحدة من جهة أخرى • فقد كان لا بد من تمكنهم من اللغات الأخرى وتتبع هجرات مفرداتها التاريخية واشتباك الصلات بين شعوبها وتماذج ثقافاتهم وأثر ذلك في ثراء اللغات وتناميها •

كما اختلفوا في الاشتقاق من اللفظ الأعجمي فمنعه بعضهم • فقد جاء في المزهر لجلال الدين السيوطي (١٦٨/١ ــ المطبعة الأزهرية :) « سئل بعض العلماء عما عربته العرب من اللغات واستعملته في كلامها هل يُعطى حكم كلامها فيشتق ويشتق منه» ، وجاء الجواب فيه : « فقول السائل يشتق جوابه المنع •• ومحال أن يشتق العجمي من العربي أو العربي منه •• » لكنه استدرك فقال :« يقول السائل ويشتق منه فقد لعمري يجري على هذا الضرب ، المجرى مجرى العربي ، كثير من الأحكام الجارية على العربي من تصرف فيه واشتقاق منه » • وهو أمر سائغ شائع وهل يعقل أن يختار اللفظ الأجنبي ويقتنص فيدخل في مفردات العربية ويسلك في بنيتها ثم يجمد فلا يصقله الاستعمال ويجري المجرى الذي يقتضيه اشتقاقاً وتصريفاً •

ومما اتسع التصرف فيه مثلا لفظ (لجام) اذ قيل انه معرّب أصله فارسي (لكام) بكاف فارسية • فقد عومل معاملة العربي فجمع على (لُجُم) ككتب ، وصغّر على (لجيم) ككتيب ، واشتق منه فقيل (الجمه الجاما) ، بل جمع على (الجمة) أيضاً كسنان وأسنّة ، وقيل (مُلجم) بفتح الجيم لموضع اللجام ، وقيل تلجّمت الحائض بتشديد الجيم اذا شدّت اللجام على وسطها • وجاء في المزهر :« وتكاد هذه الكلمة ــ يعني اللجام لتمكنها في الاستعمال وتصرفها فيه تقضي بأنها موضوعة عربية ، لا معربة ولا منقولة ، لولا ما قفوا به من أنها معربة » • وشك بعض العلماء فعلا في عجمة (لجام) كما فعل الأستاذ أحمد محمد شاكر في تحقيقه لكتاب (المعرّب) للجواليقي • وذهب الأستاذ ادّي‌شر في (الألفاظ الفارسية) الى ان أصل اللفظ سامي آرامي وقد أخذته الفارسية • وقال الأستاذ أحمد فارس شدياق ان اللفظ عربي اشتق من قولهم (لجم الثوب) اذا خاطه • ويقوي هذا أن (اللجام) بوزن (فعال) وهومن أسماء الآلة كالنظام والرباط والوكاء والنقاب والصمام •• كما جاء في شرح الحماسة للمرزوقي • ومن تدبر ما جاء في التعريب • والمعربات ، في كتاب (القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث) للدكتور عبدالصبور شاهين ، وكتاب (بين الحبشة والعرب) للأستاذ عبدالمجيد عابدين وما جاء للأستاذ عبدالوهاب عزام في مقدمة (المعرّب) ، أيقن أن (اللجام) عربي لا دخيل ، وكيف يمكن أن يذهب الظن الى استعارة العربي اسم هذه الأداة من لغة أعجمية ، وهي من ألزم أدواتهم في ما عانوا من حياة البداوة • واذاعدت الى اتساع العرب في تصرفهم به قوي ذلك في نفسك •

□ **تميز العربية بالمترادف :**

وتتميز العربية بمرادفاتها فقد قيل انها من خصائص العربية وان بها مدا لغويا أي مد . وجاء في المزهر (١/٢٤١) : « وللمرادف فوائد منها أن تكثر الوسائل أي الطرق الى الاخبار عما في النفس .. ومنها التوسع في سلوك طرق الفصاحة وأساليب البلاغة في النظم والنثر .. » وجاء فيه قبل (١/٢٣٧) : « وقال قطرب انما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد ليدلوا على اتساعهم في كلامهم .. وليدلوا على أن الكلام واسع عندهم وأن مذاهبه لا تضيق عند الخطاب والاطالة والاطناب » .

ومهما يكن من شيء فلا بد من الأخذ بماقصد اليه أبو حيان التوحيدي في كتابه (الهوامل والشوامل/٥) حين قال : « انه لا بد أن يكون ثمة فرق بين اللفظتين اذا تواقعتا على معنى وتعاورتا غرضا » . ومن ثم كانت عناية أبي حيان بتحديد معاني الألفاظ وتمييز الفوارق الدقيقة أو الخفية ، في معظم مصنفاته . فقد جاء في المقابسات (ص / ٢٧٢) أنه سأل أستاذه أبا سليمان المنطقي عما بين المعرفة والعلم فكان جوابه « المعرفة أخص بالمحسوسات والمعاني الجزئية، والعلم أخص بالمعقولات والمعارف الكلية .. » ويمضي أبو حيان فيميز بين الروح والنفس، وبين الكمال والتمام ، كما يميز في (الهوامل والشوامل) بين القوة والقدرة ، والاستطاعة والطاقة ..

وجاء في كتاب (مقدمة لدراسة لغة العرب) للشيخ عبد الله العلايلي ، بحث المترادف، فدفع أن يكون المترادف علامة قلق في العربية وقال : « والحقيقة فيه أنه عنوان على مرونة اللغة من وجه آخر ، ولكن أصبح صفة ظاهرة من العربية الى حد التفرد ... بل أصبح الأدب العربي يضيق جداً اذا لم تكن فيه فسحة من الألفاظ الشتى التي تتلاقى على معنى واحد/ ٢٢٧ » . وأحسب أن العلايلي قد عنى بذلك المتوارد والمتكافىء وما كان في حكمهما، والمتكافىء ما اتحدت معانيه فكان بعضه اسماللذات وبعضه وصفاً كالسيف والصارم والحسام .. والمتوارد ما تقاربت معانيه أصلاثم تطابقت في الاستعمال اتساعاً ، وليس المتكافىء والمتوارد في الأصل من المترادف عندالكثيرين .

وقد أصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرةفي مؤتمره عام (١٩٦٤) كلمته في المترادف فقال: « يوصي المجمع في شأن المترادفات أن يعنى كل العناية بتبيان الفروق الدلالية بين الكلمات ما أمكن ، بحيث يتحدد المعنى الخاص الدقيق لكل كلمة ، وبذلك تضيق دائرة المترادفات .. » .

□ **استجابة العربية للتعبير عن شؤون العصر :**

وقد استطاعت العربية بخصائصها التي ذكرنا أن تستجيب لسائر دواعي البيان فتلبي حاجة النفس والفكر فيما يستدق ويستجد من المشاعر والمعاني فتتدفق تدفق الحياة وتتجدد تجدد مطالبها ودواعيها ، جيلا بعد جيل،وقدشهد بذلك غير باحث من كتاب الغرب ، ومنهم الباحث المشهور جورج سارتون ، وقد أسمى علماء المسلمين في القرون الوسطى عباقرة

الشرق ، وذكر لهم مآثرهم في وضع أعظم المؤلفات وعقد أكثر الدراسات أصالة وعمقا باللغة العربية ٠ وكانت العربية لغة العلم للعالم منذ منتصف القرن الثامن للميلاد الى نهاية القرن الحادي عشر ، وكان لا بد لمن ابتغى الوقوف على ثقافة ذلك العصر أن يُلمّ بالعربية ٠ هذا ما جاء في كتاب (مهد الحضارة العربية في الشرق الأوسط) للباحث المذكور ٠ وقد فصل الكلام فيه الأستاذ أحمد أبو زيد في مجلة عالم الفكر (العدد الأول من مجلدها الثامن) ٠ وجاء في ترجمة هذا الكتاب للأديبة الأستاذة فاطمة عصام صبري : « لقد كانت العربية حقاً في ابان العصور الوسطى أكبر لغة عُرفت حتى ذلك الحين انتشاراً ، اذ كان يتداولها بالكلام والكتابة أمم كثيرة في الشرق والغرب، وزيادة على ذلك ، وعلى خلاف اللاتينية ، كانت تتداولها أيضاً شعوب تدين بأديان متعددة ـ مجلة التراث العربي ـ بدمشق ـ تموز ١٩٨٩ » ٠

وقد أصاب الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا حين قال في فصله الممتع (مدخل الى تراث العرب العلمي) : « وغني عن البيان أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي اختارها هذا التراث للتعبير عن شؤونه وشجونه ومواقعه ومعانيه ونتائج تجاربه وخبراته ٠ فان ما كتب بالعربية من الأدب والفلسفة والطب والتاريخ والعقائد والفقه والفلك والرياضة والزراعة والصناعة والاجتماع والسياسة والعلوم الأخرى ، في ما بين القرن الأول والقرن السابع للهجرة ٠٠٠ فاق ما كتب بأي لسان ـ مجلة الفيصل ـ العدد ٢٤ / ـ ١٩٧٩ » ٠

فثبت بهذا أن العربية لم تجمد مع ظهور الاسلام وما تلاه من العصور ، بل تطورت ونمت من حيث اللفظ فاتسعت مادتها وكثرت مفرداتها بالاشتقاق والتعريب والقياس والتوليد فاستوعبت كل ما تطلبته شؤون الحضارة من معان جديدة تضمنتها الكلم العربية بتدرج معانيها الأولى في العقيدة والفلسفة والعلوم والفنون والآداب ٠

وهكذا فان سر اللغة انما يقوم في مهمتها التصويرية ، أي في عكس صور الواقع عكس المرآة ، فاللغة التي تعجز عن رسم مثل هذه الصور انما تنكفىء عن الاضطلاع بمهمتها ٠ ولعل هذا ما عناه جابر بن حيان في كتابه الميزان حين قال : « ان تركيب الكلام يلزم أن يكون مساوياً لكل ما في العالم من نبات وحيوان وحجر » ٠ وقد جعل الدكتور زكي نجيب محمود مذهب العالمين فتجنشتين وبرتراند رسل وغيرهما من فلاسفة التحليل ، في أن ما تقوم به اللغة في الأصل انما هو ضرب من التصوير، جعل ذلك من قبيل مذهب ابن حيان هذا ٠ (جابر بن حيان للدكتور زكي نجيب محمود ـ ص/١١٢) ٠

يقول الأستاذ هاميلتون ، على ما حكاه الأستاذ آ. كوفيليه في كتابه (دروس الفلسفة): « لا بد للرقي الفكري من رموز يثبت بها ٠ فالرمز يُقر كل خطوة من خُطا تقدمنا ، ويفسح لمنطلق جديد ومراحل جديدة ٠ فاذا استطاع جيش أن يظهر على بلد من البلدان فان ظهورة لا يعد فتحاً وتملكاً قبل أن ينشىء الحصون ، وكذلك الألفاظ انما تتخذ لتكون حصوناً للأفكار » ٠

وقد أشار العلماء الى هذه (الثنائية) القائمة بين اللغة والعالم الخارجي ، حين أوضحوا أن الرمز اللغوي ، أي الألفاظ ، شيء ، والمرموز اليه ، أي المسمّيات في ذلك العالم ، شيء آخر ، فالألفاظ وهي الرموز هي حصون المسمّيات أي **الأفكار** ٠

واللغة كائن حي ، فلا بد أن يغشاها مايغشى الأحياء من تبدل وتطور تتجهز بهما لتكون أداة صادقة للتعبير ، باللفظ والرمز والايحاء ، عن شؤون الحياة المتدفقة المتجددة وتصويرها ٠ وبهذا يكون للمعاصرة من فصيح الكلام في كل ميدان ، ما يدنو قليلا أو كثيراً ، من فصيح الأصالة ، تبعاً لموضوع البحث ٠

☐ صيرورة العربية لغة الفكر المعاصر ومحاكاة الثقافة الغربية :

أقول اذا تسنى للعربية أن تكون لغة العصر فلا يعني ذلك أن يحاكي الفكر العربي الفكر الغربي في كل ميدان ٠ فاذا التمس العرب من الغرب وسائله وطرائقه بل مناهجه ومستحدثاته المادية،فلا بد أن يحتفظوا بقيمهم الروحية ومُثُلهم الخلقية ، وفيها الجوهر والأصالة ٠

واذا أخذنا بمفهوم الحضارة عند بعض المتخصصين حين يقصرونها على الآلة والعلوم التقنية والكشوف والمخترعات ، وكان محتوى الثقافة هو الفكر بمختلف وجوهه من لغة وعقيدة وأدب وتاريخ، **أقول اذا أخذنا بمفهوم هؤلاء المتخصصين ، بدا لنا أن ثقافة العرب انما تتميز بطابع مزدوج واضح المعالم والملامح في الملاءمة بين الروح والمادة وبين العقل والضمير ، على حين تتسم ثقافة الغرب بغلبة طابعها المادي ٠ واذا آل الأمر يوماً الى حضارة عالمية متشابهة ، فلا بد أن تبقى ثقافتان ٠ واذا استيسر للعرب النقل والاقتباس من حضارة الغرب ، فقد يتعذر عليهم النقل والاقتباس من ثقافة هؤلاء بالمحاكاة ٠ واذا تم بين العرب والغرب أخذ وعطاء في هذا الميدان ،ففي القالب غالباً والشكل والاطار أكثر منه في اللباب والجوهر والمضمون** ٠ واذا كنا لحضارة الغرب مستقبلين فنحن لثقافتهم متدبرون متبصرون ، أكثر منا مضارعين محاكين ، ولعل هذا هو النهج القويم ٠ ولا يمنع ذلك من الحوار بين الثقافات ، بل هو ضرورة لا بد للانسانية من تحقيقها ٠ ويدخل في هذا الاطار ما عقد من الدراسات على ما أسموه **(الأدب المقارن)** ، **وهو يتناول (التأثيرات** المتبادلة) بين آداب الشعوب ، بل بين جوانب المعرفة المختلفة بين الشعوب ، والكشف عن مدى التفاعل بين ثقافاتها ، ومن ثم اقترح بعضهم الاستعاضة عن اصطلاح (الأدب المقارن) بالتفاعل المتبادل أو التأثير المتبادل بين الآداب والثقافات عامة ٠ ولا بد أن يسفر هذا عن دراسة التطور الاجتماعي التاريخي للانسانية ٠ وتمس الحاجة هنا الى التمييز بين ما يعنيه التأثير ، وما يعنيه الاقتباس والمحاكاة ٠ وقد تجلت فعلا (ايحاءات عربية اسلامية) في نتاج بعض أدباء العالم ، لا سيما أدباء الروسية ٠ وبسط القول في هذا الدكتور مكارم الغمري في كتابه الحديث (مؤثرات عربية واسلامية في الأدب الروسي / ١٩٩١) ٠

□ بناء المعاصرة اللغوية على الأصالة :

وليس صحيحاً بعد هـذا أن ننهج في تأسيس معاصرتنا اللغوية نهج القائلين : إما أن نكون مع الأصالة فننبذ كـل معاصـرة أو نكون مع المعاصرة فنصدف عن كـل أصالة ، وانما السداد أن نقيم معاصرتنا اللغوية هذه على أسس راسخة من الأصالة بل أركان وثيقة منها ودعائم محكمة ٠

وقد أثبتنا في غـير فصل عقدناه مـن الفصول اللغوية ، أن الباحثـين في علم اللغـة الحديث قد أفادوا في مواضع مختلفة من تراثنا اللغوي ، مما عرض له النحاة في دقة وأحكام ٠ فقد شارك سيبويه وأستاذه الخليل وابن جني وابن سينا وغيرهم في ما أسموه اليوم (علـم الصوتيات) أي الدراسات اللغوية الصوتية ٠ واستطاعوا بما رزقوه من نضيج الفكر ودقيق الادراك أن يسبقوا الى كثير من حقائقه ، فبدت بذلك عبقرية النحاة في دراسـة الأصـوات وتحليلها ٠

وهذا الدكتور كمال بشير يستفتح القول في فصل له بعنوان (مصطلحات صوتية ذات تاريخ) فيقول : « كان للبحث الصوتي عنـد الخليل بن أحمد حظ وافٍ ونصيب راجح ٠ ويظهر هذا الحظ ويتضح ذلك النصيب في تلك المقدمة الرائعة التي مهد بها لكتابه الموسوم بكتاب ــ العين ــ فهناك في تلك المقدمة يسجل الخليل جملة من المبادىء العامة لعلم أصوات العربية ويضع القوانين الأساسية التي بنـى عليها الدارسون من بعـده كـل تفريعاتهم وتفصيلاتهم في هذا المجال » ٠ **وهو يختم فصله هذا بعد تفصيل الكلام على ما أتى به العلماء بعد الخليل في هذا المضمار ، لا سيما ابن جني في كتابـه (سر صناعـة الاعراب) فيقول : « فلله در هؤلاء القوم الذين استطاعوا بحسهم المرهف أن يقفوا على ما وصـل اليه العلـم الحديث ممثلا في تلك النتائج التي وضعها بين أيدينا ذلك الجهاز العلمي الخطـير المعـروف بالكمبيوتر أو الحسّابة الآلي ، كمـا يسميه بعض الدارسين** ــ العدد الأربعون من مجلـة الفيصل الصادر في ايلول ١٩٨٠ » ٠

وهكذا الحال في كثير من دقائق التراث الكامنة فيه كمون النار في العود ، فاذا تأتى لهـا من يتلطف لها ويتلمسها اتقدت ، كمـا تستورى النار حين القدح ٠

وقد أخذ بعض الباحثين المحدثين على النحاة مثلا قسمة الجملة العربية الى اسميـة وفعلية وميز احداهما من الأخرى ، ومن هؤلاء العلاّمة ساطع الحصـري والدكتـور أحمـد عبدالستار الجواري ، رحمهما الله ، والدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي. وقد بدا في ما عقدناه من فصول أننا كنا في نصرة النحاة لسداد ما ذهبوا اليه ، على مـن عابهم في ذلك بالتـدبر ٠ كما أخذ الحصـري وسواه على النحاة قسمة الكلم الى اسم وفعل وحرف ، وكنا مع النحاة في ما انتهجوه في هذه القسمة بالتأمل ٠ ثم جاءت الدراسات في علم اللغة الحديث تؤيد بالبينـة أن النحـاة كانوا على حق لا شك فيه ولا امتراء ، فيما أجتمع رأيهم عليه واتحدت وجهتهم فيه في القسمتين جميعـاً ٠

وقد أكد الأستاذ ا· بيستول قسمة الجملة العربية الى جملة البنية ذات الموضوع في بدايتها ـ الجملة الاسمية ـ وجملة البنيةذات الفعل في بدايتها ـ الجملة الفعلية · وفعل نحو ذلك الأستاذ م· برافمان ، كما أثبت الدكتور س· غالسان في الدراسات اللغوية المقارنة صحة تقسيم الكلم الى اسم وفعل وحرف · وبسط القول في هذا كله الدكتور جعفر دك الباب ، في كتابه الطريف (الموجز في شرح دلائل الاعجاز في علم المعاني) ·

وهكذا ضمت لغتنا العربية وما تزال ، نسغ تراثنا الروحي بخاصة ووعت ارثنا الثقافي بعامة ، فكانت عروة رباطنا القومي وديوان حضارتنا بل رسالتنا الانسانية · فدلت بذلك على أصلة ذاتها وعراقة هويتها وطرافة سماتها ·

* * *

وكل ما نرجوه أن نكون قد جلونا ، بما قدمنا ، مكانة العربية فقدرناها حق قدرها ، وقضينا حقها في ابراز سماتها والكشف عن دقائقها ، ثم ضممنا اليد على النهج القويم لابتناء معاصرة متفتحة مسغفة ، متطورة مبدعة ، مواتية طيعة ، وثيقة الصلة بجذورها ، تحسن التبليغ والتأدية · معاصرة تكون ترجماناً لحياتنا الزاخرة ، ولساناً لما نحرص عليه من ثقافة ونلتمس من حضارة ، ومن الله العون ·

☐ مسرد بمصادر البحث :

١ ـ نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات كمال الدين الأنباري ·

٢ ـ مرآة الاسلام للدكتور طه حسين ·

٣ ـ مجلة الهلال ـ التراث العربي للأستاذ عباس محمود العقاد (نيسان / ١٩٣٦) ·

٤ ـ مجلة المجمع العلمي العربي ـ التراث العربي للأمير شكيب ارسلان (العدد/٤٤ لعام ١٩٣٧) ·

٥ ـ نظرة جديدة الى التراث للدكتور محمد عمارة ·

٦ ـ (ابن تيمية) للدكتور محمد يوسف موسى ·

٧ ـ مصطلحات الصيدلة لأقراباذين القلانسي ·

٨ ـ بحر الجواهر لليوسفي الهروي ·

٩ ـ كشاف اصطلات الفنون للتهانوي ·

١٠ ـ مفاتيح العلوم للخوارزمي ·

١١ ـ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة / ١٩٧٠ / / ١٩٧٣ / ١٩٧٧ / ١٩٧٨ ·

١٢ ـ مسالك القول في النقد اللغوي لصلاح الدين الزعبلاوي ·

١٣ ـ الأشباه والنظائر لجلال الدين السيوطي (ج / ٣) ·

١٤ ـ تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ·

١٥ ـ البيان في اعراب القرآن لأبي البقاء محب الدين العكبري ·

١٦ ـ المصباح المنير لأحمد بن محمد الفيومي ·

١٧ ـ الكتاب لسيبويه ·

١٨ ـ همع الهوامع لجلال الدين السيوطي (١٧٨/٢) ·

١٩ ـ مذاهب وآراء في نشوء اللغة وتدرج معانيها لصلاح الدين الزعبلاوي ·

٢٠ ـ أخطاؤنا في الصحف والدواوين لصلاح الدين الزعبلاوي .

٢١ ـ الايضاح في علل النحو لأبي القاسم الزجاجي .

٢٢ ـ اعراب الحديث النبوي لأبي البقاء محب الدين العكبري .

٢٣ ـ الكشاف لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري .

٢٤ ـ خزانة الأدب ـ في شرح شواهد الكافية للرضي ـ لعبد القادر بن عمر البغدادي .

٢٥ ـ شرح شواهد الكافية للرضي الاستربادي .

٢٦ ـ دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني .

٢٧ ـ احياء النحو لابراهيم مصطفى .

٢٨ ـ (النقد المنهجي) و (في الميزان) للدكتور محمد مندور .

٢٩ ـ المنزع النفسي في بحث أسرار البلاغة للأستاذ محمد خلف الله .

٣٠ ـ عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده للدكتور أحمد مطلوب .

٣١ ـ الموجز في شرح دلائل الاعجاز في علم المعاني للدكتور جعفر دك الباب .

٣٢ ـ الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي .

٣٣ ـ النكت في اعجاز القرآن لعلي بن عيسى الرماني .

٣٤ ـ بيان اعجاز القرآن لأحمد بن محمد الخطابي .

٣٥ ـ أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني .

٣٦ ـ المختار لعبد العزيز البشري .

٣٧ ـ عبدالعزيز البشري للدكتور جمال الدين الرمادي .

٣٨ ـ البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها للأستاذ أمين الخولي .

٣٩ ـ مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف السكاكي .

٤٠ ـ الايضاح لجلال الدين القزويني .

٤٢ ـ دراسات فنية في الأدب العربي للدكتور عبدالكريم اليافي .

٤٣ ـ خصائص العربية للأستاذ محمد المبارك .

٤٤ ـ الخصائص لأبي الفتح ابن جني .

٤٥ ـ جابر بن حيان للدكتور زكي محمود نجيب .

٤٦ ـ مهد الحضارة العربية في الشرق الأوسط لجورج سارتون ـ ترجمة السيدة فاطمة عصام صبري (مجلة التراث العربي ـ تموز ١٩٨٩) .

٤٧ ـ مجلة الفيصل (العدد / ٢٤ لعام ١٩٧٩) و و (ايلول ١٨٩٠) .

٤٨ ـ مجلة الفكر (العدد / ١ ـ المجلد / ٨) .

٤٩ ـ دروس الفلسفة للأستاذ آ كوفيليه .

٥٠ ـ مؤثرات عربية واسلامية في الأدب الروسي للدكتور مكارم الغمري .

★ ★ ★

من التراث القريب :

قضيّة المرأة في عصر النهضة العربيّة

د. نعيم اليافي

لم أختر هذا العنوان ، وانما ندبت للحديث عنه ، فموضوعاتي المفضلة تنطلق من الواقع أو المستقبل لتسبر في ضوئهما الماضي وليس العكس ، ومع ذلك فان العنوان متسق مع عنوانات الأسبوع الثقافي ككل ، والذين أشرفوا عليه وخططوا له قصدوا ـ فيما أظن ـ أن يتتبعوا قضايا المرأة عبر البعدين الزماني(الماضي) والمكاني (الواقع الراهن) استشرافاً للمستقبل، فكان نصيبيهو الماضي،ومن الماضي أقربه (عصر النهضة). سأحاول أن أتحدث عن هذا العصر القريب ـ البعيد ، وأوازن بين ما طرحه حول المرأة وما يطرحه العصر الحاضر من قضايا لتتم اراءة التطور ، ونتعرف مواقع خطانا في الطريق ، وندرك أين كنا وأين أصبحنا اليوم ·

في العنوان مصطلح أعده مفتاح الموضوع، هو « النهضة » ، ماذا نقصد به مفهوماً وزماناً ومكاناً ؟ حين يستعمل هذا المصطلح في الثقافة الغربية ينصرف الذهن مباشرة نحو القرن السادس عشر حين بدأت النهضة الأوروبية بالرجوع الى التراث اليوناني واحيائه ، كما بدأت بالصراع الذي قام بين الكنيسة والدولة ، وبالانكباب على العلم المادي والانصراف اليه أيضاً · وبعد القرن السادس عشر ـ أي بعد عصر النهضة ـ جاء عصر التنوير أو الأنوار (القرن الثامن عشر) ، فعصر الحداثة (القرن التاسع عشر) ثم ما بعد الحداثة (القرن العشرون) · هكذا تتباين المصطلحات وتتمايز وفق العصر وحركة الواقع دون أن تتداخل · أما في ثقافتنا العربية فان المصطلح ليست له هذه الدقة في المفهوم والزمان والمكان · لقد ارتبط المصطلح لدينا ـ دلالياً ـ بالمؤثر الخارجي ، أي بالثقافة الوافدة مع الحملة الفرنسية في بداية القرن التاسع عشر، ثم ارتبط بالعودة الى الينابيع والجذر التراثي مع نهايته ، ارتبط باليقظة وبالنهوض ومحاولة الاعتماد على الذات والافادة من

الآخر ، وما تزال هذه العناصر والقضايا مطروحة على الساحة حتى الوقت الراهن ، ومن هنا أزعم أن مصطلح عصر النهضة لدينا هو أقرب الى أن يكون مفهوماً حضارياً ينحو نحو التطور والتغير ، هو مشروع كبير للأمة العربية فيه جزء واقعي، وفيه أجزاء مستقبلية تصبو نحو التحقق ، أو هي أحلام وهموم تنزع الى أن تتحقق في المستقبل . ولعل استمرار النهضة حتى اليوم بما يسمى الحداثة أو النهضة الثانية لأكبر دليل على تداخل دلالات المصطلح أولا ، وعلى أنه مصطلح خلافي ثانياً ، وعلى أنه مصطلح مفتوح باستمرار نحو المستقبل ثالثاً .

هذا عن مفهوم المصطلح فماذا عن زمانه؟ معظم الدارسين يجعلون النهضة العربية تبدأ مع أوائل القرن التاسع عشر بعيد الحملة الفرنسية على مصر ، ويستمرون بها حتى نهايته ، وغالباً ما يتركز الزمان حول نهاية القرن الماضي، ثم يفاجؤون بأن عوامل النهضة ودواعيها وأطروحاتها ما تزال موجودة بين الحربين العالميتين وحتى بعيد الحرب الثانية فيضطرون الى ايجاد مصطلح ثان مميز لهذه الفترة الأخيرة فيقولون النهضة الثانية .

وبغض النظر عن صحة هذا التحديد أو ذاك من الناحية الزمانية فان الفترة التي سأتناول من خلالها أطروحات النهضة هي الفترة الممتدة ما بين العشر الأخير من القرن التاسع عشر وحتى ثلاثينات القرن الحالي ، فضمن هذا الحيز الزماني تبلورت في رأيي قضايا النهضة وبرز أهم أعلامها، وتلامحت غالباً قضاياها ، انه الزمان الذي شهد زخم النهضة وأرقى درجات وعيها المتيقظ من أجل التغيير والتحول .

يبقى تحديد الاطار المكاني للنهضة ، وهنا أيضاً نجد أغلب الدراسات تنصب حول مصر باعتبارها المهاد والمركز والمنطلق ، أو بكلمة أدق البؤرة التي تمحور فيها عصر النهضة ، ومع اعترافي بذلك واقراره فان هذا لا يمنع من أن نتوسع في الاطار المكاني للنهضة فنمده غرباً الى تونس وشرقاً الى سورية ولبنان ، فهذه الأمكنة أو البيئات شهدت هي الأخرى مثل مصر عصراً نهضوياً ، تأخر أو تقدم على عصر النهضة في مصر أو رافقه، ليس هذا بالمهم ، فالمهم أن عصر النهضة وجد هنا كما وجد هناك ، وعبر في كل البيئات والأمكنة عن طموحاته وأغراضه وقضاياه ، ولعله من حسن حظ الدراسة حول قضية المرأة في فكر النهضة ، أن هذه الأفكار الثلاثة (باعتبار سورية ولبنان كانتا قطراً واحداً) شهدت جميعها حوارات وتصورات وصراعات وربما معارك في وقت واحد تقريباً هو الوقت الذي اخترناه للدراسة .

لقد تركزت محاور قضية المرأة في مصر في نهاية القرن التاسع عشر على يد قاسم أمين في كتبه التي خصصها لهذا الموضوع ، في حين شهدت سورية ولبنان بين عامي ١٩٢٦ــ١٩٢٨ أوج المعارك التي دارت في الصحف والمجلات حول قضايا المرأة ، لا سيما قضية السفور والحجاب ، كان من نتيجتها ظهور كتاب يحمل هذا العنوان وينسب الى نظيرة زين الدين . أما في تونس فان الطاهر الحداد ــ أحد تلامذة الأستاذ الامام ــ كان وما يزال يُعد المعلم البارز في حلبة الصراع حين أصدر كتابه « امرأتنا في الشريعة والمجتمع» عام ١٩٣٠، وتجاوز

في اطروحاته وأفاد في الوقت نفسه من كل ما قيل في المرأة حتى عصره» ، وسنجعل من هذه الكتب ـ النماذج مدار بحثنا في قضية المرأة في عصر النهضة معتمدين منهجاً تحليلياً يهتم بسيولوجية المعرفة ، الى جانب اهتمامه وتركيزه على الأفكار ، لأن عرض الأفكار وحده لا يكفي ولايعلل في آن ، فالذي يفعل ذلك الظروف المحيطة المعرفية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية ... الخ ، وستكون خطتنا في الدراسة كما يلي : نتناول أول ما نتناول المؤثرات والعوامل ، فالمنطلقات المشتركة للمؤلفات ، وأبرز القضايا المشتركة ومحاور الطرح ، ثم وجوه المتباينات وملاحظاتنا على أهم ما طرح ، وأخيراً نوازن بين الخطاب النسوي في عصر النهضة والخطاب النسوي في الوقت الراهن .

أولاً ـ المؤثرات والعوامل :

ثلاثة مؤثرات أو عوامل شكلت عصر النهضة وتنازعت أفكاره ، وعملت على صبغها بهذا اللون أو ذاك ، وسيرها في هذا الطريق أو ذاك ، أولها العامل الخارجي الوافد المتمثل بحملة نابليون وما رافقها من مظاهر أو صحبها وكان نتيجة لها من مؤثرات كالبعثات العلمية والمطبعة وارساليات التبشير وانتشار الصحف . وكان هذا العامل الحجرة الأولى التي القيت في مستنقع التخلف الراكد، وفجر أزمة ما زلنا نكابدها ونضع لها تسميات شتى ، كالاحتكاك والمثاقفة والتناص والغزو الثقافي والتبعية . وثانيهما العامل التاريخي أو التراثي لأمة عريقة كان لها مجد وماض وحضارة ، واعتدّت وما تزال بهذا المجد والماضي والحضارة. وهذا العامل كان أيضاً وما يزال كالخنجر له حدان ، حد يشق طريق المستقبل اعتماداً على التراث ، وحد يغلقه أو يسده بدءاً من التراث ، فمن أعاد المستقبل الى الماضي سده ، ومن نقل الماضي الى المستقبل ووظفه من أجله فتحه ، انه العامل الذي قسم الناس في عصر النهضة الى فريقين، فريق المحافظين وفريق المجددين . **العامل الثالث** هو حركة الواقع وحركة المجتمع وما تتطلبه هاتان الحركتان من رؤية مغايرة لفعل العاملين الأولين ، ان الأفكار هنا تنطلق من الواقع الحي المعيش ثم تنظر مرة الى الماضي التراثي ومرة الى الوافد الغربي لتأخذ من هنا وهناك ما ينفعها لفهم واقعها وتطويره ، في حين أنها تبدأ بداية مخالفة في ذينك العاملين ، تبدأ من التاريخ في العامل التراثي، وتبدأ من الجغرافية في العامل الوافد .

وليس من شك في أن لكل عامل مدى من التأثير ، وفاعلية محددة عظمى أو صغرى تختلف من فريق الى فريق وربما من جيل الى جيل ، فالعامل الوافد كان المؤثر الأقوى لدى التغريبيين ، والعامل التراثي كان الأقوى لدى المحافظين، والعامل الواقعي المعيش كان الأقوى لدى المجددين التطوريين ، وقد اتخذت جميع العوامل لدى أصحابها حينئذ صورة المساجلة (أنا في مواجهة الآخر) ، الغرب أو الشرق ، الحضارة الغربية أو العروبة والاسلام ، وبكلمات أخرى الذوبان في الآخر ، أو التشبث بالكينونة المتميزة المتلامحة .

وستظل هذه العوامل في خطوطها العامة والضيقة تعمل عملها حتى الوقت الحاضر مع ثلاث ملاحظات : أولاها أن النظرة الى العوامل صارت أكثر تشابكاً وتعقداً وتداخلاً ،

وأخراها أن تأكيد الجانب الواقعي أو الانطلاق منه كان يبرز أكثر مع الزمان ، والثالثة أن القضية لم تعد آنا في مواجهة الآخر ، بل كيف أفهم الآخر وأفيد منه واغايره وأحقق وجودي من خلال ابداعي الخاص الذي يعتمد القديم كما يعتمد الجديد .

ثانياً ـ المنطلقات والمهمات :

وضعت حركة النهضة الاصلاحية التنويرية لها بعض المنطلقات النظرية كما وضعت نصب عينيها العديد من المهمات والغايات ، صحيح أنها هنا وهناك لم تقدم مقدمات نظرية حول الموضوع ولكن الدارس يستطيع أن يستشف ذلك ويفرزه من خلال المرجعية بوصفها منطلقات ومن خلال محاولات ومطالب التحديث بوصفها مقاصد وغايات ، ويمكن أن نشمل الأمرين المنطلقات والغايات أو العكس ـ في النقاط الآتية :

آ ـ ان الهدف الأساسي للحركة هو اصلاح المجتمع بعامة ومن جملة ذلك وضع المرأة بصفتها جزءاً من كل ويضع معاناتها المضاعفة المزدوجة في بؤرة القهر والتخلف .

ب ـ حتى نصلح هذا الواقع المتردي علينا أن نتجاوزه ، ونتجاوز معه كل التقاليد والأعراف البالية التي صنعته ونمود الى الوراء ، الى النبع الأول ـ الاسلام ، فالواقع شيء والاسلام شيء آخر .

ج ـ كان السؤال المطروح على الجميع هو .... هل يقبل الاسلام بالتطور والتغير والتحول ، أو يرفض ذلك جملة وتفصيلا ، وكان جواب المحافظين لا ، وكان جواب الاصلاحيين التنويريين نعم ، وقالوا قولتهم الشهيرة على لسان (الطاهر الحداد) « التطور أو الموت » ، وهي الصيحة نفسها التي هتف بها مفكر عربي آخر (زكي نجيب محمود) بعد خمسين عاماً من الصيحة الأولى « مجتمع جديد أو كارثة » .

د ـ حاول المصلحون جاهدين أن يثبتوا قبول الاسلام لهذا التطور أولا وامكانيته من خلاله ثانياً بالرجوع الى النص الأول ـ القرآن ـ ، ونص النبوة أو حياتها ، وأشاروا الى ما يثبت دعواهم في قوله تعالى « وخلقناكم أطوارا » وقوله «ولكل جعلنا شرعة ومنهاجا». وقول الرسول عليه السلام « ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها » . وقول بعض القواعد الفقهية « تتغير الأحكام بتغير الأزمان » .

هـ ـ وقد فرق هؤلاء في جملة ما فرقوا بين روح الاسلام وجوهره من جانب وبين الشكليات الخارجية أو أساليب التعبير عن هذه الروح من جانب آخر ، وبكلمات أخرى فرقوا بين الأصول وبين الفروع ، فجعلوا الأصول ثابتة وأبقوا للفروع حريتها في التغير وفق العصور ، وشبهوا الاسلام بالشجرة العظيمة جذرها ثابت ، وفننها وأوراقها متحركة متجددة ، وربطوا هذا التجدد بالمكان كما ربطوه بالزمان ، واستشهدوا لهما من خلال وقائع الاسلام وانتهوا الى أن موضوع المرأة وقضاياها من مسائل الفروع وليس من مسائل الأصول .

و ـ وفيما يتعلق بالنص القرآني وبقضايا المرأة ومشكلاتها لجؤوا الى الاجتهاد كما لجؤوا الى التأويل محاولين التوفيق بين حركة الواقع ومتطلباته وبين اعادة فهم النص وانتاجه وفق هذه الحركة الا أنهم ولأسباب معرفية وظرفية لم يستطيعوا أن يصلوا الى ما وصل اليه المجتهدون في الوقت الراهن في طبيعة القراءة وكيفيتها وطرائقها والنتائج الفقهية الحديثة المترتبة عليها ·

ثالثاً ـ محاور قضايا المرأة في عصر النهضة :

طرحت قضايا المرأة في عصر النهضة ، وأصر على هذه القضية أو تلك ، ومنحت درجة الأولوية في العرض والتناول والمناقشة حسب الحاجات والضرورات الملحة · كان المجتمع في نهاية القرن الماضي يكابد أزمة اختناق أوصله اليها تراكم التخلف والتقاليد والأعراف بوصفها مسلمات يقينية ، وكان في مقدمة هذه التقاليد مشكلات الزواج والطلاق والتعدد ، أعقبتها مشكلات أخرى وقضايا عدت أقل أهمية ، اما بسبب الحساسية الفائقة لها كمشكلة الحجاب ، واما لجدة طرحها كالتربية والتعليم ، وسنقف عند محاور هذه القضايا جميعها مبتدئين بالمسائل الملحة ثم بالأقل الحاحاً ، وسنمسها كلها مساً رفيقاً تماماً كما كان الحال معها أيامها باعتبارها أموراً تمس الفروع ولا تمس الأصول ·

آ ـ الزواج :

كان يتم عقد الزواج بعيداً عن رغبة الفتاة ، ودون اشتراط لسنها ولا تحديد لمهرها ، وحاول النهضويون أن يربطوا بين صحة العقد والوقوف عند رغبة الأنثى رفضاً أو قبولا ، ولم يولوا اهتماماً كبيراً لأمر السن أو المهر ·

ب ـ تعدد الزوجات :

ذهب الامام محمد عبده تحت تأثير الصورة الشائهة الفاسدة التي انتهت اليها الرخصة القرآنية حول الموضوع الى القائه القاء تاماً اعتماداً على مبدأ فقهي هو « درء المفاسد مقدم على جلب المنافع » ويبدو لي أن الامام كان ينحو في ذلك منحى المعتزلة ·

ج ـ الطلاق :

قيد الطلاق ضمن شروط وحدود منها مرض الزوجة الذي ليس له برء ، واخبارها بذلك حتى لا تصل اليها ورقة الطلاق وهي آخر من تعلم ، ثم رأوا ألا يتم الا بوجود شهود ·

د ـ التربية والتعليم :

حُدد التعليم في اطار فقه الدين والتربية البيتية ، واعداد الفتاة لتكون زوجاً صالحة وأماً صالحة ، وحددوا الشهادة بالابتدائية على الأكثر ، والمناهج بما ينفع الفتاة في أسرتها ، والمكان بما يلائم حجابها حتى لا ترى ولا تُرى ، فالاختلاط لديهم أمر منكر ، أو لم يحن أوانه ·

هـ ـ الحجــاب :

من المعروف أنه أصبح للحجاب ثلاث دلالات متشابكة حجاب البيت وحجاب الشارع أو الزي وحجاب الرأس والوجه ، وقد رفض الجميع السفور الكامل وأسموه بالتبرج ، ونادوا بالحجاب الشرعي ، ومثلوا له بلباس الفلاحة ٠

و ـ الحقــوق :

فيما يتعلق بالعمل أجازوا العمل الاجتماعي البسيط ورفضوا العمل السياسي والوظائف العامة ، وذهب الطاهر الحداد وحده الى أنه لا يوجد في الشرع ما يمنع التساوي في الارث ، ورأوا جميعاً في المساواة بين الجنسين مبدءاً قرآنياً ، الا أن رأيهم هذا ظل على مستوى التنظير أو الشعار ، ولم يستطيعوا تحويله الى مستوى الفعل والتطبيق ، وكثيراً ما كانوا يحتجون للتباين بالفروق الطبيعية ومهمات الذكورة والأنوثة وبمفهوم القوامة والقدرة على الانفاق ٠

رابعاً ـ وجوه من المتباينات :

في النماذج التي اخترناها للدراسة ، وهي قاسم أمين ونظيرة زين الدين والطاهر الحداد ، كممثلين لموقف عصر النهضة من قضية المرأة ، نجد بعض المتباينات والاختلافات في وجهات النظر ، تعود في معظمها الى الاطار المعرفي للباحث ، ومدى تأثره بهذا المنطلق أو ذاك ، من التراث والوافد الغربي وحركة الواقع ، كما تعود الى الزمان الذي قيل فيه الرأي والمكان الذي ضمه ٠

أولا ـ قاسم أمين :

ألف قاسم أمين ثلاثة كتب عرض فيها موقفه من قضية المرأة ، والرأي الشائع عنه مأخوذ من كتابه الثاني تحرير المرأة ، ويبدو أنه ليس رأيه في جميع الكتب ، لقد تطور هذا الرأي عبرها حتى وصل الى النقيض ٠ في كتابه « المصريون » الذي ألفه بالفرنسية عام ١٨٩٤ ، ولم يترجم الى العربية الا في عام ١٩٧٦ ، وجاء رداً على كتاب الدوق الفرنسي داركور ، الذي ربط فيه بين موقف الاسلام ووضع المرأة المشين ٠ فدافع قاسم عن منزلة المرأة المسلمة ، في مواجهة منزلة المرأة الغربية ، ووازن وقارن وضعاً وسلوكاً وقيمة ٠ وانتهى الى آراء سيرفضها نفسه في كتابه الثالث ، والتسويغ الوحيد المقبول لذلك أنه كان في موقف الدفاع عن الذات ٠ فدافع دفاعاً عاطفياً ازاء قضايا غير مقبولة من الوجهة المنطقية أو الواقعية ، لذلك ظلت آراؤه في هذا الكتاب مطموسة في اللغة التي كتب بها حتى ظهرت في الآونة الأخيرة ٠

في كتاب تحرير المرأة الذي ظهر عام ١٨٩٩ بدأت أفكار الاصلاح تسفر عن وجهها ، وهي أفكار لا تخرج عن الاطار العام الذي تحدثنا عنه في محاور القضايا ولكن الشيء اللافت هنا أن الناس ادعوا أنها أفكار الأستاذ الامام جاءت على لسان قاسم ، ومهما يكن من صحة هذا الادعاء فانه يدل على مبلغ الاتفاق حول موقف موحد بالنسبة الى قضية المرأة ، بحيث

يمكن أن ينسب الرأي الواحد الى هذا النهضوي أو ذاك . أما في الكتاب الثالث المرأة الجديدة الذي ظهر عام ١٩٠٠ ـ ١٩٠١ فان قاسم أمين ينفلت من السرب ليتجه في حديثه عن المرأة وجهة أخرى تنقله الى حيز التغريب والفكر الغربي ، وفي هذا الكتاب يقف على النقيض من اطروحاته التي قدمها في كتابيه السابقين فهو يدافع عن الغرب وعن حضارته ، ويعده الأنموذج الأوحد للتمدين والرقي ، و يرى أن الدين ليس كل شيء في هذه الحياة ، وينتهي الى المطالبة بالسفور الكامل للمرأة ويزعم أنه الطريق السديد لادخال المرأة في العصر .

هذا التباين في المواقف ازاء وضع المرأة لا يمكن أن نعده مجرد تطور فالفاصل الزمني بين الكتب قليل وانما يمكن أن نعده مجرد ردود فعل عاشها الرجل ، فالكتاب الأول جاء رد فعل ضد اتهام داركور للاسلام ، والكتاب الثاني جاء رد فعل ضد الوضع القائم الذي آل اليه وضع المرأة ، والكتاب الثالث جاء ردفعل ضد الاتهامات التي كيلت له من المحافظين، ازاء ما طرحه من قضايا نسوية في كتابه الثاني ، ولم يكن رد الفعل هذا لديه سوى التمادي في الدعوة الى التحرير ، واختار لهذا التحرير طريق التغريب وهو عكس ما اختاره في الكتاب الأول .

ثانيا ـ نظرية زين الدين :

حتى ندرك أهمية الكتاب وصدى الفعل أو رد الفعل الذي لاقاه لا بد أن نقف عند المرحلة التي صدر فيها وجو الصراع الفكري الذي كتب فيه عام ١٩٢٨ .

شهدت السنوات الأخيرة من عشرينات القرن في القطرين السوري واللبناني على صفحات الجرائد والمجلات وفي أروقة المقاهي والمؤسسات والمنتديات وحتى في الشارع العام صراعاً بين القديم والجديد انعكس في صورتي صراع بين رمزين من اللباس لباس الرجل وكانت حدود الصراع فيه بين الطربوش والقبعة ولباس المرأة وكانت الحدود فيه بين السفور والحجاب ، وكان من جراء هذا الصراع أن ألفت كتب ونسبت أحاديث قديمة أو جديدة الى الرسول وارتفعت أقوال وأحكام فقهية وصدرت اتهامات مؤلمة عن هذا الطرف أو ذاك ضد السفور أو معه ، فمن الكتب التي صدرت في مصر والشام نجد العناوين الآتية :

السيف البارق في عنق المارق ، تنبيه الغافلات من النساء المتبرجات ، فصل الخطاب في أحكام المرأة ووجوب الحجاب ، فصل الخطاب في تحرير المرأة ورفع الحجاب ، السنة والكتاب في حكم التربية والحجاب ، نزهة الطلاب في تعليم المرأة ورفع الحجاب ، منافع الحجاب ، بيان مشروعية الحجاب ، الدفع المتين في الردعلى قاسم أمين ، الاحتجاب .

ومن الأحاديث التي شاعت على الألسنة نستمع الى مثل هذه الأقوال :

احبسوا النساء في البيوت ، ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء ، المرأة عورة ، النساء حبائل الشيطان ... الخ .

ومن الأحكام الفقهية التي صيغت أو أعيدت صياغتها نعثر على هذه الآراء القاطعة: قلامة ظفر المرأة عورة يحرم النظر اليها ، اذا قرع باب المرأة ينبغي ألا تجيب بصوتها الطبيعي بل تغلظه مخافة الفتنة وذلك بأن تجعل ظهر كفها على فمها وتجيب ... الخ .

ومن الاتهامات التي كيلت ضد السفوريين تصك آذاننا مثل هذه المسبات والشتائم : الحجاب مما امتاز به الانسان على الحيوان ، وخصت به المرأة دون الرجل، ان السفور يجلب الفرقة ويقطع النسل ويجلب العقم ، من قبل السفور ضاع نسبه وتعدى اللئيم على عرضه، ان السفوريين يريدون أن يكونوا كلاباً ، وأن تكون نساؤهم مشاعاً .

في هذا الجو الملبد والمتفجر صدر كتاب نظيرة زين الدين « السفور والحجاب »وعنوانه الفرعي « تحرير المرأة والتجديد الاجتماعي »ليزيد دوائر البلبلة اتساعاً ، فما أن قرىء الكتاب الذي كتبته هي حقاً أو نسب اليها حتى ذاعت الاتهامات .. الكتاب ليس لها وانما صاغته قلم مستشرق في احدى السفارات الأجنبية ، كاتبة الدراسة لا تخرج عن كونها عميلة من عملاء الاستعمار ، ومست الاتهامات العرض والشرف كما مست دين المرأة ، وربما كانت المؤلفة ـ أو المؤلف ـ تتوقع ذلك فبينت في مقدمة كتابها أنها مسلمة سنية ، ورددت الشهادتين غير مرة . وبغض النظر عن كون الكتاب لها أو لغيرها من المتدينين المستنيرين ـ فان البحث يتتبع قضية السفور والحجاب عبر التاريخ ، ويحدد حجج كل فريق ، وينتهي الى ايثار السفور ويأخذ حجته في ذلك من القرآن والعقل ، ويقولها صريحة واضحة « أطالب بتحرير المرأة وبالسفور لأن السفور مقترن بالعلم وبالحرية أما الحجاب فمقترن بالجهل والعبودية » .

من هنا كان رد الفعل العنيف ضد الكتاب لأن كاتبته امرأة مسلمة ولأنه دافع عن السفور من خلال المرجعية التي يتخذها المحافظون سلاحاً لهم وسنداً ، أجل فالقرآن أعطى هؤلاء فرصة للتمسك أو للتأويل فاتخذ كل فريق طريقة في الاجتهاد سندا .

ثالثاً ـ الطاهر الحداد :

يعد الطاهر الحداد في كتابه « امرأتنا بين الشريعة والمجتمع » الذي صدر في تونس عام ١٩٣٠ أفضل من عبر عن فكر النهضة الاصلاحي ازاء قضية المرأة بشكلها المتطور ، وقد أفاد من عدة حالات ساعدته جميعها على أن يكون المعلم الأبرز ، فالرجل نشأ نشأة دينية، تربى وتعلم في جامع الزيتونة ، وعدّ من تلاميذ الأستاذ الامام ومن مريديه ، خاض غمار الحياة على شتى مستوياتها السياسية والاقتصادية والنقابية ، وجاءت أطروحاته في وقت متأخر (بداية الثلاثينات) وقد جعلته هذه الظروف والأحوال التي مر بها أكثر وعياً وأكثر خبرة وأكثر انفتاحاً ، أفاد من كل التجارب السابقة وأطروحاتها ، كما أفاد من وضع أطروحاته على محك الواقع من خلال الممارسة ، فتبين له مدى البون أو البعد بين النظرية وبين التطبيق ، وكان لكل ذلك تأثير وأي تأثير في أطروحات كتابه ومحاوره وقضاياه ، ولعلنا نستبين ذلك في مفهومين كان لهما بالغ الأهمية في عرضه لقضية المرأة ، أولهما مفهوم الاسلام ، وثانيهما مفهوم النص القرآني ، على المستوى الأول ينظر الرجل

الى الاسلام على أنه نظرية للممارسة وليس ممارسة مستمدة من نظرية جاهزة ، الاسلام عنده دليل عمل موجود بالقوة ، وعلى المسلم أن يحوله الى وجود بالفعل ، ولن يكون ذلك الا اذا لبى نداء الواقع ، وبكلمات أقصر وأوضح الاسلام دين الواقع ، ولا بد أن يتطور بتطور هذا الواقع • أما على المستوى الثاني ـ النص ـ فيذهب الى أن تنجيم الوحي في حياة الرسول دليل على أنه ليس نهاية المأمول ، وأنه يمكن أن يطبق منجماً ناسخاً ومنسوخاً في كل زمان ومكان ، ويعني هذا الكلام في نطاق النص أن نوقف بعض الأحكام أو ننسئها أو نعطلها لمصلحة آيات أخرى ، وبكلمات أوضح وأوجز أن تبقى بعض الآيات موجودة في القرآن تلاوة وموقوفة أو منساة حكماً وتطبيقاً ، ثم ان علينا في نطاق النص ـ أخرى ـ أن نفرق بين روح الاسلام وجوهره ، وبين شكلياته الخارجية ، روح الاسلام روح عامة ثابتة أخلاقية ، أما الشكليات أو لنقل الوسائل فأمور متغيرة • ويستعمل الطاهر لذلك مصطلحين هما الأصول والفروع ، ويرى أن الأصول هي القواعد الثابتة أو المبادىء الهادية ، وأن الفروع هي المتغيرات المتحركة التي تتبدل أحكامها والنظرة اليها بتبدل أزمانها ووقائعها •

وحين ننقل هذين المستويين ـ مستوى مفهوم الاسلام ومستوى مفهوم النص الى قضية المرأة تتسع الآفاق وترحب قضاياها • ولا أدل على ذلك من انتهائه الى أن الأحكام الصريحة المتعلقة بالميراث والشهادة والزواج والطلاق ليست من مقتضيات الأصول وانما هي من مقتضيات الفروع ، وبالتالي ليست هي من جوهر الدين ، ومن هذه الزاوية يمكن أن تطبق وفق مقتضيات العصر ، وقد ذهب الى أكثر من ذلك حين رأى أننا لا نجد في نصوص القرآن ما يمنع المرأة من تولي أي عمل في الدولة صغيراً كان أو كبيراً •

هكذا تضحي قضية المرأة عند الحداد جزءاً من الوعي العام ومن القضية الوطنية ، وهدفاً من أهداف المشروع النهضوي الكبير ، وأداة أيضاً من أدوات تحققه ، وبهذين الطرحين المتلازمين وما سبقهما من اجتهادات حول المفهومات تظهر أهمية الحداد ودوره الذي لعبه في عصر النهضة ، عصر التنوير ، من أجل ذلك جعلناه المَعْلَم الأبرز في هذا العصر فيما يتعلق بقضية المرأة •

خامساً ـ ملاحظات على محاور قضية المرأة في فكر عصر النهضة :

يمكن للمرء أن يبدي جملة من الملاحظات حول طبيعة طرح قضايا المرأة في عصر النهضة وآفاق هذا الطرح من خلال النقاط الآتية :

آ ـ عدت قضية المرأة جزءاً من مشروع النهضة الكبير ، ولم تفرز قضية خاصة قائمة بذاتها ، مفصولة عن سياقها التاريخي والاجتماعي • ولئن دل هذا على شيء فانما يدل على مدى الوعي النهضوي من جهة وأهمية قضية المرأة ودورها في هذا الوعي من جهة أخرى • ومن المؤسف أن هذا الوعي سرعان ما انقطع وأصبحت تعرض القضية فيما بعد خارج سياقها •

ب ـ الى جانب هذا الطرح العــام ارتبطت القضية بالمحور الثقافي الفكري للعصر، أكثر من ارتباطها بسائر المحاور ، ويمكن أن نتعرف ذلك اذا وقفنا عند التيارات الثقافية السائدة عصرئذ ومن كان يدافع عن القضيــة ويطرحها ، كان ثمة ثلاثة تيارات اسلامية لكل منها مرجعيتها المعرفية ووجهة نظرها ، تيــار الثقافة السلفية المحافظــة ، وتيار الثقافــة الاصلاحية ، وتيار الثقافة العلمانية ، وهذا الأخير كان له شقان شق تغريبي وشق تراثي ، وقد طرح موضوع المرأة بقوة من قبل التيارين الاصلاحي والعلمــاني ، وعد كلاهمــا حركة تنويرية ، وتبدو أهمية هذا الطرح ، أي ربط قضية المرأة بالاطار الثقافي أو الفكري مهماً ، فحيثما يسود الفكر يسود الانسان ذكراً كان أو أنثى ، وحيثما يسود الشيء اقتصاداً كان أم سلاحاً تتدنى رتبة الانسان ·

جـ ـ من الناحية التراتبية فان الطبقة التي طرحت قضية المــرأة كانت هي الطبقــة البورجوازية الجديدة الناشطة ، وكانت هذه الطبقة قد بدأت تدلف الى المجتمــع وتسوده وتسعى لتفرض عليه مفهوماتها في الاقتصــاد والتنمية والحيــاة ، لذلك نظرت الى المــرأة كجزء من مفهوماتها ومن أطروحاتها ، أي نظرت اليها على أنها آلة أو ترس في دولاب العمل وخدمة اقتصاد السوق ، ولم تنظر اليها من حيث هي غايــة ، وبعبارة أخرى أقــول كانت المرأة موجودة في الخطاب النهضوي مــن حيث هي أداة نفع وغائبة من حيث هي ذات ·

د ـ ظل الخطاب النهضوي على الأغلب وفي طرحه لقضية المرأة على مختلف الصعــد خطاباً ذكرياً يؤكد فيه التمييــز بين الذكــر والأنثى وفق واجبــات ووظــائف الجنســين وطبيعتهما المختلفة على السواء ·

هـ ـ تولى الرجل عــلى الأكثر قيــادة التغيير ولم نر المــرأة تتصدر الحــدث ، حتى كتاب السفور والحجــاب لنظــيرة زين الدين نسب الى رجل تنويري كان الملهم أو الدافــع أو الكاتب ، وهذا يعني أمراً واحداً مؤداه أن المرأة كانت موضوعاً للخطاب النسوي في عصر النهضة ولكنها لم تكن حاضرة في قضاياه ·

و ـ اختزلت قضيــة المــرأة في خطــاب أو انحصرت في نوع واحد هو المرأة الزوجــة أو المرأة الأم ، لذلك ركز الخطاب على العمل والتربية في حدود واجبات البيت، أو في الاطار الذي لا يبعد كثيراً عن هذا البيت ، ومن هنا فان محاور تحرير المرأة كانت محددة ولم يكن في الامكان ـ زماناً ومكاناً ـ أن تمتد القضية الى أبعد من ذلك ·

ز ـ وقع أصحــاب الخطاب النســوي نتيجة للوضع الطبقي البورجوازي ولمحاولــة التوفيق بين الماضــي والحاضــر والتــدابــر بين ما يقولون وما يفعلون في تناقضات كثيرة ليس أقلها حديثهم عن المســاواة الطبيعية بين الذكر والأنثــى في الحقــوق والوجبــات ثم دفاعهم عن قوامة الرجــل ووظائف الأنوثــة وامتيازات الرجــل التي أقرتهــا له ـ فيمــا يرون ـ الطبيعة كما أقرها التاريخ ·

سادساً ــ مقارنات مع أطروحات العصر الحاضر :

لو راح المرء يقارن بين أطروحات قضايا المرأة في فكر عصر النهضة الأول وأطروحاتها في فكر عصر النهضة الثاني ــ الحالي لوجد الكثير من أوجه التغاير في العوامل المؤثرات ، في المناهج والمنطلقات ، في طبيعة الأطروحات ذاتها ، نحاول الآن أن نلم ببعضها ·

ان أول ما يلفت النظر في أرضية المؤثرات والمنطلقات أن مفهوم السجال قد تغير ، لم يعد مطروحاً بين « أنـا » أو « الآخر » سواء أكان هذا الآخـر ماضياً أم غرباً بـل أصبح « أنا » أفيد من « الآخر » في وجهيه ، وبالتالي لم تعد المقابلة تتم بين التراث والواقع والغرب بوصفها أبعاداً متضادة وانما أصبح الواقـع الماثل العياني هو نقطة الانطلاق نحو البعدين الآخرين ليفيد مرة من الزمن ــ التاريخ ومرة من المكان ــ الجغرافية في عملية معقدة كنـا قد أشرنا اليها منذ البداية ويحاول المجتمـع العربي المعاصر أن يبني في ضوئها ذاته جامعاً أو مركباً بكلمة أدق بين الأصالة والمعاصرة ·

وقد ترتب على هذا التحول من سـلطة التراث ــ الماضي أو من سلطة الغرب ــ الحاضر الى سلطة الواقع المعيش عدة أمـور أولهـا أن الاطار الثقافي أو المرجعي لم يعد يكمن في أحدهما بل صار يبدأ من المعرفة الحضاريـة الجديدة المعقدة التي تصبها وتشكلها عـدة مياه وجداول متغايرة ، وثانيهما أن الرؤية فيما يتعلق بالماضي التراثي انتقلت من تأصيل الأصول كما كانت في النهضة الأولى الى نقد الأصول كما هي الحال في النهضة الثانيـة ، أضحى الفكر النقدي يتساءل ويثير ويخترق في هذا التساؤل والاثارة الأصول ذاتها ويدرسها ويمحصها · الأمر الثالث منهج التحليل الذي تلجأ اليه الدراسات · كان المنهج من قبل يلجأ الى تفسـير النص الأول أو تأويله في محاولة للي ّ الواقـع أو للي ّ النص حتـى يتفقـا أو يتوافقا ، الآن صار المنهج يميل الى التفكيك والتشريح في ظل قراءة تحكمها أدوات معرفية مغايرة ·

ولنضرب على هذا التباين بين المنهجين مثالا واحداً نأخذه من قضيتنا المطروحة على بســاط البحث ، أعني قضيـة المرأة ، كـان المفسر النهضوي يتحدث كثيراً عن المساواة بين الذكر والأنثى التي أقامها الاسلام وحين يصل الى آية القوامة **«الرجال قوّامون على النساء»** يصمت أو يقر ، أما المحلل النهضوي الجديد فانه يفكك الآية ليعيـد انتاج مفهـوم النص بشكل آخر فيقول ان القوامة في الآية مشروطة بشرطين أحدهما طبيعي ــ القوة العقلية أو الجسدية ، وثانيهما اكتسابي ــ الانفـاق ــ **(بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا)** ويعلن أن درجة الأفضلية الطبيعية التي كانت للعضلات صارت الآن للعلم وقد تساوى فيها النوعان · كما أن درجة الأفضلية في الانفاق لم تعد تفرق بينهما فقد صارا يشتركان فيه ، وبالتالي فان درجة القوامة لم تعد مطروحة في نطاق شرطيها ، وبذلك تظـل الآية موجـودة تلاوة موقوفة حكماً ، وهو أمر وارد في الاجتهاد منـذ القـديم ·

في ضوء هذا المثال وغيره كثير وفي ضـوء المنطلقات الواقعية والمعرفية وجملة التطورات التي أثرت في الثقافـة والفكر كما أثـرت في المجتمـع والاقتصـاد والسياسة أيضـاً فـان

أطروحات المرأة المعاصرة يمكن حصرها في ثلاث نقاط : **تاكيد ذات المرأة الفردية والجماعية ، حق المرأة في أن يكون لها وضعها الجنسي الانساني ، اعادة صياغة قانون الأحوال الشخصية بما يساير منزلتها وأطروحاتها اليوم** ، ودون الدخول في تفاصيل هذه القضايا والأطروحات نقول ان الخطاب النسوي الثوري المعاصر وقد تولت الدولة الدفاع عن بعض جوانبه كما تولت المرأة ذاتها الدفاع عن جوانبه الأخرى يعاني من أزمة أو أزمات مثل مجتمعه الذي أنتجه ، وتبدو هذه الأزمة ـ الأزمات في القلق والحيرة والنكوص والتناقض والتمزق النفسي والضبابية ، ويعكس ذلك كله وضعاً وصل الى درجة الاختناق ، ما أسباب هذا وعوامله وتأثيراته وطرئق حله؟ ان الاجابة تحتاج الى وقفة أطول ودراسة أعمق نرجو أن نعرضها في مناسبة ثانية ·

□ خاتمة :

على الرغم مما حققته وضع المرأة من تطور سواء في النهضة الأولى أو النهضة الثانية فان قضيتها ما تزال تتعثر ، وعلينا الا نيأس ، فالمشروع النهضوي العربي الكبير هو الآخر ما يزال يتعثر · واذا قسنا نجاح هذا أو ذاك فيما تحقق فلن نجد الكثير أما اذا قسناه بالحلم أو الأمل الذي لم يتحقق فسنجد الكثير، وعلينا معاً ، المرأة والرجل ، وكذلك المجتمع ، أن نناضل في سبيل قضية المرأة حتى تتحقق في أفضل طرح لها ، وعلى المرأة بالذات أن تضحي حتى تدرك قيمة الحق الذي أحرزته فلا تفرط به مهما ادلهمت الظروف والأحوال ·

* * *

المدرسة عند المسلمين

د. منير سعد الدين

يقصد بالمدارس تلك الأماكن التي أسست لنشر نوع خاص من المعرفة ، تحت اشراف الدولة التي تنفق عليها الأموال وتحبس لها الأوقاف ، وتراقب التعليم فيها ، وتعهد لفئة صالحة من الناس وهم المعلمون ليدرسوا المتعلمين ويثقفوهم ، ويختارون حسب لوائح خاصة يضع الواقف فيها شروطه ، وتقدم لهم الجرايات والأرزاق ، ويجاز فيها المتعلمون بما تعلموا من ضروب المعارف النقلية والعقلية ٠

والمدرسة كفكرة ذات هدف معين ونظام خاص تميزت به وسارت عليه ، وكان له في خدمة التعليم الاسلامي العالي دور بارز له مميزاته وخصائصه ٠

أما نشأة المدرسة الاسلامية فيرى ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) ان نظام الملك بنى المدارس والربط والمساجد في البلاد ، وهو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس »(١) ، حيث تعددت مدارسه النظامية في بغداد ، وبلخ ، ونيسابور ، وهراة ، وأصبهان ، والبصرة ، ومرو ، وآمل ، والموصل ٠

لكن الوقائع أثبتت « نشوء مدارس كثيرة قبل مدارس نظام الملك بأكثر من مئة وخمسة وستين عاماً ، وان طائفة كبيرة من هذه المدارس ، تم انشاؤها على أيدي علماء من العرب المشهورين في منطقة خراسان وما وراء النهر ، بل كانوا أول من أنشأ المدارس في نيسابور » ٠(٢)

فهناك مدرسة ابن حيان التميمي أبو حاتم (ت ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م) والذي كانت « داره مدرسة لأصحابه أو مسكناً للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة ولهم جرايات يستنفقونها داره وفيها خزانة كتب » ٠(٣)

ووردت اشارة الى المدرسة الصادرية بدمشق « في رسائل الهمداني وهو المتوفى سنة (٣٩٨ هـ/١٠٠٨ م) وقيل ان الأمير شجاع الدولة صادر بن عبدالله أنشأ هـذه المدرسة في دمشق سنة ٣٩١ هـ/١٠٠١ م) »(٤) ·

وكذلك أوردت بعض المصادر أخباراً حول اقامة مدرسة مشهد أبي حنيفة التي افتتحت في العراق وذلك حين سمع مستوفي المملكة شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي (ت ٤٩٥ هـ/١١٠١ م) بأخبار مشروع نظام الملك ومباشرته بأعمال بناء مدرسته ببغداد ، فسارع بالحضور الى بغداد لانشاء مدرسة مشابهة لها لأتباع المذهب الحنفي ، فاختار أن يكون موقعها بجوار تربة مشهد الامام أبي حنيفة النعمان امام المذهب ، فاشترى ما يحيط بالقبر من أبنية وأرض ، وأمر بهدم مسجد كان بجوار المقبرة فسوى أرضاً فسيحة ، وجاء بالمهندسين والقطاعين · وحفر أساساً لعتبة كبيرة تقام فوق القبر ، وبعد أن تم بناء ذلك عمل بازائها مسجداً جامعاً ومدرسة أنزلها الفقهاء ، ورتب لها مدرساً فدخل أبو جعفر البياضي الى الزيارة فقال ارتجالا :

ألم تر أن العلم كان مضيعا ... فجمعه هذا المغيب في اللحد
كذلك كانت هذه الأرض ميتة ... فانشرها جود العميد أبي سعد(٥)

ولقد حرص مستوفي المملكة على أن يتم افتتاح المدرسة قبل النظامية ، وقد تم له ذلك قبل افتتاح المدرسة النظامية بأربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً ·(٦)

فالمدرسة كانت موجودة قبل النظاميات ، وعرفت في القرن الرابع الهجري ، وانها كانت مكاناً خاصاً بالتدريس غير (المسجد) و (الكتاب) و (دار العلم) و (دار الحكمة) ، ويغلب على ظننا أن المدرسة « كانت فيها غرف يسكنها الطلاب الغرباء ، أو ربما سكن فيها بعض الشيوخ أيضاً ، وان هذه المدارس كانت تتمتع ببعض الأموال تنفق في سبيل الهدف الذي أنشئت من أجله ، وخصوصاً تلك التي بناها بعض الأمراء كمدرسة نصر بن سبكتكين والمدرسة الجليلة التي بنيت لأبي اسحق الاسفرائيني ، وان هذا النوع من المعاهد كان منتشراً في العالم الاسلامي وفي الشرق وبنيسابور بصورة خاصة · أما في مصر والمغرب والأندلس فلم نعثر على نصوص تفيد أن شيئاً من هـذه المعاهد كان موجوداً قبل العصر الأيوبي »(٧).

ومن الممكن أن نعتبر عمل نظام الملك في مدارسه النظامية بأنه كان أول عمل رسمي قامت به الدولة الاسلامية لتنظيم الدراسة ، وتهيئة مستلزماتها وحاجاتها ، وتقديم الرواتب والنفقات للمعلمين والمتعلمين وتبنت تقاليد معينة تتعلق بأنظمة التدريس ، والادارة ، والمسكن ، والمأكل والمشرب ، مما ساعد على الاستقرار والنمو في تلك المدارس ·

ويعتبر نظام الملك أيضاً من أوائل من فطنوا لاستخدام المدارس في تخريج جماعات مسلمة مثقفة ثقافة عالية ، ومزودة بسلاح العلم والايمان معاً ، للوقوف للأخطار التي كانت تهدد الدولة ، وتفسد العقول ، فلم يستعمل السلاح بل أراد أن يقرع الحجة بالحجة ·

ولقد جرت العادة أن تنسب المدرسة الى منشئيها فنقول « المدرسة النظامية نسبة الى الوزير نظام الملك ، والمدرسة المستنصرية نسبة الى الخليفة العباسي المستنصر بالله ، والمدرسة النورية نسبة الى نور الدين محمودزنكي ، أو الموضع الذي أقيمت فيه كمدرسة درب القيار ، ومدرسة سوق العميد ، ومدرسة بين الدربين ، أو تنسب الى عالم تنشأ له المدرسة كمدرسة الجيلي أو القادرية ، أو الى مدرس مشهور كمدرسة ابن الخل »(٨) ٠

ولقد كان للعلماء موقف رافض حذر من تبني الدولة للعلم والاشراف عليه حين قامت المدارس النظامية ، وذلك خوفاً من أن تفرض الأدعياء والدخلاء على التعليم فيفسد ، لذا فانه لما أقام نظام الملك مدارسه ومنها نظامية بغداد والتي خص بها العالم الفقيه ابي اسحق الشيرازي (٤٧٦ هـ ــ ١٠٨٣ م) ، والتي افتتحت في ذي القعدة من العام (٤٥٩هـ ــ ١٠٦٦م) ، « وفرغت عمارتها وتقرر التدريس بها للشيخ أبي اسحق الشيرازي ، اجتمع الناس لحضور الدرس وانتظروا مجيئه تأخرفطلب فلم يوجد »(٩) ٠

ويرى حاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ ــ ١٦٥٦ م) ، صاحب كشف الظنون « ان العلماء والفقهاء كانوا بين آسف ومستنكر رافض ، لأن العالم الفقيه يرى طلب العلم لذاته وليس للاحتراف والتكسب والعيش منه ، ولذلك فان من يتخذ العلم حرفة يخرج من صفوف العلماء لأنه لا يتحلى بأخلاقهم ٠ فلقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد أقاموا مأتم العلم وقالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم واذا صار عليه أجرة تدانى اليه الاخساء وأرباب الكسل فيكون سبباً لارتفاعه ومن ههنا هجرت علوم الحكمة وان كانت شريفة لذاتها »(١٠) ٠

ولم يكن قيام المدرسة وليد نفسها « أو نتاج تأمل مجرد يحدث في فراغ من جانب الكبار ، كما أن برنامجها التربوي لم يتم تلقائياً من ميول الأطفال ونشاطهم وانما المدرسة منظمة اجتماعية أنشئت وتطورت في كل مجتمع نتيجة ما بذله أفراده من جهود لتوجيه حياة الناشئين ومساعدتهم على مواجهة ظروف الحياة في المجتمع وذلك في ضوء ما اختاره هؤلاء الأفراد من قيم وأنظمة ومعارف، ومن ثم تتأثر المدرسة والتربية بصفة عامة ، بأحكام هؤلاء الكبار وطرق اختيارهم ، وهذه الطرق وتلك الأحكام تتأثر بدورها بظروف الزمان والمكان من تاريخ ونظام الحكم ومعرفة وعلم وتقاليد وأدوات وهذا كله وليد عمليات وتنظيمات وعلاقات ومظاهر تعبر عن خبرات أفراد هذا المجتمع على مدى أجيال طويلة »(١١) ٠

ومن هذه المقولة ننطلق للتعرف الى الأسباب والدوافع التي أدت الى ظهور المدرسة عند المسلمين ، حيث تضافرت الأسباب السياسية والدينية والثقافية والتربوية والشخصية في نشوء وظهور المدرسة ٠

فمن الناحية الدينية كان التركيز عند المسلمين على العلم الديني والذي أشار اليه الكثير من السلف ، فهذا معاذ بن جبل (ت ١٨ هـ ــ ٦٣٩ م) يقول « تعلموا العلم فان

تعلمه حسنة ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة »(١٢) • والمقصود بالعلم هنا العلم الديني ، لأن الكثير من العلوم خاصة النافعة منها اعتبرت في رأي ابن خلدون « كالعلوم اللغوية مثلا أو كما يسميها علوم اللسان العربي من لغة ونحو وبيان وأدب ، اعتبر معرفتها ضرورية على أهل الشريعة ، اذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة »(١٣) • ولذلك اتسعت شمولية مدلول العلم ، فاحتوى على كل ما هو نافع ومفيد للمسلمين في شؤون دينهم ودنياهم .

وانطلاقاً من الموقف من العلم والنظرة الدينية الاسلامية اليه ، أقبل الناس على التعلم والتعليم ، « وتعلم الكثير من المعلمين الحرفة ثم العلم وذلك لتعليمه احتساباً لوجه الله تعالى فانسحب هذا الأمر الى المدرسة حيث كانت أخت المسجد ، ويتقرب الناس ببنيانها الى الله ، وكان الأتقياء يطمعون في ثواب الله ، ينشئون المدارس ويوقفون عليها بعض أملاكهم لسد حاجات المدرسين والطلبة ، فقد كان من المألوف أن يأخذوا جراياتهم »(١٤) •

أما الناحية السياسية فقد تكون من دوافع انشاء المدارس كما رأينا ذلك من خلال اقامة الفاطميين والسلاجقة والأيوبيين لمؤسسات التعليم ، حيث أراد كل منهم أن يواجه خصومه من السبيل الذي سلكه وليفسد كل على الآخر خططه ، فجعلوا التربية أحد أسلحتهم لمحاربة واقتلاع آثار الآخرين فالفاطميون والبويهيون مثلوا المذهب الشيعي ، والزنكيون والأيوبيون والسلاجقة مثلوا المذهب السني •

ولقد أدرك الجميع أن القوة والعنف لاتجدي نفعاً فاستخدموا التربية بديلا « للقوة المسلحة والسجن والقتل والتعذيب وغير ذلك من وسائل كان البعض ــ خلافاً لجوهر الاسلام وروحه ــ قد بدأ يستخدمها لقهر أفكار الخصوم ومبادئهم لا تجدي وانما لا بد أن تحارب الفكرة بالفكرة والرأي بالرأي ، وفي هذا مكسب كبير وعودة حميدة الى أصول الاسلام »(١٥) •

ولذلك فلا ينكر خدمة التربية للسياسة بما فيها المدارس، ولم يمض ذلك بدون مؤازرة العلماء ومعاونتهم للسلطة ، فالكل كانوا يعملون لنصرة المذهب الذي كانوا يدينون به • ولذلك عهد بمناصب التدريس في المدارس الى علماء أفذاذ أصحاب مقدرة علمية عالية ومكانة فكرية واجتماعية رفيعة ، وهم أناس واعون لمسؤولياتهم ومحافظون على مراكزهم الروحية والقيادية بين الناس ، حتى يستطيعوا التأثير على العامة ، وحتى يتمكنوا من تخريج رجال سلاحهم العلم والايمان للوقوف في وجه الأخطار المختلفة التي تهدد الدولة • وهنا لا بد من الاشارة الى أن بعض العلماء لم يرضوا أن يسيروا في ركاب السلاطين ويصبحوا من عداد علماء السلاطين ، فخالفوهم عندما اصطدمت قراراتهم بأحكام الشريعة وعزل منهم الكثيرون وتركوا مدارس السلطة ، تمسكاً برأيهم وعقيدتهم •

ولا يمكن أن ننسى الدوافع الثقافية التي كانت عند الخليفة أو السلطان أو الأمير أو الوزير أو الوالي ، أو العالم ، فقد يجمع الكثير منهم ثقافة عالية مع رغبة شديدة في نشر العلم ، وأكبر الأمثلة الخلفاء المسلمون الذين ضربوا أروع الأمثلة في احتضان العلم

وحملة لوائه ٠ وكذلك رجال السلطة من سلاطين وأمراء ووزراء أمثال نور الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي ، ونظام الملك ، الذين نرى من خلال تراجم حياتهم مدى معرفتهم العلمية الواسعة ورغبتهم الشديدة في نشر العلم بين الناس عن طريق المساجد والمدارس وغيرها من وسائط التعليم ٠

وكذلك لا ننسى دور المدرسة في امداد أجهزة الدولة بالعاملين في الجهاز الاداري والتعليمي ، لأننا « لا نستطيع أن نتصور أن الجهاز الاداري الحاكم بعد أربعة قرون من ظهور الاسلام قد ظل على بساطته ، فالنموسنة من السنن الكونية نجدها في نظم الحكومة أيضاً كما نجدها في الكائنات الحية ، فالأعمال لا بد وأن تكون قد زادت وتعددت ، والوظائف المختلفة لا بد أن تكون قد تشعبت وكثرت ، والأعمال لا بد وأن تكون قد تضخمت وتعقدت مما برزت معه الحاجة لأن يؤخذ العاملون في عدد غير قليل من الأعمال الحكومية من بين خريجي المدارس فالمؤسسات والمعاهد التربوية الأخرى كانت تؤدي دوراً مماثلا نظراً لنسبية تعقد الأعمال المطلوبة ، وكذلك لا بد ألا ننسى أن عديداً من الأعمال الأخرى ظلت تؤدى كما كانت من قبل ، أي بغير حاجة لأن يكون ممارسها متعلماً في مدرسة ، أو في غيرها ، ولم يجد القوم غضاضة في ذلك ، اذ لم تزل (الخبرة) أو (الممارسة) المصدر الأساسي لاعداد العاملين لكثير من الوظائف والمهام »(١٦) ٠

ولقد قال الشيخ أبو اسحاق الشيرازي (٤٧٦ هـ ـ ١٠٨٣ م) وهو الفقيه العالم المعلم : « خرجت الى خراسان فما بلغت بلدة ولا قرية الا وكان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابي »(١٧) ٠

أما الدوافع الشخصية في ظهور المدارس وبخاصة وأن المدارس تتعلق ببشر ، فقد تسابق الناس في المجتمع في العصر العباسي على بناء المدارس حيث شارك فيها السلاطين والملوك والأمراء والوزراء والولاة ومستخدمو الدولة وأثرياء المعلمين وأغنياء التجار ، وسيدات الأسر الحاكمة من زنكية وأيوبية ، والخدم والعتقاء ، كل هؤلاء انطلقوا في عملهم هذا من دوافع دينية في الأساس ولكن وراءها دوافع سياسية وشخصية يتحرك من خلالها بشر تحت وقع عوامل نفسية اجتماعية ، فلقد وجدت هذه العناصر أن المساهمة في المشاريع الخيرية والتي منها المدارس اشباع لحاجات التقدير الاجتماعي وارضاء للذات ، من ذلك تواجد الأعداد الغفيرة من كبار رجال الدولة وعلمائها الذين يشاركون في حفل افتتاح المدرسة ، مما يدعو الى ازدياد التقدير لمنشئها ، وبخاصة عندما تبدأ المدرسة عملها ، وتضم في بنائها الضخم علماء معلمين عظماء هم المقصد والطلب لأن المدرسة بالدرجة الأولى أستاذ ، ويشعر صاحبها بارتفاع قيمته مما يناله من تقدير واحترام المجتمع له ، ومن كثرة المتعلمين الوافدين اليها ، ومايسمعونه من اطراء وتقدير من الشعراء والخطباء الذين يشيدون بمن لهم اليد الطولى في انشائها ٠

أما تنظيم المدرسة ، فقد لوحظ تغلغل روح الاسلام في كل مظهر من مظاهر تنظيمها ، فمن الناحية المعمارية اضطلعت المدرسة برسالة المسجد من اقامة الصلاة في أوقاتها الخمسة الى جانب صلاة الجمعة ، وكانت مركزاً لاصدار الفتاوى ، وتفقيه الناس والقيام بالوعظ

والارشاد ، مما دفع القائمين على تنيظمها أن يصمموا بناءها بالشكل الذي يتناسب مع اداء هذه الوظائف ٠

فلقد روعي في تخطيط « بيوت الصلاة أن تمتد بموازاة جدار القبلة أكثر من امتدادها في اتجاهه ، ثم هناك البهو المكشوف، وبيوت الطلبة التابعة للقسم الداخلي من المدرسة ، والقاعات الفسيحة التي تتسع لعددكبير من الطلبة المتشوقين للعلم ، وكانت مساحتها تتناسب مع الغرض الذي أعدت لـه كخزانات الكتب ، أو قاعات لتذكير الدروس وتناول الطعام وجلوس المدرسين والنظار والمشرفين والكتبة »(١٨) ٠

أما تمويل المدارس فقد لعبت الأوقاف دوراً كبيراً في تغذيتها حتى انتشرت بشكل واسع ، وبرزت في تنظيم الوقف وثائق خاصة به حتى أنه يمكننا القول أن وثيقة الوقف أو كتاب الوقف كان أشبه ما يكون باللائحة الأساسية للمؤسسة التعليمية أو النظام الداخلي للمدارس ، ويتضمن الشروط الواجب توفرها في القائمين بالتدريس ومواعيد الدراسة ، وغيرها من التنظيمات الادارية والمالية ٠

فالأوقاف كانت المورد الرئيسي للصرف على المدارس وباقي المؤسسات العلمية ، واستمرارها في أداء رسالتها كان مرهوناً بما تغله هذه الأوقاف والتي تستخدم في مصاريف المؤسسة التعليمية ودفع مرتبات الموظفين ،وتحتاج هذه الأوقاف لتبقى معطاءة لما خصصت له أن يحسن الاشراف عليها وتسودها الأمانة ،لأنها اذا صودرت أو خربت وأصبح الوارد من الوقف غير كاف لدفع مصاريفها ، فيكون ذلك بداية لتدهور هذه المؤسسة وتوقفها عن عملها ٠

فمن خلال دراسة أوقاف المدرسة المستنصرية مثلا والتي « كانت منوطة بالمسؤول عن أوقاف المدرسة المدعو صدر الوقوف ويبدو أنه لم يحسن استعمالها بالأمانة المطلوبة حيث نجد أن أوقاف المدرسة بمرور الزمن صارت تتقلص وذلك انما يدل على استحواذ أولئك الموظفين والمستولين على تلك الوقوف وكان ذلك من أكبر الأسباب التي أدت الى انهيار المدرسة ثقافياً كما أدت الى ترك طلاب العلم لها بعد أن أضحت فقيرة الأوقاف ، فلم يعد بمقدور الطالب الاستمرار على التعليم والنفقة فيها نتيجة النقص في مخصصات الطلاب أو عدمها ٠ »(١٩)

ويحاول أحد الباحثين حصر مصادر الأموال الخاصة بالتعليم عند المسلمين بالنواحي الآتية(٢٠) :

١ ــ عطاءات الخلفاء والحكام ٠
٢ ــ الأجور الخاصة التي يتم الاتفاق عليها بين الأساتذة والطلاب ٠
٣ ــ الأوقاف ٠
٤ ــ الهبات والاعانات والصدقات ٠
٥ ــ الزكاة الشرعية ٠

أما ادارة التعليم وتمويله والمدرسة جزءمنهـا فتنطلـق من أن التربيـة في الاسـلام مسؤولية فردية اجتماعية ، ومعنى ذلـك أنادارة التعليم وتمويله في الاسلام يجمع بـين مميزات كل من النظامين المتناقضـين في ادارةالتعليم ، وهمـا النظـام المركزي والنظـام اللامركزي ، الا أن الكل فيه مسؤول مسؤوليةدينية عن التعليم ، فكل من لديه شيء يعطيه يجب عليه أن يعطيه والا اعتبر مقصراً في حق من حقوق الله عليه ، وتتدخل الدولة في الاسلام في التعليم بوصفها ممثلا للجماعة الاسلامية ،عندمـا تحس قصـوراً في بعـض المجـالات والجهـات ، لازالة أسـباب ذلك القصـور ،حفاظاً على سلامة الجماعة الاسلامية وقوتها ، وهنا يكون تدخلهـا تدخل عـون ومساعـدةلا تدخل فرض وسيطرة • »(٢١) •

ولا بد لنا أن نعلم أن ادارة المدرسة سواء كـانت منشـأة دولة أو منشـأة أفـراد ، لا تتدخل في شؤون هيئة التدريس ، ووظيفتها تنظيم الشؤون الادارية والاشراف على شؤون الطلاب من خلال المساكـن الداخلية وتأمـين حاجاتهم ، والجرايات الخاصة بالموظفين •

ولقد تعددت العناصر المشرفة على المدرسة من مدرسين ومعيدين ونظام، وكتبة تنحصر مسؤولياتهم في تحرير الرسائل وتنظيم السجلات الاداريـة ، وقيمـين مهمتهم القيـام على حراسة المدرسة وحفظ مفاتيح أبوابها ، ونفاطـين يزودون مصابيـح الطـلاب بالنفـط وينفطون مصابيح المدرسة وغرف الفقهاء(٢٢) ،والمزملاتيةالذين يشرفون علىمزملة المدرسة، فيقومون بتسبيل المـاء على من يحضرون الى المدرسة ويطوفون به على المتصدرين والطلبة في أوقات الدراسة ، والمباشرون الذين يهتمون بعمل حسابات الوقف وضبطه واستلام المتحصل من الجباة على الوجه الذي حـدده الواقف ، والجباة الذين يقومون بجباية ريع الأوقاف . والصيارفة الذيـن يتولون صرف مستحقـات الموظفين ، والشاوية ، وهذه الوظيفة متعددة الجوانب اذ أن صاحبهـا يعتبر مشرفاً عامـاً على الأقسام الثلاثة اذ انه يقوم بالاشراف على العمارة وصيانتها ، والاشراف على العمـال الفنيين والمعاونة في جباية ريع الأوقاف وعمل مصالحها ، ثم انه يقوم بالاشراف والتفتيش على أرباب وظائف الخدمات بالمدرسة وحثهم على العمل ، وكتاب الغيبية الذين يقومـون بكتابة أسماء المتخلفين عن الحضور للمدرسة من سائر الموظفين •

وهناك وظائف فنية مهمة أصحابها القيام بالمحافظة على مبنى المدرسـة وصيانتـه ، وصيانة ما يخصها من الأوقـاف وعلى رأس هذه الوظائف : المعمـار ، المرخم ، السباك ، النجار ، وهناك وظائف خدمات كالطباخين ، والفراشـين ، والبـوابـين(٢٣) ، والمزينـين والمؤذنين ، وخـزان الكتب ، ومناولوهـا ، والطبيب الذي يهتم بالرعاية الصحية لأسـرة المدرسة ، وكل هذا يشـير الى عامل مميـز للمدرسة الاسلامية عن المدرسة الحديثة حيث يتبين مدى الاهتمام بأعضاء أسرة المدرسة •

ولقد تميز العصر العباسي بانتشار كبير للمدارس والمؤسسات الثقافية التربوية الأخرى، وأدى ذلك الى كثرة اعداد الطلبة ، وبالتالي كثرة العلماء المعلمين ، وتبع ذلك قيام حركة علمية نشطة كان الفضل الكبير فيها للقائمين على التدريس فأصبحت فئة العلماء المعلمين

ذات وزن ومكانة كبيرة في المجتمع آنذاك ، وشاركت في ميادين وأنشطة متعددة المناحي السياسية والاجتماعية والثقافية والتعليمية .

وقام المعلمون بتدريس مختلف العلوم حسب ما يعينه الواقف للمدرسة ، وغلب على هذه العلوم الطابع الديني ، وكان الواقف سواء كان من الحكام أو من عامة الشعب يختار المعلمين ضمن مواصفات وخصال ينبغي أن تتوافر بهم ، فهم ممن « اتصفوا بالديانة والورع والتقوى ، والأهلية بحيث لا ينتصب المدرس للتدريس اذا لم يكن أهلا له ولا يذكر الدرس من علم لا يعرفه سواء شرطه الواقف أم لم يشرطه فان ذلك لعب في الدين وازدراء بين الناس »(٢٤) .

وتميز في المدرسة عدد من المناصب التدريسية الشهيرة منها :

١ ـ **مدرسون للفقه على عدد المذاهب بالمدرسة ، « فقد كان مجموع عدد طلبة المدرسة المستنصرية (٢٤٨) طالباً أو فقيهاً بمدرسة الفقه المستنصرية »(٢٥) وكان « لكل طائفة من الطوائف الأربع مدرس . »(٢٦) أي للحنفية والشافعية والحنابلة والمالكية .**

٢ ـ **معيدون لاعادة الدروس يختلف عددهم وفق وصية الواقف » وقد بلغ عددهم (١٦) معيداً في المدرسة المستنصرية ، وفي مدرسة السلطان حسن (١٢) معيداً ينتخبون من الطلبة أنفسهم » .(٢٧)**

ولقد حدد ابن جماعة مواصفات ومهام المعيد « بأن يكون من صلحاء الفضلاء وفضلاء الصلحاء صبوراً على اختلاف الطلبة حريصاً على فائدتهم وانتفاعهم به قائماً على وظيفة أشغالهم » .(٢٨) ومن أعماله في المدرسة أن« يقدم أشغال أهلها على غيرهم في الوقت المعتاد والمشروط وان كان يتناول معلوم الاعادة لأنه معين عليه ما دام معيداً ، أو اشغال غيرهم نفل أو فرض كفاية وأن يعلم المدرس أو الناظر بمن يرجى فلاحه ليزاد ما يستعين به ويشرح صدره وأن يطالبهم بعرض محفوظاتهم ان لم يعين لذلك غيره ، ويعيد لهم ما توقف فهمه عليهم من دروس المدرس ولهذا يسمى معيداً ، واذا شرط الواقف استعراض المحفوظ كل شهر أو كل فصل على الجميع خفف قدر العرض على من له أهلية البحث والفكر والمطالعة والمناظرة لأن الجمود على النفس المسطور يشغل عن الفكر الذي هو أم التحصيل والتفقه ، وأما المبتدئون فيطالب كل منهم على ما يليق بحاله وذهنه » .(٢٩)

وذكر السبكي « ان المعيد عليه قدر زائد على سماع الدرس : من تفهيم بعض الطلبة ، ونفعهم ، وعمل ما يقتضيه لفظ الاعادة »(٣٠).

ومعنى ذلك أن المعيد يبدأ عمله بعد انتهاء الشيخ من درسه ، فيشرح النقاط الغامضة من الدرس ، ويساعد محدودي الذكاء من الطلاب في شرح ما صعب عليهم فهمه .

وكان المعلمون في المدارس مختلفي الاختصاصات ، يدرسون ، الفقه ، وعلوم الحديث وأصوله ، ومنهم شيوخ مقرئون ، ومعلمو العلوم اللغوية العربية ، والأطباء وغيرهم ٠

أما تعيين المعلم فكان يتم ضمن أنظمة وأعراف وأصول واحتفالات ، وامتحانات جماهيرية قاسية في كثير من الأحيان ، تقرر استمراره في العمل أو عدمه ، ويتم التعيين بعد صدور (توقيع) يشبه الارادة الملكية أو المرسوم الجمهوري في أيامنا هذه ، هذا اذا كانت المدرسة تشرف عليها الدولة ، أما اذا كانت المدرسة وقفاً فكان الاجراء المألوف في التعيين أن يختار الواقف مدرساً مشهوراً ليحتل الكرسي الذي يقفه عند انشاء المدرسة، ويوجهه في هذا الاختيار المذهب الفقهي الذي من أجله وقف تلك المدرسة ٠

ولقد كان الاجراء المألوف « أن يختار المدرس المعين من بين طلبته من يخلفه بعد وفاته ، وأولاهم بذلك أحسنهم مخايل ، وفي العادة يعمل الطالب المرشح معيداً عند أستاذه، وفي حالات عديدة يكون الخليفة ابن المدرس الذي درس على أبيه ، أو قد يكون الخليفة أيضاً زميلا للمدرس في أيام الطلب أحرز شهرة ومثل هذا يحدث ان كان تلامذة المدرس صغاراً لا يتسنى اختيار أحدهم ٠ فاذا لم يصرح المدرس المعين باسم من يخلفه كان من المحتمل أن يتولى المنصب أكثر فقهاء المذهب (قدمية) باتفاق أهل المذهب وتكون هذه (القدمية) حسب السياق الذي قررناه فيقدم الطالب ــ الابن ــ ان كانت سنه تسعفه على التدريس ، يليه أنجب التلامذة وأحسنهم مخايل يليه زميل أيام الطلب ، أي الذي شارك المدرس المعني الاختلاف الى أستاذ ما ٠ »(٣١)

ويبدو أن الأستاذ المعين كان يمضي بقية حياته في منصبه ، « فاذا لم يتم ذلك كما كانت الحال في النظامية فهو مرده الى تصارع قوى خارجة عن تلك القوى التي كانت تنظم مؤسسات العلم عامة في الأحوال العادية ٠ وهاهنا نقطة التباين الدقيق بين النظامية وسائر المؤسسات العلمية ببغداد فان تعيين المدرسين وخلفائهم في كرسي تلك المؤسسة كان يختلف ــ لخضوعه للعوامل السياسية ــ عن الاجراءات المتبعة في المؤسسات المعاصرة، ونكاد لانستطيع أن نتحدث عن مدة بقاء المدرس في المنصب مثلما نتحدث عنه في المؤسسات الأخرى »٠(٣٢)

ولقد تألفت المدرسة من أقسام علمية متخصصة لها أساتذتها وطلابها ، فهذه المدرسة المستنصرية على سبيل المثال تألفت من أقسام أو معاهد علمية منها مدرسة الفقه ، ودار القرآن ، ودار الحديث ، وأقسام العربية ، والرياضيات والعلوم الأخرى ، ومعهد الطب الذي كانت تدرس فيه العلوم الطبية في بناء خاص به ٠

ولعل أهم هذه الأقسام في المستنصرية مدرسة الفقه لأن الغرض الرئيسي للمدرسة الاسلامية كان تدريس الفقه وفق واحد أو أكثر من المذاهب الفقهية السنية الأربعة ، حيث ينقطع الطلاب للدرس ويتفرغ المعلمون للعمل ، وترتب لهم الجرايات والأجور الثابتة ٠

أما المكتبة فقل أن تخلو منها مدرسة من المدارس الاسلامية التي انتشرت في العراق والشام ومصر وخراسان ، التي زودت بالكتب التي تختلف كثرة أو قلة تبعاً لمكانة المدرسة وللأوقاف المرصودة لها ٠

ولا يخفى على أحد أهمية المكتبة في تحصيل العلم والمعرفة فهي« أداة تربوية حية، لخدمة النشء »(٣٣) ، « وأصبحت جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه في كل مدرسة »(٣٤) ٠

ولما كانت المكتبات من الأمور التي تساعد على الدروس والبحث لذلك أكثر مؤسسو المدارس من ايقاف الكتب عليها ، وأعدوا لها البناء المناسب ، وأقاموا العناصر البشرية المشرفة عليها من خزان ومشرفين ونظار ومناولين ٠ وكثرة الخزائن ودور الكتب مؤشر هام على تلك المكانة التي تمتع بها الكتاب في ذلك العصر ، وعلى مدى عناية المسلمين بالعلم ورعاية العلماء والمتعلمين ٠

ولقد تنافس العلماء في اهداء كتبهم أو وقفها على مكتبات المدارس ، فهذا عبد السلام أبو يوسف القزويني المعتزلي المفسر (ت ٤٨٨ هـ ـ ١٠٩٥ م) « يهدي نظام الملك أربعة أشياء لم يكن لأحد مثلها غريب الحديث لابراهيم الحربي بخط أبي عمر بن حيويه في عشرة مجلدات فوقفه نظام الملك بدار الكتب ببغداد»(٣٥) ٠

ونقل الى خزانة كتب المدرسة المستنصرية في يوم تكامل بنائها « من الربعات الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ما حمله مائة وستون جملا وجعلت في خزانة الكتب »(٣٦) ٠

أما الأقسام الداخلية في المدارس فقد أعدت المدارس لتكون مكاناً للدراسة ولمبيت الطلبة والمعلمين ومن يقوم بخدمتهم ، بالاضافة الى ما توفر لهم من طعام واغتسال وطبابة ، ومخصصات تسمى المعاليم ، وقد هدف كل هذا الى تشجيع الطلبة على التفرغ للعبادة والبحث العلمي حتى لا تشغلهم مشاكل الحياة وأعباؤها الكثيرة ، وقد انتشرت هذه الأقسام الداخلية في الكثير من مدارس مصر والشام والعراق وبحيث أصبحت مرفقاً من مرافقها الهامة ٠

وكنتيجة لانتشار هذه الأقسام الداخلية في المدارس وجدنا فقيهاً ومربياً مثل ابن جماعة يضع آداباً وأخلاقيات لساكني المدارس يفصلها في كتابه (تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم) ، فيحدد للمتعلم الصورة التي تقوم عليها علاقاته مع زملائه ، وجيران المدرسة ، وصيانة المبنى والمحافظة عليه وعلى تجهيزاته ، « وينطلق المسلمون في كل هذا من اعتبار المباني المدرسية ملكاً عاماً لصالح الجماعة الاسلامية ولا يجوز لأحد أن يتصرف فيها كما لو كانت من أملاكه الخاصة ، ويتضح من تلك القواعد طابع المغالاة في المحافظة على مباني تلك المدارس مما يعكس بدوره رغبة المعاصرين في بقاء تلك المدارس أطول فترة ممكنة باعتبارها مرافق عامة تخدم المجتمع ككل »(٣٧) ٠

أما المعدات المدرسية فيبدو أن الطلبة كانوا يجلسون على الحصر ، وعلى شكل حلقة ، ويملي عليهم الأستاذ المعلومات ، فينسخ الطلاب ذلك ·

ولم تكن هناك قواعد عامة لقبول الطلاب بالمدارس ولذلك لم تحدد سن معينة ليلتحق الطلاب بالمدرسة ، أو يحدد مستوى علمي معين ، فالمدارس مفتوحة الأبواب للجميع ، والطالب حر في اختيار نوع الدراسة والمدرس ، شريطة أن تكون لديه القدرات والاستعدادات والميل والرغبة لما يتعلمه ·

ويحاول الواقفون تحديد أعداد الطلبة في مدارسهم انطلاقاً من مدخول الوقف على المدرسة ، وفي حدود الامكانات المتاحة ، ولذلك اختلفت هذه الأعداد من مدرسة الى أخرى بحسب الوارد من الوقف كثرة أو قلة ليصرف عليها ، واذا جمعت المدرسة أكثر من مذهب فغالباً ما كان الواقف يزيد في عدد طلبة المذهب الذي يتبعه · وتتم هذه الزيادة وفقاً لميوله الشخصية ، ولم تقتصر فقط على العدد بل تعدته الى المعلوم الذي يتقاضاه الطالب ·

ولقد اعتنى الكثير من المربين المسلمين بأخلاقيات الطلبة ، وشغل هذا الموضوع في الكتب والمباحث الاسلامية حيزاً كبيراً ، فوضعت الآداب التي على الطالب أن يلتزم بها مع نفسه ، ومع شيخه ، وفي مجلس درسه ، ومع رفاقه من الطلاب ، وشجع طلبة العلم على بذل الجهد والتضحية في تحصيل العلم ، فتجشموا مشاق السفر ، وتعرضوا لألوان من التعب الجسماني والنفساني خاصة لجهة الرحلات التي قاموا بها الى العلماء المشاهير والى مراكز العلم الاسلامية في مختلف البلدان ·

واشترطوا في المتعلم بشكل عام أن يكون صاحب سيرة شخصية ملائمة للعلم الذي يحمله ، وتقوم علاقاته مع معلميه على أساس من المحبة والاحترام والثقة المتبادلة ، فلا يرفع صوته في مجلسه ، ولا يجلس بين يديه جلسة تنافي الآداب والأخلاق ، وأن يتعامل مع رفاقه بالحسنى فلا يؤذيهم قولا وفعلا ، وغير ذلك من الأخلاقيات التي طلب من المتعلم التحلي بها·

وكذلك استفاد طلبة العلم من تلك المبادىء السامية التي نادى بها الاسلام ، من مبدأ المساواة وتكافؤ الفرص في التعليم للجميع ، ومبدأ مجانية التعليم حيث فتحت أبواب المؤسسات التعليمية للغني والفقير على حد سواء ، فمتى كان المتعلم أهلا للتعلم وراغباً ومحباً للعلم والبحث والاطلاع تيسرت له وسائل التعلم وفتحت أبوابه أمامه ، ولقي التشجيع من الجميع ·

ولا ريب أننا من خلال دراستنا تراجم الكثير من العلماء في هذا العصر نرى أنهم خرجوا في الأساس من بيوت فقيرة ، فكان هذا مؤشراً الى أن فرصة الطالب الفقير لتلقي العلم كانت أدق وأوضح وأشمل ، وقد خرج بين الأسر الفقيرة طلبة نابهون نابغون في العلم والمعرفة ، استفادوا مما أمنته لهم المدارس من حق العلم للجميع ، ومجانية التعليم ، والمرتبات المنظمة ، والسكن اللائق من خلال الأقسام الداخلية في المدارس ، كل ذلك أتاح لطالب العلم فرصة تلقي العلم في أجواء مريحة نقية للتعلم من نفسية واجتماعية واقتصادية ، وهو ما تدعو اليه التربية الحديثة ·

ولقد بلغ عدد الذين كانوا « يغذون بالعلم في نظامية بغداد (٦٠٠٠) تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصناع فيها ، وكلهم يتعلمون بالمجان وللطالب الفقير فوق ذلك معلوم يتقاضاه مع الريع المخصص لذلك »(٣٨) ٠

ولذا فان المدرسة النظامية ببغداد غدت ملتقى لطلاب العلم فقيرهم وغنيهم ، وأصبحت منارة لخدمة العلم والعلماء ، واشتهرت بمكانتها العلمية وبما تقدمه من خدمات لروادها والعاملين فيها « فقد خصص منشئها وظائف وجرايات لكل من أقام فيها من طلبة العلم ، وقام بمؤونة أطعمتهم وملابسهم وفرشهم وسرجهم وغير ذلك من ضروريات المعاش »(٣٩) ٠

ولقد أولى المربون المسلمون « المكافآت والجوائز الأدبية والمادية اهتمامهم حيث كانت منتشرة جداً وتقدم للتلميذ المتفوق ، وكثيراً ما كان مؤسسو المدارس يجعلون لها حصيلة خاصة في أوقافهم على المدارس »(٤٠) ٠

ويذكر المقريزي أن الخليفة الفاطمي الظاهر (٤٢٧ هـ ــ ١٠٣٥ م) « أمر الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب دعائم الاسلام ومختصر الوزير ، وجعل لمن حفظ ذلك مالاً »(٤١) ٠

وكان الملك المعظم « قد جعل لمن يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار ، ولمن يحفظ الجامع الكبير مائتي دينار ، ولمن يحفظ الايضاح ثلاثين ديناراً سوى الخلع »(٤٢) ٠

أما مواعيد الدروس وأوقاتها فقد ارتبطت بمواعيد الصلاة فتكون قبل أو بعد الصلاة ، كصلاة الفجر أو العصر ، ومواعيد دروس الحديث نظمت في كل يوم سبت واثنين وخميس من كل أسبوع ، ويلاحظ أنها مرتبة ترتيباً تربوياً جيداً بحيث يكون للطالب وقت للتحضير ولا يحصل له الملل من تعاقب الموضوع الواحد يوماً بعد يوم كما يكون لدى الطالب الوقت الكافي للدراسة أي موضوع اخر قد تحلوله دراسته ٠

أما المدة الزمنية للدرس « فما اعتقد أنه لم يحدد ، وترك مجاله للأستاذ ، وعلى الأستاذ أن يقدر الوقت الكافي للموضوع الواحد أوللدرس الواحد فقد يجلس للدرس ساعة أو ساعتين ، فقد كان الشيخ أبو الفرج عبدالرحمن المعروف بابن وريده البغدادي المحدث شيخاً بدار الحديث وكان يطيل الجلوس مع طلاب العلم ولا يضجر ، كما أن الشيخ عبدالله بن محمد أبي بكر الزريراني ت ٧٢٩ هـ كان يورد دروساً مطولة فصيحة منقحة »(٤٣) ٠

أما الاجازات والعطل المدرسية فقد اختلفت من مدرسة الى أخرى فكان بعضها في شهر شعبان وشهر رمضان وعشر شوال وعشر ذي الحجة والتشريق ويوم تاسوعا وعاشورا من كل سنة ، وكانت هناك اجازات عارضة يسمح فيها للطلبة والمعلمين بالغياب عن المدرسة في حالات المطر الشديد والبرد القارص ٠

أما المنهج المدرسي فقد كان قائماً على « تلقي العلوم الدينية واللغوية وتشمل القرآن والحديث وعلومه ومصطلحاته ، أصول الفقه الشافعي ، علم الكلام الأشعري ٠ الفرائض ، اللغة العربية وعلومها »(٤٤) ٠ وقد بدت هذه المقررات بوضوح في المدارس النظامية ٠

هذا ولم تخل مواد الدراسة في بعض المدارس « من العلوم العقلية كعلم الطب ، وعلم العدد (الحساب) ، والجبر والمقابلة ، وعلم الهندسة ، وعلم الهيئة ، وعلم الميقات ، وعلم الطبيعيات · وهناك علوم أخرى كان انتشارها على نطاق ضيق نبغ فيها أشخاص معدودون ربما تلقوها على يد أفراد متخصصين من هذه العلوم : علم الموسيقى والفلسفة والجدل والمنطق وعلم التاريخ »(٤٥) ·

ولقد تضمن المنهاج في المدرسة المستنصرية مقررات في العلوم النقلية والعقلية ، يقول الاربلي (ت ٦٩٢ هـ/١٢٩٢ م) « كانت المستنصرية كعبة الأنام وقبة الاسلام مجمع سائر الدين ومذاهب المسلمين وعلم الأصول والفروع المتفرق فيها والمجموع وعلم القوافي وأحاديث الرسول ومعرفة الحلال والحرام وقسمة الفرائض والتركات وعلم الحساب والمساحات وعلم الطب ومنافع الحيوان وحفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان »(٤٦) ·

أما طرائق التدريس وأساليبه فقد تنوعت في المدرسة الاسلامية وحققت نتائج تربوية هامة « انعكست آثارها على جيل المسلمين الأول ، وبدت آثارها في تفوق وتقدم المجتمع المسلم في عصور الحضارة الزاهرة ، وكانت آثارها قوية في المجتمعات التي أخذت بها ، وقد سلك المربي الرسول ﷺ طرائق عدة في تربية الانسان المسلم ، طرائق تراعي الفروق الفردية بين المتعلمين وتحترم طاقاتهم ومواهبهم وتعمل على تنميتها »(٤٧) · وعلى هذا المنهج سار المربون المسلمون بعده عليه الصلاة والسلام ·

وترجع طرائق التعليم في المدرسة الاسلامية الى « أسلوبين أساسيين وهما التعليم والتعلم ، فالشرح والالقاء والاملاء والمحاضرة كلها وسائط تمكن المعلم من اعطاء معلوماته وايصال أفكاره للتلميذ فهي طعام مهضوم يوضع في فم الطالب كأنه طفل · وأما الأسلوب الثاني ـ أسلوب المناظرة والمناقشة والمطارحة والسؤال والجواب والأخذ والرد ـ فهو واسطة تمكن الطالب من التعلم والتفكير والاستنتاج والنمو ، ويظهر أن العرب استعملوا كلا الطريقتين في التعليم ، فمنهم من استعمل الاثنين ومنهم من اكتفى بالأول »(٤٨) ·

لم تعش المدرسة الاسلامية في جزيرة منعزلة لا تربطها بما حولها من بيئات مادية واجتماعية أي رابط وانما اهتمت بما يجري في هذه البيئات فكان لعلمائها وطلابها دور كبير في الريادة الاجتماعية في البيئة ، فقد استخدمت كمراكز يجلس فيها القضاة لاصدار الأحكام وحتى السكن فيها ، يقول ابن بطوطة « كان للمالكية بدمشق ثلاث مراتب احداها الصمصامية ، وبها سكن قاضي القضاة المالكي وقصدوه للأحكام »(٤٩) ·

وعندما انتقل الوزير ابن هبيرة « من الدار التي كان يسكنها بجنب الديوان الى دار ابن صدقة الوزير ، وحول قاضي القضاة ابن الدامغاني عن الدار التي سكنها بباب العامة فأسكنها الوزير ابنته فانتقل ابن الدامغاني الى مدرسة التتشي »(٥٠) ·

لم تقتصر المدارس على أن تكون مركز معرفة وعلم وقضاء وحكم ، بل تحولت الى قلاع حربية وحصون دفاعية ، فالمدرسة الحسينية في القاهرة احتلت موقعاً مهماً « فهي متينة البناء ، مشيدة الأركان عالية الجدران ، وتواجه القلعة التي تشرف على مدينة القاهرة

ويقيم بها السلطان . ولهذا كان قواد المماليك اذا حركتهم الفتن والثورات تحصنوا بها وقادوا فيها الهجوم والقتال(٥١) .

واستخدمت المدارس كمراكز ومقار لتجمعات جماهيرية تصنع الأحداث ، ولاقامة الموالد ، وكمراكز للتعزية بوفاة العلماء ،ولاستضافة واستراحة العلماء الغرباء وساهمت في الترقي الاجتماعي لبعض العلماء، ومن الأمثلة ما قاله ابن بطوطة أنه « في واسط مدرسة عظيمة حافلة بنحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن عمرها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي وهو من كبار أهلها وفقهائها ، ويعطي لكل متعلم فيها كسوة في السنة ويجري له نفقته في كل يوم ويقعد هو واخوانه ليتعلم القرآن بالمدرسة ، وقد لقيته وأضافني وزودني تمراً ودراهم »(٥٢) .

وعندما توفي أبو اسحاق الشيرازي سنة ٤٧٦ هـ/١٠٨٢ م جلس أصحابه للعزاء بالمدرسة النظامية(٥٣) ، وكذلك كانت المدارس مجالا للترقي الاجتماعي وزيادة الدخل المادي والأدبي للمعلمين العلماء ، يقول الوخشي الحافظ أبو علي الحسن البلخي (ت ٤٧١ هـ/١٠٧٨ م) « سمعت ورحلت وقاسيت المشاق والذل (في رحلات طلب العلم) ورجعت الى وخش(٥٤) ، وما عرف أحد قدري ولا فهم ما حصلت ، فقلت : أموت ولا ينتشر ذكري ولا يترحم أحد علي ، فسهل الله ووفق نظام الملك حتى بنى هذه المدرسة وأجلسني فيها حتى أحدث »(٥٥) .

وصفوة القول ، هذه صورة للمدرسة الاسلامية التي تغلغلت فيها الروح الاسلامية ، والتي استقبلت الغني والفقير من أبناء المسلمين ، فأمنت لهم الأجواء النقية والبيئة الاسلامية التي كان يسودها الود والوئام بين العالم والمتعلم ، حيث كان المتعلم حريصاً على تلقي العلم ، والعالم حريص بدوره على تزويد طلبته بالعلم النافع وغرس مبادىء الفضيلة ، والأخلاق الاسلامية الرفيعة في نفوسهم .

وساعدت هذه المدارس على تحقيق الوحدة الاسلامية ، وتوثيق الروابط بين مختلف أقطار العالم الاسلامي ، فنشرت الثقافة والعلم ، وأمدت أجهزة الدولة بالعناصر المتعلمة المثقفة ، انها قد خرجت علماء من الأندلس والمغرب ، ومصر والشام والعراق وفارس ، ليرجع هؤلاء الى بلادهم عناصر مؤهلة ، علماء وأساتذة كبار يتولون التدريس في المساجد والمدارس ، أو الوظائف في القضاء والافتاء وغيرها ، أضف الى ذلك أن هؤلاء العلماء كانوا جيلا من الدعاة العلماء المعلمين ، الذين دافعوا عن الفكر الاسلامي ، وصدوا القوى الباغية الضالة التي استهدفته واستهدفت الدين الاسلامي ، وأثرى هؤلاء المعلمون العلماء المكتبة الاسلامية بعدد كبير من المؤلفات في علوم الشريعة واللغة والأدب والتاريخ والمنطق والجدل ، وعاشت هذه المدارس لفترة طويلة منارة علم ومجمعاً لرواد الفكر .

ثم لا بد من الاشارة الى تلك الروح التي سادتها وسيطرت على فكرة انشائها من حيث الاعتماد على العقل والتربية بديلا من استخدام القوة والعنف في رد الخصوم وهجماتهم العارمة التي هددت المجتمع الاسلامي آنذاك .

وجدير بالذكر أن المدرسة النظامية في بغداد لم تكن أول مدرسة أنشئت في ديار الاسلام ، فقد أنشئت قبلها في المشرق الاسلامي مدارس أخرى ٠

ثم لا بد من التنويه بتلك الظاهرة الملفتة للنظر في المدرسة الاسلامية وهي عدم عزلتها وانفتاحها على مجتمعها ومشاركته في الكثير من أحداثه ، وهو ما تدعو اليه التربية الحديثة اليوم ٠

□ منازل العلماء :

لقد ساهمت منازل العلماء بنصيب كبير في الحركة التعليمية عند المسلمين ، فعلى الرغم من توافر الأوعية الثقافية المتخصصة في التعليم والتثقيف ، وامتياز التعليم فيها بالسهولة والمرونة ، وعدم تقديمها بمكان معين سواء كانت مساجد أو مدارس أو كتاتيب أو دور علم أو مكتبات الى غير ذلك ، فقد عقدت الحلقات العلمية في بيوت العلماء وقصور الخلفاء يحضرها الطلاب والراغبون في العلم يصنفون ويكتبون عن الأساتذة والأطباء والفلاسفة والأدباء ، ويستمتعون بالمناظرات والمناقشات الدينية والعلمية والطبية والأدبية، بحيث أتاحت للعديد من المفكرين أن يبثوا من خلالها أفكارهم وينقلوا عن طريقها آخر ما أنتجه الفكر الاسلامي ، ويبرز فيها كل ما أبدعته الحضارات الأخرى ، ويبدو أن المفكرين آنذاك لم يقنعوا بذلك ، «ولم يقنعوا بأنهم أيضاً بشر لهم حاجاتهم الخاصة ولهم شؤونهم ومطالبهم التي يجب أن يلتفتوا اليها خارج قاعات العلم ، وان وقتهم كله فيما عدا ساعات النوم قد جعلوه للتعلم والتعليم ومن هنا فقد وجدناهم يتخذون من بيوتهم أيضاً أماكن يتجمع فيها حولهم مريدو العلم وطلاب المعرفة لينهلوا المزيد ، فالعقل الانساني نهم لا يشبع وخاصة من المعرفة ، بل انه يشعر بالجوع كلما زودناه بالزاد ، وعلى قدر ما نزوده على قدر ما يشعر بهذا الجوع »(٥٦) ٠

ولما كان البيت مكاناً خاصاً يحس رواده بالوحشة والانقباض تطلب ذلك من صاحبه أن يتسم بالخلق الحسن من مقابلة لرواده بالبشاشة والترحيب والتسرية عنهم واشعارهم أنهم يعيشون أسرة واحدة ٠ وبمعنى آخر ايجاد البيئة العلمية المناسبة ، حتى لا يضطر الطلبة والمشاركون في المباحث العلمية الى الانقطاع عن الحضور ، وكذلك فان للبيت حرمته وجلاله مما يتطلب من رواده أيضاً الخلق الكريم والوقار والهدوء ٠

وكان للتعليم في المنازل بعض الفوائد حيث أتاح الفرصة أمام الطلبة لدراسة علوم قد لا تدرس في المدارس كالرياضيات والفلسفة والمنطق وغيرها ، وكذلك استفاد منه بعض المدرسين وبخاصة اذا قاموا بتدريس بعض أبناء رجال السلطة مما يوصل المعلم بواسطتهم الى بعض الوظائف التي يرغبون فيها ٠

وتميز هذا النوع من التعليم « بحرية أكثر عن الدراسة في المدارس نظراً لأن الطالب أو وليه يختار له العلوم التي تناسبه كذلك كان يختار المدرس أو المؤدب ذا الشهرة العلمية والخلقية كما انها غير مقيدة بالاقامة في المدارس والتردد عليها في الأوقات المعينة للدراسة »(٥٧) ٠

ولم تكن الديانة عائقاً بالنسبة لمزاولة المعلم هذه المهنة الحرة فكان بعض الناس يحضرون معلمين نصارى لتعليم أبنائهم العلوم غير الدينية .

وقد زودت هذه المنازل باللحف المعدة لأهل العلم الذين يبيتون فيها كما كان الأمر في منزل محمد بن عمران المعروف بالمرزباني(٥٨) (ت ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م) .

ويبدو أن الوزراء والحكام كانوا يعطفون مادياً وأدبياً على أصحاب هذه المنازل فهذا الوزير ابن الفارض أبو عبدالله الحسن بن سعدان (ت ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م) كان يكرم أبا سليمان السجستاني (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) حيث يحدثنا أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م) مخاطباً ابن سعدان حول مساعدته المادية لأبي سليمان بقوله : « انك أنعشت روحه ، وكان خفت ، وبصرته، وكان عشي ، وأبنت جناحه ، وكان قد خص بالرسم الذي وصل اليه »(٥٩) .

وقد يقدم بعض محبي العلم والعلماء المنازل « كما فعل بجرجان رجل يقال له أبو محمد الشيرازي وكان محباً لعلوم الفلسفة والمنطق فاشترى للشيخ الرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ/١٠٣٦ م) » داراً في جواره وأنزله بها ـ ويقول أبو عبيدالجوزجاني : وأنا أختلف اليه كل يوم أقرأ (المجسطي) وأستملي المنطق وأملى عليّ المختصر الأوسط في المنطق »(٦٠) .

□ الحواشي :

١ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ٣٦٩ .
٢ ـ ناجي معروف : علماء النظاميات ومدارس المشرق الاسلامي ، ص ٤٥ .
٣ ـ ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤١٨ .
٤ ـ أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ، ج٢ ص ١٥١ .
٥ ـ راجع : ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص ١٢٨ ، ٢٤٥ ، وابن الأثير : الكامل ج٨ ، ص ١٠٥ ـ ٢٠٥ ، والبغدادي : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٣٤ .
٦ ـ مصطفى جواد : أول مدرسة في العراق مدرسة الامام ابي حنيفة ، مقالة في مجلة المعلم الجديد ، مجلد ٦ ، ص٤٢ .
٧ ـ محمد أسعد طلس : التربية والتعليم في الاسلام ، ص١٢٥ .
٨ ـ ناجي معروف : نشاة المدارس المستقلة في الاسلام ، ص ١٩ .
٩ ـ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج٨ ، ص ١٠٥ .
١٠ ـ حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ج ١ ، ص ٢٢ .
١١ ـ سعيد اسماعيل علي : معاهد التربية الاسلامية ، ص ٣٠٦ .
١٢ ـ الغزالي : احياء علوم الدين ، ج١ ص ١١ .
١٣ ـ ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٤٥ .
١٤ ـ خودا بخش : الحضارة الاسلامية ، ص ١٧٣ .
١٥ ـ سعيد اسماعيل علي : معاهد التربية الاسلامية ، ص ٣٥٦ .
١٦ ـ سعيد اسماعيل : المرجع السابق ، ص ٣٣٥ .
١٧ ـ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٣ ص ٨٩ .
١٨ ـ احمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ، ج٢ ، ص ١٢١ .
١٩ ـ حسين امين : المدرسة المستنصرية ، ص ١٠١ .
٢٠ ـ محمد عبدالرحيم غنيمه تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ، ص ٢٣٧ .
٢١ ـ عبد الغني عبود : في التربية الاسلامية ، ص ١١٥ ـ ١١٧ .

٢٢ ــ حسين أمين : المدرسة المستنصرية ، ص ٩٧ ــ ٩٨ ٠
٢٣ ــ عبد الغني محمود عبد العاطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ص ١٩٧ ــ ٢٠٥ ٠
٢٤ ــ ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، ص ٤٥ ٠
٢٥ ــ ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ج١ ، ص ٥٦ ٠
٢٦ ــ المرجع نفسه : ص ١١٦ ٠
٢٧ ــ عماد عبد السلام رؤوف : مدارس بغداد في العصر العباسي ، ص ٣٠ ٠
٢٨ ــ ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، ص ٢٠١ ٠
٢٩ ــ ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، ص ٢٠١ ٠
٣٠ ــ السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٢٠٨ ٠
٣١ ــ جورج مقدسي : مؤسسات التعليم الاسلامية ببغداد في القرن الخامس الهجري (الحادي عشرالميلادي) ، ص ٣٠٣ ٠
٣٢ ــ المرجـع نفسـه ٠
٣٣ ــ ر٠ ج٠ رالف : المكتبة ودورها في التربية ، ص ٣ ٠
٣٤ ــ المرجع نفسه : ص ٧ ٠
٣٥ ــ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج٣ ، ص ٢٣٠ ٠
٣٦ ــ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، ص ٥٩ ٠
٣٧ ــ عبد الغني محمود عبد العاطي : التعليم في مصر زمن الايوبيين والمماليك ص ٣٠٥ ٠
٣٨ ــ أحمد شلبي : التربية الاسلامية ، ص ٢٩٤ ــ ٢٩٥ ٠
٣٩ ــ الطرطوشي : سراج الملوك ، ص ٢٣٨ ٠
٤٠ ــ أحمد شلبي : التربية الاسلامية ، ص ٢٧٤ ٠
٤١ ــ المقريزي : الخطط ، ج١ ، ص ٣٥٥ ٠
٤٢ ــ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج١ ، ص ٥٨٤ ٠
٤٣ ــ حسين أمين : المدرسة المستنصرية ، ص ٨١ ٠
٤٤ ــ نبيلة ديب وهبة : المدارس النظامية ، ص ٧٣ ٠
٤٥ ــ حسن عبد العال : فن التعلم عند ابن جماعة ، ص ٦١ ٠
٤٦ ــ عبد الرحمن سنبط فنيتو الاربلي : خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٢٨٧ ٠
٤٧ ــ عبد الجواد سيد بكر : فلسفة التربية الاسلامية في الحديث ، ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤ ٠
٤٨ ــ خليل طوطح : التربية عند العرب ، ص ٨٧ ٠
٤٩ ــ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٩٧ ٠
٥٠ ــ ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ص ١٩٩ ٠
٥١ ــ محمود قمبر : دراسات تراثية في التربية الاسلامية ، ص ٧١ ٠
٥٢ ــ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٨٣ ٠
٥٣ ــ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ٢١ ٠
٥٤ ــ وخش : بالفتح ثم السكون ، والشين معجمة ، وهي كلمة أعجمية مأخوذة من العربية ٠٠٠ وهي بلدة من نواحي بلخ من ختلان وهي كورة متصلة بختل حتى تجعلان كورة واحدة وهي على نهر جيجون ، ينسب اليها أبو علي الحسن ابن علي بن محمد بن جعفر الوخشي الأديب الحافظ (ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد ٥ ص ٣٦٤ ــ ٣٦٥) ٠
٥٥ ــ ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم (في الحاشية للمحقق) ، ص ١٩٩ ٠
٥٦ ــ سعيد اسماعيل علي : معاهد التربية الاسلامية ، ص ٥١٣ ٠
٥٧ ــ عبد الغني محمود عبد العاطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، ص ٣٠٧ ٠
٥٨ ــ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ١٧٧ ٠
٥٩ ــ أبو حيان التوحيدي : الامتاع والمؤانسة ، ج١ ، ص ٣١ ٠
٦٠ ــ ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٤٠ ٠

صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات

د. مازن الوعر

مدخل :

الحديث عن صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات ذو شجون ، ونحن نعلم أن البحث عن هذه الصلة يشغل اللغويين العرب ، ويكاد يكون برهانا على رؤيتهم المعاصرة للسانيات العربية .

ولكن ما هي طبيعة هذه الصلة ؟ ثم كيف ننظر اليها ؟

الواقع أحب أن أجيب عن هذين السؤالين في اطار أشمل وأوسع ليكون حديثنا أكثر دقة وموضوعية ذلك أنني أعتقد أن التراث اللغوي العربي ليس ملكا للعرب وحدهم ، ولكنه ملك حضارة الانسان المعاصر . والانسان دائما وأبدا خارج عن نطاق الجنس والعرق والتاريخ . ومن ثم يمكنني أن أجيب عن هذين السؤالين في اطار ما يلي :

١ ــ ماذا نعني بالتراث اللغوي العالمي ؟

٢ ــ أين يقع التراث اللغوي العربي في خارطة التراث اللغوي العالمي ؟

٣ ــ ماذا نعني باللسانيات الحديثة ؟

٤ ــ أين تقع البحوث اللغوية العربية القديمة في خارطة اللسانيات الحديثة ؟

٥ ــ وأخيراً ، هل هناك صلة بين ما فعله العرب في مجال الدراسات اللغوية القديمة وبين هذا العلم الجديد المسمى المسمى « اللسانيات » ؟ ثم ما طبيعة هذه العلاقة ؟

١ ــ التراث اللغــوي العالمي :

من يطلع على الكتاب القيم الذي كتبه الباحث اللساني الانكليزي ر٠ روبنز (R. Robins) والمسمى « التاريـخ الوجيـز للسـانيـات »(A short History of linguistics) ـ يكتشف أن تاريخ الأمم السالفة حافل وغني بالدراسات اللغوية التي تبحث في الظاهـرة اللغوية من الوجهة الصوتية والتركيبية والدلالية ، ثم علاقة هذه المكونات اللغوية بالعـالم الذي يحيط بالانسان ٠ فقد لفتت الظاهـرة اللغويـة انتبـاه الانسان منذ قـديم الأزل ، وجعلته يطـرح الأسئلة تلو الأسئلة حولهـا ٠ وسـواء أقاده حدسه الطبيعـي الى الجـواب الصحيح أم تجاربه العلمية المتوافرة آنذاك ، فانه قد توصل الى حقائـق عدة حـول اللغة بشـكل عـام ٠

فالحضارة الهندية القديمة بحثت في الظاهرة اللغوية بحثاً مستفيضاً ولا سيما في وجهها الصـوتـي (Phonetic) والحق يقال : يُعدّ الباحث الهنـدي الكبـير بانيني (Panini) أبا الصوتيات في العالم ٠ فمن رجع الى بحوث هذا الرجل منذ حوالي أربعة آلاف سنة فانـه سيدهش من الدراسة الصوتية العميقـة التي قام بها سواء أكانت هذه الدراسة مبنية على اللغات الهندية أم على لغات بشرية أخرى ٠

وقد فعل اليونانيون في الحضـارة الاغريقية الشيء نفسه ، اذ استفادوا من البحوث اللغوية التي سبقتهم وبنوا على تلك الدراسات ثم طلعوا بنظـرات جديدة حول الظاهـرة اللغوية ٠ وما البحوث اللغوية التي قدمها أفلاطون وأرسطو والمدرسـة الرواقية الا دليـل واضح على اهتمام الحضارة الاغريقية بالظاهرة اللغوية ٠

واذا كانت الحضارة الرومانية قد تبنت كل الحقائق اللغوية التي أتت بها الحضـارة الاغريقية فانها قد ساهمت قليلا في تطـوير الدراسات اللغوية ولا سيما في وجهها الدلالي والبلاغي ٠ أضف الى ذلك أن هناك دراسات لغويـة قيّمة ونافعـة قامت بها الحضـارات الشرقية القديمة وبالتحديد اليابان والصـين وغيرهما ، تلك الدراسات التي لم تصل الينـا نحن ــ العرب ــ لنتعرفها ونأخذ بها ٠ ومـن يطلع على كتـاب ر٠ روبنـز الآنف الذكـر يكتشف أن هناك حقائق كثيرة أتت بها الدراسات الشرقية حول الظاهرة اللغوية ٠

والخلاصة : لا يمكن لظاهرة من الظواهر الانسانية أو الفيزيائية أن تكون طفرة في تاريخ الجنس البشري وانما هي تحول من ظاهرة الى ظاهرة أخرى متعاقبة ٠ وهكذا فان السابـق هو نتاج اللاحق ٠ اللغة ظاهرة فيزيولوجية ــ انسانية لاحظها الانسـان منذ أن خُلـق على وجه الأرض ، وقد حاول وما يزال يحاول سبرها ٠ وهكذا فان تاريخ الانسان (بغض النظر عن جنسه وعرقه وأصله وفصله) مليء بالدراسات التي تناولت الظاهرة اللغوية ٠ ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : ما مـدى صحة هذه الدراسات اللغوية التراثية العالمية وشرعيتها ؟ الاجابة عن هذا السؤال تحتـاج الى رواية ودراية لا تقل مدتها عن عشر سنوات من البحث والاستقصاء العلميّين ٠

٢ ـ التراث اللغوي العربي في خارطة التراث اللغوي العالمي :

لا أريد أن أقول ـ لأنني عربي ـ ان التراث اللغوي يُعد تحولاً كبيراً في مسيرة التراث اللغوي العالمي ، ولكنني أقول هذا لأن الحقائق العلمية حول هذا الموضوع مثبتة تاريخياً • وأكرر ما كنت قد ذكرته في مقالات عديدة أنه لو التفت الغرب المعاصر الى التأريخ اللغوي التراثي العربي لكان علم اللسانيات الحديث في مرحلة متقدمة عن الزمن الذي هو فيه • هذه الحقيقة شاركني فيها عالم اللسانيات الأمريكي توم تشومسكي خلال حوار كنت أجريته معه ١٩٨٢ • وقد نشرت ما قاله تشومسكي حول هذا الموضوع في مجلة اللسانيات الصادرة عن معهد العلوم اللسانية والصوتية التابع لجامعة الجزائر (المجلد ٦ ـ ١٩٨٤) • ولكن ماذا نعني بالتراث اللغوي العربي ؟ الواقع أن الذي فعله النحاة العرب حول اللغة العربية يُعد جزءاً من التراث اللغوي العربي وليس كله • ذلك أن التراث اللغوي العربي هو أشمل وأوسع مما قدمه النحاة العرب أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه وابن يعيش وغيرهم • فهذا التراث هو كل عمل عربي وضعه العرب القدماء من أجل تفسير النص القرآني • وهذا يعني أننا اذا أردنا اعادة تركيب التراث اللغوي العربي فانه ينبغي أن نبحث في المصادر التالية :

- كتب النحو والشروح التي تناولته (نحويات أو علم التراكيب) •
- كتب التجويد وفق قراءة القرآن الكريم (صوتيات أو علم الصوت) •
- كتب البلاغة والفلسفة والمنطق (دلاليات أو علم المعنى) •
- كتب التفاسير القرآنية والنبوية •
- دواوين العرب الشعرية والنثرية والشروح التي تناولتها •
- كتب الموسوعات المعرفية المختلفة التي كتبها عظماء الكتّاب العرب ، أمثال الجاحظ وابن عبدربه وابن حزم الأندلسي وغيرهم •
- كتب المعاجم واللغة كما هي الحال عند ابن منظور وابن فارس والأصمعي والقالي وغيرهم •
- كتب التاريخ كما هي الحال عند الطبري وياقوت الحموي وغيرهما •

وبكلمة أخرى ؛ ان ما نعنيه بالتراث اللغوي العربي هو كل هذا الركام المعرفي المتناثر في تاريخ الفكر العربي والذي وجد من أجل خدمة النص القرآني • ونحن لا نستطيع معرفة النظرية اللغوية العربية بأبعادها الكاملة الا اذا أعدنا تركيب هذا الفكر اللغوي العربي المتناثر بعد سبر دقيق وعميق لكل ما قاله العرب حول المسألة اللغوية •

ان الشرعية العلمية التي تدفعنا الى تنفيذ هذا العمل ليست نابعة من تجميع ركام معرفي لا يربطه رابط معين ، وانما هو ركام معرفي انطلق من مبدأ فلسفي متماسك واضح

من أجل تفسير الكون والحياة • فالنظرة الفلسفية الاسلامية أرادت أن تفسر مشكلة الانسان على الأرض ، ولأن اللغة مكوّن جوهري من مكونات الانسان فانها أرادت معرفة هذه اللغة وسبرها وتفسيرها وربطها بالنظرة الفلسفية الكونية •

صحيح أن تاريخ العالم وحضاراته مملوء بالنظريات اللغوية التي تناولت اللغة درساً وتمحيصاً ، الا أن معظمها لم ينطلق من منطلق فلسفي شامل وعام • من هنا فان تجميع الركام المعرفي اللغوي انطلاقاً من هذه الحقيقة وفي هذا الاطار يفقد صفته العلمية •

ان شرعية اعادة بناء الركام اللغوي العربي القديم تأتي من حقيقة أن العرب القدماء أرادوا تفسير الظاهرة اللغوية ، كما فسروا بقية الظواهر الانسانية والطبيعية، من أجل خدمة النص القرآني • وبمعنى أدق من أجل خدمة المنطلق الفلسفي الاسلامي •

٣ ـ اللسانيات الحديثة :

اللسانيات هي الدراسة العلمية للغات البشرية كافة من خلال الألسنة الخاصة بكل قوم من الأقوام • هذه الدراسة تشمل ما يلي : الأصوات اللغوية ـ التراكيب النحوية ـ الدلالات والمعاني اللغوية ـ علاقة اللغات البشرية بالعالم الفيزيائي الذي يحيط بالانسان •

ونعني بالدراسة العلمية البحث الذي يستخدم الأسلوب العلمي المعتمد على المقاييس التالية : ملاحظة الظواهر اللغوية ـ التجريب والاستقراء المستمر ـ بناء نظريات لسانية كلية من خلال وضع نماذج لسانية قابلة للتطوير ـ ضبط النظريات اللسانية الكلية ثم ضبط الظواهر اللغوية التي تعمل عليها ـ استعمال النماذج والعلائق الرياضية الحديثة ـ التحليل الرياضي الحديث للغة ـ الموضوعية المطلقة • وبما أن اللغات البشرية لها ارتباطاتها الانسانية والطبيعية المتفرعة ، كذلك فان لعلم اللسانيات فروعاً متعددة يختص كل منها بناحية جزئية من هذا الكل الذي اسمه « اللغات » •

أ ـ فاللسانيات النظرية (العامة) تبحث بالنظريات اللغوية ونماذجها المتفرعة عنها وكيفية معالجتها للبنية اللغوية سواء أكانت تلك النظريات اللغوية في الماضي أم الحاضر • ومن العلوم المتفرعة عن اللسانيات النظرية ما يلي :

١ ـ الصوتيات التي تتفرع بدورها الى : الصوتيات الفيزيولوجية النطقية ـ الصوتيات الفيزيائية ـ الصوتيات السمعية الدماغية •

٢ ـ النحويات أو علم التراكيب الذي يتفرع بدوره الى : علم بناء الجملة ـ علم بناء الكلمة ـ علم التقديم والتأخير في العناصر اللغوية ـ علم القواعد اللغوية العالمية ـ علم القواعد اللغوية الخاصة ـ علم الضوابط العامة والخاصة المفروضة على القواعد •

٣ ـ الدلاليات أو علم المعنى الذي يتفرع بدوره الى : علم المعنى الخاص وعلم المعنى العام ـ علم بنية الدلالة في الدماغ البشري ـ علم التعرف على اللغة (عندما

تخزن في الدماغ دون معرفتها) ـ علم فهم اللغة (عندما تخزن في الدماغ مع فهمها) ـ علم المشترك والترادف ـ علم تقطيع اللغات للواقع وتسميته ـ علم أنواع الدلالة والمعنى ·

ب ـ واللسانيات التطبيقية تبحث في التطبيقات الوظيفية التربوية للغة من أجل تعليمها وتعلمها للناطقين ولغير الناطقين بها ، وتبحث أيضاً في الوسائل البيداغوجية المنهجية لتقنيات تعليم اللغات البشرية وتعلمها (أصول التدريس ـ مناهج التدريس ـ وضع النصوص اللغوية وانسجامها مع المتعلمين ـ وضع الامتحان ـ امتحان الامتحان ـ علاقة التعلم والتعليم بالبيئة الاجتماعية) ·

ج ـ واللسانيات الأنثروبولوجية تبحث بالصلة التي تربط اللغة بأصل الانسان · فاللغة عضو بيولوجي كبقية الأعضاء البيولوجية الأخرى عند الانسان ، ولكن ، على الرغم من ذلك فان اللغات البشرية متفاوتة من حيث الرقي الحضاري ومن حيث أنظمتها الداخلية وقدرتها على تقطيع العالم الذي يحيط بالانسان ·

د ـ واللسانيات الاجتماعية تبحث في العلاقة القائمة بين اللغة والمجتمع · ذلك لأن اللغة لها صلة بالمجتمع الذي ينظمها ويؤطرها على نحو يجعلها مختلفة عن اللغات الأخرى نظاماً وعادة وسلوكاً · فاللغة ظاهرة اجتماعية تتفق عليها الجماعات البشرية ، وهي تعكس كل ما يموج فيها من عادات وتقاليد وثقافة ودين وتنوعات جغرافية واقليمية · ان من مهمة اللسانيات الاجتماعية البحث في التالي : اللغة واللهجة ـ الأطلس اللغوي الجغرافي ـ العلاقات الاجتماعية والثقافية في المجتمع الواحد وأثر ذلك في تعليم اللغة القومية وتعلمها ـ الفروق القائمة بين لغة النساء ولغة الرجال ـ المستويات الكلامية اللغوية حسب سياقاتها الاجتماعية ـ اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة ·

هـ ـ واللسانيات الأدبية تبحث بالعلاقات القائمة بين اللسانيات والأدب والنقد والسيميائيات والأسلوبيات · ما هي أفضل التقنيات اللسانية التي يمكن للأديب والكاتب أن يستخدمها ليكون عمله أكثر تأثيراً وفهماً في المجتمع ؟ كيف يستطيع الأدب أن يقدم عينات وشرائح أدبية متنوعة للسانيات من أجل أن تدرسها وتبني عليها فرضيات يمكن أن تساهم في بناء صيغة علمية دقيقة للنقد الأدبي الحديث ؟ ·

و ـ واللسانيات البيولوجية تبحث في العلاقة القائمة بين اللغة والدماغ · ان مهمة هذا العلم معرفة البنية اللغوية الدماغية عند الانسان ومقارنتها بالبنية الادراكية عند الحيوان · أضف الى ذلك أن هذا العلم يريد معرفة التطور اللغوي البيولوجي عند الأطفال وكيف يمكن أن ينشأ المرض اللغوي عندهم ؟ ·

ز ـ واللسانيات الرياضية تنظر الى اللغة على أنها ظاهرة حسابية مركبة صوتاً وتركيباً ودلالة ، ومنظمة على نحو متشابك من أجل تطويعها ووضعها في أطر وصيغ رياضية

من أجل معرفتها معرفة دقيقة جداً لاثبات الفرضية التي وضعها تشومسكي من أن اللغة عبارة عن آلة مولدة ذات أدوات محددة قادرة على توليد ما لا نهاية له من الرموز اللغوية من خلال طرق محددة ·

ح - واللسانيات الحاسوبية - المعلوماتية (الكومبيوترية) تبحث عن وضع اللغات البشرية في صيغ وأطر رياضية وذلك لمعالجتها في الحاسبات الالكترونية من أجل السرعة والدقة العلميتين في البحوث اللغوية ومن أجل ترجمة النصوص اللغوية ترجمة آلية فورية ·

والواقع أن تاريخ اللسانيات يبدأ بالمحاضرات اللسانية التي كان يلقيها عالم لساني سويسري يدعى فردينانـد دي سوسور الذي يعتبر الأب الحقيقي للسانيات · وقد نشرت هذه المحاضرات اللسانية بعد مماته (١٩١٩) في كتاب اسمه « محاضرات في اللسانيات العامة » ان جوهر هذه المحاضرات يدور حول طرح منهج لساني علمي جديد لدراسة اللغات يدعى باللسانيات السنكروفية الآنية التي تدرس اللغات البشرية كما هي الآن · وقد كان هذا المنهج ردة فعل علمية على المناهج اللغوية الماضية التي كان يستخدمها العلماء في الهند لمقارنة اللغات الهندية باللغات الأوربية الأمر الذي دعاهم لدراسة تاريخ هذه اللغات ومقارنتها مع بعضها بعضاً طبقاً لمنهج لغوي دعوه بالمنهج الدياكروني التطوري (التاريخي) ·

وقد انتقل منهج دي سوسور اللساني الى الولايات المتحدة وطُوِّر تطويراً يختلف عما كان عليه في أوربة · من هنا نشأت « البنيوية » اللسانية (Structuralism) على يد عالم أمريكي هو بلومفيلد في كتابه « اللغة » (Language) وقد طورت النظرية البنيوية من خلال نماذج عديدة جداً استمرت في التطور حتى عام ١٩٥٧ حيث جاء عالم اللسانيات الأمريكي نوم تشومسكي الذي كان انعطافاً وحدثاً عظيماً في تاريخ العلوم الانسانية والطبيعية في العالم · فقد استطاع هذا العالم أن يقلب المفاهيم الطبيعية والانسانية رأساً على عقب كالمفاهيم المطروحة في علم النفس والمنطق والفلسفة وعلم الأنثروبولوجيا والرياضيات وعلم البيولوجيا وعلم الحاسبات الألكترونية وعلم الفيزياء · ومن أراد التفصيل فلينظر في دائرة المعارف البريطانية ليرى ماذا فعل هذا العالم في تاريخ العلم الحديث والمعاصر · لقد قلب كثيراً من المفاهيم في هذه العلوم من خلال الثورة اللسانية التي قام بها عام ١٩٥٧ عندما نشر كتابه الأول المسمى « المباني التركيبية » والذي يدور حول طرح نظرية جديدة تدعى « نظرية القواعد التوليدية والتحويلية » وما زال هذا العالم يطور في نظريته هذه حتى الآن وذلك من خلال تطبيقها على لغات بشرية عديدة · ولكن هذا لم يمنع من ظهور اتجاهات ومدارس لسانية أخرى في الولايات المتحدة وأوربة رافقت النظرية التوليدية والتحويلية كمدرسة « الدلاليات التوليدية » لمكولي ومدرسة « الدلاليات العلامية » لفيلمور ومدرسة « تحليل الخطاب » لـ لابوف وجمبرز وجودي، ولكن اذا أردنا فعلا معرفة جوهر اللسانيات فاننا نستطيع القول ان هوية هذا العلم تتسم بصفتين اثنتين : الأولى هي العلمية (تطبيق المقاييس العلمية على اللغات) والثانية هي الاستقلالية (أصبح لهذا العلم قوانينه

وأنظمته الخاصة بـه) . هاتان السمتـان اكتملتا بظهـور علمـاء لسانيـين في القـرن العشرين أمثال دي سوسور وبلومفيلد وسابيرومارتينه وتشومسكي وغيرهم كثير .

٤ ـ موقع البحوث اللغوية العربية القديمة في اللسانيات الحديثة :

لا شك في أن كل أمة من الأمم عندما تفرز حضارة ما فان هذه الحضارة ستكون مكتملة الجوانب ومتعددة الظواهر غالباً . فالحضارةالعربيـة الاسلاميـة هي حضارة تتسم بسمة الكلية (Universal) هـذه السمة الكليـة التيكانت جوهر الدعوة الاسلامية دفعت العـرب والمسلمين في كل مكان وزمان للبحث عن جوهر الانسان ضمن بوتقة الكون والحياة . من هنا لم يكن من همّ الايديولوجيـة الاسلاميـة أن تجعل الاسلام يعتقد بالاسلام فقط وانما كان همها اضافة الى ذلك البحث والاستقصاء عن الانسان أولا (الانطلاق من معرفة الانسان) وعن الكون الـذي يحيـط بالانسـان ثانيـاً (الانطلاق من المحيط الخارجي للانسان) . لذلك نرى القرآن الكريم يركز على قضيـة الاكتشاف عندما يقول « هل يستوي الذيـن يعلمون والذين لا يعلمون » . وكذلـك الحديث النبوي الذي حث على هذا الاكتشاف عندما قال الرسول الكريم : « اطلبوا العلـم ولو في الصين » . وانطلاقاً من هذا المفهوم الفلسفي الاسلامي كان الرسول الكريم يفك أسر كافر اذا علّم عشرة صبية من المسلمين .

نستطيـع أن نقـول اذن بأن الحضـارة العربية الاسلامية لم تكـن استمراراً لتطور حضاري سابق على الرغم من أنها كانت قـد تأثرت بالخط العام لمسيرة الحضارات السابقة، وانما كانت « طفـرة » أو « انعطافـاً » أو « حدثاً ثورياً » في تاريخ الحضارات الانسانية. من هنا فان ما توصلت اليه هذه الحضارة من خلال دراسة الظواهر الانسانيـة والطبيعيـة انما يستحق الروية والدرايـة والتأمـل والعمق .

ومن الظواهر التي وقفت عندها الفلسفة العربية الاسلامية ظاهرة « اللغة » . وعندما نقول « اللغة » لا نعني اللغة العربية فقط وانما « اللغة » التـي ينبغي أن تكون كونية ، كلية ، شاملة ، صالحة لكل زمان ومكان حسب المفهوم الفلسفي العـربي الاسـلامي . انهـا « اللغة » التي هي ركـن أساسـي من أركان الحضارة العربية الاسلاميـة . من هنـا فان خدمة العرب والمسلمين لهذه « اللغة » لم تنطلق من المفهوم القومي للغة وانما انطلقت مـن المفهوم الاسلامي الكلي والانساني والشمولي. فكما أن الاسلام هو الحـل الوحيـد لمشكلـة الانسان على هذه الأرض حسب المفهوم العربي الاسلامي فان اللغة العربيـة هي اللغـة التي يجب أن تحمل كل المعارف التي حصل عليها الانسان ويريد أن يحصل عليها ، وذلك مـن أجل حل مشكلاته في هذا الكون . اذن المفهوم العربي الاسلامي اعتبر « اللغة » ظاهرة عربية كونية كلية . لذلك أقدم العرب والمسلمون على دراستها انطلاقاً من هاتـين السمتـين : السمة القومية والسمة العالمية أو الكليـة . وما بحثه العرب في « اللغة » كثير جداً ومتعب جداً ، ولكن يمكن حصره بما يلي :

أ ـ أصوات اللغة العربية :

١ ـ الفيزيولوجية ـ النطقية (النحاة والأطباء العرب أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه وابن سينا في كتابه أسباب حدوث الحروف) .

٢ ـ الفيزيائية (علماء الرياضيات العرب أمثال الحسن بن الهيثم والخوارزمي) .

٣ ـ السمعية ـ الدماغية (علماء التجويد أمثال الشاطبي ومكي بن أبي طالب القيسي وعلماء الموسيقى أمثال زرياب وابراهيم الموصلي) .

فقد درس العرب والمسلمون الظاهرة الصوتية دراسة نطقية ـ فيزيولوجية ودراسة فيزيائية ثم دراسة سمعية دماغية ، ولكن معلوماتهم حول هذه الظاهرة جاءت مبعثرة لا يجمعها منهج أو نموذج واحد متماسك .

ب ـ تراكيب اللغة العربية :

وهذا كثير عند النحاة العرب أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه والكسائي والفراء والشراح الذين فصلوا ما أتى به هؤلاء المتقدمون أمثال ابن يعيش وغيره . ويُعد كتاب سيبويه « الكتاب » منطلق التحليل النحوي العربي في تاريخ الدراسات النحوية التركيبية . وفي اعتقادي أنه لو استطاع العرب فهم كتاب سيبويه فهم رواية ودراية وعمق لنبشوا حقائق نحوية من هذا الكتاب لا تقل أهمية عن الحقائق النحوية التي أتى بها عالم اللسانيات الأمريكي نوم تشومسكي ولكن هذا يحتاج الى جهد كبير جداً ليس هناك مؤشرات لحوافزه ، في مناخ الدراسات اللغوية العربية المعاصرة .

ج ـ دلالات اللغة العربية ومعانيها :

ونجد هذه الدراسات في أعمال البلاغيين العرب الذين كانوا يتحدثون عن معاني اللغة العربية ودلالاتها في اطار البلاغة « المنطقة » أمثال الجرجاني والسكاكي والقزويني وغيرهم . ولعلنا نجد بعض النظرات الدلالية العميقة في أعمال النحاة العرب عندما كانوا يتحدثون عن تراكيب اللغة العربية ونحوها . وهذا كثير عند ابن يعيش في كتابه « شرح المفصل » . ثم ان دلالات اللغة العربية ومعانيها أخذت حظاً كبيراً من الدراسة على أيدي الفلاسفة وعلماء المنطق العرب والمسلمين أمثال الفارابي وابن سينا والتوحيدي وابن حزم الأندلسي وابن رشد وغيرهم ، حتى ان هناك نظرات دلالية عميقة جداً مبعثرة هنا وهناك ولا سيما في أعمال المفسرين العرب والمسلمين الذين تناولوا القرآن الكريم والأحاديث النبوية تفسيراً وشرحاً .

د ـ ارتباط اللغة بالمجتمع :

ونجد مثل هذه الدراسات عند الجاحظ في مؤلفاته جميعها ولاسيما « البيان والتبين » و « الحيوان » وكذلك نجد بعض هذه الدراسات حول العلاقة بين اللغة والمجتمع عند بعض

الشعراء في نثرهم أمثال أبي العلاء المعري في« رسالة الغفران » ، وكذلك نجد هذه الأعمال عند من بحثوا في قضية اللغة العربية واللهجات المتفرعة عنها وأنظمة التفرع وضوابطه ٠

هـ ـ ارتباط اللغة بفيزيولوجية الانسان وبيولوجيته :

وهذا نراه عند المؤلفين العرب الذين بحثوا في قضية الأمراض اللغوية والتطور اللغوي عند الانسان ولاسيما عند الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » ٠

و ـ نشأة اللغة واللغات :

وهذا الموضوع تناوله المؤلفون العرب إجمالا لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأصل الانسان عندما خلقه الله تعالى ليكون خليفته في الأرض٠ ومن المؤلفين العرب الذين تناولوا هذا الموضوع ابن جني في « الخصائص » وابن فارس في « المجمل » و « المقاييس » ، ثم نراه عند بعض الفرق الفلسفية كالمعتزلة مثلا ٠ ولكن هذه الدراسات اللغوية التي قام بها العرب والمسلمون انما هي دراسات انسانية مستطردة لم تبن على نماذج معينة تخضع لنظريات علمية تجريبية مثبتة اللهم الا في مجال الصوتيات والنحويات والدلاليات وحتى هذه تحتاج الى غربلة « علمية » صارمة ٠

٥ ـ الصلة بين التراث اللغوي العربي واللسانيات :

لاأجد حرجاً في أن أكرر ، هنا ، شيئاً كنت قلته ، وسأبقى أقوله ، هو أن صلة القربى ليست فقط بين التراث اللغوي العربي واللسانيات ، وانما هي موجودة أصلا بين التراث اللغوي العالمي واللسانيات ٠ هذه الحقيقة هي قانون علمي للظواهر الحضارية، ذلك لأن اللسانيات لم تنشأ في فراغ لتخدم في فراغ ، وانما هي شيء لاحق لشيء سابق ٠ فعملية التأثير والتأثر موجودة ، ليس بين اللسانيات وبين الدراسات التي سبقتها ، وانما بين الظواهر الحضارية كلها ٠

ولكن السر في تقدم الظواهر الحضارية بعضها على بعض انما يكمن في حقيقة مفادها أن الشيء اللاحق يجب أن يكتشف جديداً لم يكن في السابق ٠ هذا هو سر تقدم العلوم الانسانية والطبيعية ، وسر تقدم الحضارات في تاريخ الانسان ٠

اللسانيات ، بصفتها علماً ، جاءت من أجل تبني صيغة علمية بمفهوم العلم الفيزيائي، وذلك من أجل معرفة كيفية عمل اللغات البشرية بدقة وضبط وموضوعية مطلقة ، وذلك للاستفادة من نتائج هذه المعرفة اللغوية وتوظيفها في مجال الحضارة والتكنولوجيا المعاصرة ٠ ولكي تستطيع اللسانيات أن تكون علماً قائماً برأسه مستقلا عن بقية العلوم الانسانية والطبيعية الأخرى ، فلا بد لها من أن تستفيد من المعارف والنظرات اللغوية والتراثية سواء أكانت عربية أم غير عربية ٠

وهكذا فان المعارف اللغوية الموجودة في التراث الهندي والبابلي والاغريقي والروماني والعربي ثم جهود الباحثين في القرن الثامن والتاسع عشر انما كانت معارف لغوية مهمة جداً للسانيات ٠

ولكن فضيلة التراث اللغـوي العربي تأتي من حقيقـة أن الايديولوجية الحضاريـة العربية الاسلامية كانت أعلى في الوتيرة الفكرية وأنفذ في الرؤية المستقبلية • لذلك كانت استفادة اللسانيات من التراث اللغوي العربي أكثر من غيره على الرغم من أن بعض الباحثين اللسانيين الغربيين لا يعترفون بهذه الحقيقية ، ذلك لأن حجتهم هي أن التراث اللغوي العربي انما هو انعكاس وحفظ للتراث اللغوي الاغريقي الا في بعض فرضياته الدلالية الجديدة •

على أية حال ، لقد أثبت باحثون لسانيون غربيون معتدلون ومنصفون (أمثال روبنز وتشومسكي وكوك) تأثر اللسانيات الحديثة بالتراث اللغوي العـربي وذلك عن طـريق وسائل مختلفة سواء أكانت مباشرة (الاطلاع على التراث اللغوي العربي باللغة العربية) أم غير مباشرة (عن طريق ترجمة أعمال النحاة واللغويين والبلاغيين العرب الى لغات أجنبية كثيرة وخاصة اللغة الألمانية) •

ان الفكـرة الرئيسية في قانـون البحث العلمي هي أنه لا سابق دون لاحق ولا لاحـق دون سابق ، وكل من ينكر هذا القانون العلمي انما نظرته الى الظواهر هي نظـرة شخصية وليست نظرة موضوعية • لنأخـذ على سبيل المثال عالم اللسانيات الأمريكي نوم تشومسكي فسوف نجد برهاناً على ما نقول • فعلى الرغم من أن هذا العالم قد رفض كل شيء أتت بـه البنيوية ، ولكنه في صميم أعماله التوليديـة والتحويلية انمـا هو بنيـوي • أن ما فعلـه تشومسكي هو أنـه قلب البنيوية رأسـاً على عقب وأتى بشيء جديد لم تلتفت اليه البنيوية وهو دراسة « اللغة » على أنها ظاهرة فيزيائية ــ رياضية ــ آليـة ــ بيولوجية تعمل داخـل الدماغ البشري • أنت ترى ظاهرة معينة متمددة وأنا أرى الظاهرة نفسـها الآن ، ولكـن رؤيتي لهـذه الظاهرة يمكـن أن تكشف شيئاً جديداً لم يسترع انتباهـك أنت • ولنقـل ما نقول : أهي الوسائل البدائية التي استخدمتها ولم تجعلك تكتشف هذا الشيء الجديد أم أنه القصور في التحليل العلمي لهذه الظاهرة ؟

المهم في الأمر هو « الاكتشاف الجديد » ، هذا هو سر اللسانيات الحديثة التي اكتشفت في اللغات البشرية أشياء جديدة لم تسـتطع الدراسات اللغوية القديمـة اكتشافهـا وذلك بسبب ظهور التكنولوجيا الحديثة والأساليب العلمية المذهلة • ما تفعله اللسانيات هو أنها تأتي الى اللغـات البشريـة كافة ، تفككهـا وتحللها قطعة قطعة لتكشف وظيفة كل قطعة لغوية وكيفية توزعها في النظام العام • وهكذا فانها ستكشف أن هناك نظاماً معيناً فتسجله ، ثم تنتقـل الى قطـع لغويـة أخرى لتـدرس وظيفتها وتوزعها ضمن النظام العام ، وهكذا دواليك • فمن خلال هذه الدراسة تتكون عند اللساني أنظمة كثيرة حول الظاهرة اللغوية • وهذه الأنظمة لا بد لها من نظام معين من أجل ضبطها •

ان الفكرة الرئيسية هنا هي أن اللساني ينطلق من الجزء لينتهي بالكل • الجزء هو اللغات البشرية كلها • الكل هو أنظمة هـذه اللغات البشرية وقوانينها • ان الجزء والكل هما اللذان يعطيـان اللسانيات الحديثـة شرعيتها لتكون علماً قائماً برأسه •

في التراث اللغوي القديم (عربياً كان أم غير عربي) لم تكن هناك وسائل علمية سريعة لفحص اللغات البشرية كلها وتحليلها ومعرفة سر حركيتها وعملها من أجل أن نستفيد منها تقنياً وتكنولوجياً ، والا فكيف يمكننا الآن وبفضل اللسانيات الحديثة أن نصمم آلات تكنولوجية (مخابر صوتية) أو حاسبات الكترونية (كومبيوتر) لتلائم مثلا لغتين أو لغات عدة من أجل أن نقوم بعملية الترجمة الآلية كما هو الحال في مشروع لغات السوق الأوربية المشتركة ؟ ثم كيف يمكننا وبفضل اللسانيات الحديثة أن نصوغ جميع اللغات البشرية صياغة رياضية صوتياً وتركيبياً ودلالياً ؟ • لم يكن هذا الأمر ممكناً في القديم ذلك لأن امكانات فقه اللغة أو الدراسات اللغوية القديمة امكانات ابتدائية تتلاءم مع العصر الذي أفرزها •

هذه الحقيقة العلمية تؤيد حقيقة أخرى فلسفية كان وضعها الفيلسوف اليوناني القديم هيرقليطس وهي « أنك لا تستطيع أن تستحم بماء النهر مرتين » • من هنا فانه من الخطأ العلمي الفادح أن نحمّل التاريخ الحضاري وزراً فوق وزره • لندع التاريخ الحضاري يفرز حقائقه من الواقع والزمن الذي كان يعايشه دون أن نسقط عليه حقائق معاصرة لرغبة قومية أو نزعة دينية أو تحمس عاطفي.

والخلاصة أن الدراسات اللغوية القديمة هي دراسات انسانية (علاقة اللغة بالانسان الذي يتكلمها) • وبهذا فانها في الغالب دراسات شخصية (Subjective) شارحة كيف يمكن للصفات المهمة للغة أن تكون لها علاقة في (أنا) (كشخص) • أما الدراسات اللغوية الحديثة أو اللسانيات فهي دراسات علمية (علاقة اللغة ببعضها بعضاً) • وبهذا فان هذه الدراسات أكثر موضوعية (Objective) شارحة كيف يمكن للصفات المهمة للغة أن تكون لها علاقة ببعضها بعضاً •

الدراسات اللغوية القديمة تبدو وكأنها تستخدم معيار السببية (لماذا مثلا تحدث صفات نحوية معينة في اللغة ؟ وكيف يجب على هذه الصفات النحوية أن تعمل ؟) • وبالمقابل فان اللسانيات الحديثة تبدو وكأنها تستخدم معيار الماهية (فهي تسجل الحقائق الملحوظة للغة فقط دون محاولة شرحها • واذا كان هناك شرح لساني فانه عبارة عن الشرح الذي يتناول العلاقة بين الحقائق الملحوظة للغة وبين النظرية اللسانية العامة والتجريبية) • الدراسات اللغوية القديمة خلطت بين مستويات التحليل اللغوي فهي لم تميز بشكل دقيق هذه المستويات وتفرزها عن بعضها بعضاً لكي يكون التحليل أكثر دقة وموضوعية • أما اللسانيات الحديثة فقد فصلت بين مستويات لسانية عديدة مكّنتها من اكتشاف العملية اللغوية وكيفية عملها ووظيفتها •

ان حقيقة فهم الناس للدراسات اللغوية القديمة انما يعود الى التاريخ الثقافي الذي حمل هذا التراث اللغوي القديم من جيل الى جيل وعلى مدد زمنية طويلة وعريضة ، ذلك التاريخ الذي صبغ الدراسات اللغوية القديمة بالتيارات الفلسفية والنفسية والدينية والبلاغية والنقدية والأدبية • ومن جهة أخرى فان اللسانيات الحديثة هي وليدة العصر

وليس لها تاريخ ثقافي طويل وعريض· أضف الى ذلك أن اللسانيات حاولت جهدها أن تصرف النظر عن المناقشات الجدلية النفسية والمنطقية والميتافيزيقية المقيمة وأن تركز على الوصف والشرح اللغويين المبنيين على الوصف التجريبي للغة ·

وبكلمة أخرى ؛ ان اللسانيات الحديثة هي استمرار للخط الحضاري الحديث ذي الطابع العلمي التكنولوجي الذي يجعلها مرتبطة بالعلوم الطبيعية والتقنية الصارمة كالفيزياء والبيولوجيا والحاسبات الألكترونية والرياضيات · أما الدراسات اللغوية القديمة فانها استمرار للخط الحضاري القديم ذي الطابع الانساني الذي يجعلها تدور في فلك العلوم الانسانية كالأدب والنقد والفلسفة والتاريخ ·

وهكذا فان الفرق بين الدراسات اللغوية القديمة وبين الدراسات اللسانية الحديثة هو الفرق بين الهدف الانساني والهدف العلمي·

★ ★ ★

تدوين الحروب في الشعر الجاهلي

• د. عبدالله محمود حسين

تمهيـــد :

عرف العرب الكتابة منذ أقدم العصور ، ومـا تزال الآثـار العربيـة القديمة تقدم لنا كل يوم العديدمن الأدلة والبراهـين على الكتابـة العربية واستخدامها ، كما عرفتها العديدمن الشعوب ، والتي يعود فيها الفضل الأول والكبير لهم ، لاسدائهم تلك المنـة العظيمة للانسانية والمجتمعات البشرية مـن خلال الأبجدية التي أوجدها أسلافنا السابقون ، ومنها أخـذت تتطـور عبـر العصور ، حتى وصلت الى الأبجدية الحالية التي نستخدمها في أيامنا هذه .

كذلك عرف العرب الحرب ، وخاضوا غمارها وبرعوا فيها ، ونقلت لنـا روايات كثيرة عنها عبر الشعـر والخطابة لفترة ما قبل الاسلام اضافة لبعض المنحوتات التي وجدت في المقابـر والآثار القديمة ، وعبـر المدونـات الدينيـة والتاريخية والشعر وغيرها من فنون الكتابة التي عرفها العرب في الفترة التالية لظهور وانتشار الاسلام .

الفتـرة الجاهليـة :

انتشرت القبائل العربية فوق رقعة من الأرض لها خصائص معينة جغرافياً وبشريـاً وعمرانياً ، وكل واحدة من تلك أثرت بشتى الصور والأشكال مع غيرها في السياق الحياتي لعملية الوجود العربي في جزيرة العرب أولا وغيرها من الأصقاع الأخرى ، ومن ثم فرضت من خلال طابعها الجغرافي الاقتصادي ظروفـاً قاسية على ساكينها أو مرتاديها ، وتطلبت شروطاً معينة للتأقلم مع هذه البيئة الأصليـة أو الجديدة على تلك القبائل ، التي هاجـر

الكثيرون منها وانساحوا فوق العديد من البقاع لتأمين أبسط المتطلبات الحياتية الضرورية لهم ولأنعامهم ، والتي كان يقف على رأسهـا الماء والكلأ ..

أضحت تلك المناطق الوفيرة الماء ومن ثم الكلأ موئلاً يقصده كل طالب لهما ، ونظراً لقلة أعدادها قياساً الى تلـك المساحات الشاسعة والمترامية الأطـراف الممتـدة من أقصى حدود اليمن الى خليج عُمان ، ومن أعالي الجزيرة السوريـة حتى أواسـط الصحـراء الافريقيـة ، فقـد غـدت هـذه الواحـات المخضوضرة في وسط ذلك الامتداد الصحراوي الكبير مطمحاً لشيوخ القبائل ، كـل يـروم الحصول على واحدة منها أو قسم منها ، وعلى الأقل المشاركة في الاستفادة من خيراتها لصالح قبيلته ، ومن هنـا ازدادت عوامـل التنافس والتي كانت في الكثير الأعم تنقلب الى قتال داهم ، تطول فصوله بمأساوية لا حدود لها . وهكذا كانت تلك واحدة من بواعث ودواعي نشوب الحروب والقتال بين القبائل العربيـة أنى كانت ديارهم ومواطنهم سعياً وراء تحقيق أكبر قدر من الموارد المعاشية لهم ولعشائرهم وذراريها وأنعامها . كما أسهمت هذه البؤر الحياتية بدور حياتي كبير على صعيد القبائل العربية ، كذلك فقد نجم عن هذا التجميع قيام تجمعات حضارية رائـدة قامت حـول هـذه الغدران المائية أو الدلتات النهرية التي وفرت لمرتاديها أبسط متطلبات الحياة ، فقامت هنا وهناك العديد من كبريات الحضارات والدول التي عرفتها الأمم عبر تاريخ البشرية الطويل ، فعلى أراضي ما بين النهرين قامت الامبراطوريـات والحضـارات الكلدانيـة والبابليـة والآشورية ، وعلى دلتا النيل قامت الامبراطورية والحضارة الفرعونية ، وفي الحيـرة أقام المناذرة دولتهم ، وتدمر عروس الصحراء عرفت واحدة من كبريات الدول ، وذات الشيء في منطقة البتـراء حيث أسس الأنبـاط دولـة وحضارة ، كما سبق أن ظهرت في دمشق وحماة وحمص وحلب وصيدا وصور وجبيل والقدس واللاذقية وماري وايبـلا وقرطاجـة وغيرهـا العديد من الممالـك والامبراطوريات التـي تركت بصمات واضحة وهامـة على صفحات التاريخ البشري والحضارة الانسانية ومازالت الكثير من شواهدها المادية العمرانيـة منهـا والمكتوبة تشير اليها والى عراقتها ودورها في المسيرة الانسانية واسهاماتها الكبيرة في هـذا الميدان .

☐ تدوين الحرب العربيـة :

كما سبق الاشارة اليه أعلاه ، فان قسماً كبيراً من الحروب القبلية التي دارت رحاهـا بين العرب أنفسهم أو مجاوريهم ، كان الباعث اليها على وجه العموم هو العامل الاقتصادي ، من أجل الماء والطعام ، لذا كـان طبيعياً أن يتمرس أبناء القبائـل في بيئاتهـم المختلفـة والشديدة القسوة ، على تحمـل الظـروف والتأقلم معهـا ، وفي ذات الوقت الاستعـداد للذود عن حمى الظعينة ورد غارات الطامعين في مواردها الحياتية ، لهذا ، كانت القبائـل تعمل على تنشئة أولادها ومنذ سنوات مبكرة على ركوب الخيل واستخدام الأسلحة الفردية المعروفة واتقان استعمالها ، وكان يشرف على تلك التدريبات بعض مـن فرسـان القبيلـة المعدودين ، أو كان الآبـاء يقومون بتعليـم أولادهم فنون القتال وأساليب الطعن والطراد

في ميادين التدريب المجاورة لحمى قبائلهم . تبارت القبائل في الاشادة بمآثر رجالها الشجعان من خلال وسائل الاعلام المتوفرة وقتذاك ، والتي كان الشعراء والخطباء هم أبرز أدواتها ، فعن طريقهم كانت تنقل أخبار القبائل عبر الفيافي والقفار ، أو من خلال الأسواق التي كانت تعقد في أيام معلومة كسوق عكاظ وغيره حيث يتولى الشعراء والخطباء نقل تلك الأخبار عبر قصائد أو خطب تقال في هذه المناسبة أو تشيد بمناقب أحد رجالات القبيلة وبطولاته والأعمال التي قام بها في لقاء مع عدو ودوره في الذود عن حمى القبيلة ورد غارات المعتدين ، ويُعرّج الشعراء أو الخطباء على الحديث عن وسائط القتال المستخدمة سواء كانت سيوفاً أم رماحاً ونبالاً وغيرها، وكذلك بالحديث عن الخيول وصفاتها وأسمائها وغير ذلك . ومن هنا ، ولأهمية الشعراء وقتذاك ، كانت القبائل تفخر وتتباهى عندما يبرز من بين أبنائها شاعر كبير يلقى شعره الذيوع والانتشار ، حيث يمثل في حينه واحدة من أقوى وسائل الاعلام والنشر السريعة الانتشار والذائعة الشيوع والاستعمال . بل وأكثر من ذلك فكلما زاد عدد الشعراء في قبيلة من القبائل ازدادت تيهاً وتفاخراً بهم بين أقرانها من القبائل الأخرى . لذا فقد كان الشعر والخطابة ، هما الوعاءان اللذان بهما ومن خلالهما وصلتنا الكثير من الأخبار والمعلومات عن أهم المعارك ونتائجها التي جرت في العصر الجاهلي وأماكن تلك المعارك وأبرز أبطالها ، وفي ذات الوقت الحديث عن الأسلحة المستخدمة وأنواعها وأسمائها . لكن على وجه العموم، كان الشعر الوعاء الأكثر شيوعاً والذي ضم في قصائده تلك الأخبار ، ونقلت الينا كابراً عن كابر ، وما زلنا نرددها حتى أيامنا هذه بل وحتى يرث الله الأرض ومن عليها . من هنا ، لم تكن مقولة : الشعر ديوان العرب . مقولة هامشية وانما هي حقيقة تدل على أهمية وضخامة المعلومات التي وصلت الينا عبر القرون بالشعر ومن خلاله عن حياة وأيام وأخبار تلك القبائل والدول ، بما يوفر قسطاً كبيراً من الدقة ، وتغطية شبه شاملة لمعظم المعارك التي كانت تدور فيما بين تلك القبائل أو الدول .

فالشعر هو المصدر الأول والرئيسي الذي حفظ به العرب الكثير من المعلومات المختزنة ضمن قصائده . ونقلت الينا خلال هذه القرون الطويلة ، هذا ولن ندخل هنا في مجالات سبق أن ولجها الكثير من الدارسين ذوي الاختصاص بالأدب الجاهلي ، وناقشوا مدى أصالته وصدقه وغير ذلك من الأمور التي هي خارج نطاق بحثنا هذا . والمهم بالنسبة لنا ، أن الشعر الجاهلي موجود ولا يمكن أن يأتي من عدم ، وعالج العديد من الموضوعات الحياتية التي كان يألفها الانسان العربي ، فتطرق الشعراء لوصف مظاهر الطبيعة : المطر والنخيل والسحب ، ومشاهد من فصول الشتاء ، والغدران ومواضع المياه والسيول والنحل والعسل وبعض الصخور الغريبة والطيور ووصف بعض الحيوانات، فقد اشتهر البعض منهم بوصف الخيل مثل النابغة الجعدي، وأوس بن حجر بوصف الحُمر ، وعلقمة بن عبدة بوصف النعامة وغيرهم ، وعنوا بالمديح واستعاروا لذلك تشابيه مألوفة في حياتهم ، وتفننوا في الغزل والهجاء والحكمة ، ولم يَقِلَّ أثر الشاعر في السلم والحرب عن أثر الفارس، الشاعر يدافع عن قومه بلسانه يهاجم خصومهم ويهجو سادتهم ، ويحث المحاربين على

الاستماتة في القتال ، ويبعث فيهم الشهامة والنخوة للاقدام على الموت حتى النصر ، في حين كان الفارس يدافع عن قومه بسيفه ، وكلاهما ذابٌ عنهم محارب في النتيجة ، بل قد يقدم الشاعر على الفارس ، لما يتركه الشعر من أثر دائم في نفوس العرب ، يبقى محفوظاً في الذاكرة ومتناقلا على الألسنة ، يرويه الخلف عن السلف بينما يذهب أثر السيف بذهاب فعله في المعركة • والشعر هو الذي حفظ لنا تلك المعارك والقصص والأخبار حلوها ومرها التي ما تزال تتردد أحداثها وحوادثها بين أسماعنا ونشنف آذاننا بسماع أخبارها وترداد قصصها كل حين ، اضافة لوجود عدد كبير من الشعراء الفرسان •

☐ الحرب والشعر :

أفاد الشعر الجاهلي المؤرخين والباحثين في تأريخ الفترة الجاهلية ، فائدة جلى لا تقدر بثمن •

وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التاريخية على فائدته من الوجهة الأدبية، لأنه حوى أموراً مهمة من أحداث العرب الجاهليين ، لم يكن في وسعنا الحصول عليها لولا هذا الشعر • وكانت القبائل العربية تعتز وتتباهى كلما نبه فيها شاعر واشتهر وذاع صيته ، لأنها بذلك تضمن المنافح عنها والكفيل بالتصدي لهجمات المعتدين وأقوال المغرضين •

زخرت دواوين الشعراء الجاهليين بالعديد من القصائد أو الأبيات الشعرية التي تتحدث عن الحرب وويلاتها وآثارها وأخطارها ، والتي تدل على خبرة عظيمة ومعرفة متعمقة بالحرب وفنونها وأشكالها التي كانت تجري في تلك الأيام ، يقدم لنا الشعراء خبراتهم وتجاربهم من خلال الدروس المستفادة من تلك الحروب ، اذ تشكل تلك القصائد نواقيس خطر تدق لمن يملك قليلا من عقل ليتجنب خوض الحروب ويتحاشى ويلاتها ومخاطرها التي ذاقوا بعضاً منها أو تعرفوا على البعض الآخر خلال حياتهم الطويلة ••

من تلك النماذج والشواهد نسوق بعضاً من هاتيك الأبيات الشعرية التي تطرقت للحرب وتحدثت عنها وحذرت من مغبة اشعال فتيلها تناولها الكثير من الشعراء في أشعارهم، ولعل زهير بن أبي سلمى يعد واحداً من أبرز هؤلاء الذين ضرستهم التجارب والأعوام الطوال التي عاشها حيث نيف على الثمانين عاماً ، فحفلت أيامه وأعوامه بالعديد من الخبرات والأخبار ، نقل الينا بعضاً منها عبر شعره الرائع ، المليء بالحكم التي ما زالت وستبقى صالحة لكل عصر وأوان •

يقول زهير في حديثه عن الحرب عبر معلقته الشهيرة :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضرَ اذا ضريتموها فتضرم
فتعرككمْ عركَ الرحى بثفالها ... وتلقح كِشافاً ثم تُنْتِجْ فتُتْئِم

ان حديثه عن الحرب ليس بالحديث الغفل أو الجديد ، وانما هو حديث عن أمر معاش ، يعرفه الجميع ، وخبروا نتائجه وذاقوا مرارته وويلاته ، فليس الحديث اذن رجماً بالغيب ، فهو ينقل في آلته التصويرية الدقيقة الرائعة مشهداً وصورة أكثر حيوية عندما يرسم صورة الحرب الذميمة ، وآلية نشوبها ومن ثم تأجج سعيرها عندما تحتدم في ساحات القتال المعارك الطاحنة الضروس التي لا تبقي ولا تذر والتي ان هي الا أشبه بالنار تبدأ صغيرة ثم ما تلبث بعد أن تضطرم نيرانها فتصبح كتلة هائلة مخيفة تأكل كل شيء حتى باعثوها ومنشبوها ..

ان هذه الصورة الرائعة والدقيقة للحرب وتحولاتها وأخطارها ، ما كان لها أن تتأتى من خلال قريحة شاعر رومانسي عادي ، لاخبرة له بالحروب ومضارها ، وكيف لا ؟ وزهير قد أربى على الثمانين عاماً وقد شهد وعاصر العديد منها طيلة هذه السنوات المديدة الزاخرة بالأيام والحروب وخاصة حرب داحس والغبراء التي دامت زمناً طويلا ، ابتلي الكثيرون بويلاتها وحاق بعدد أكبر الشيء ذاته من الخراب والدمار ، ناهيك عن النفوس التي أزهقت والأموال التي أنفقت والبلايا التي حلت بالقبائل المتقاتلة طيلة هذه الحرب – المجزرة – المدمرة ، والتي كان شاعرنا واحداً من معاصريها وشهودها . فنقل لنا بريشة الرسام المرهف تلك الصور الحسية الرقيقة ، والمشاهد الواقعية الرائعة وعن ذات الموضوع يقول أحيحة بن الجُلاح الأوسي :

أعصيم لا تجزع فان الحرب ليست بالدعابة

وأبو قيس بن الأسلت يذكر الحرب بقوله :

قالت – ولم تقْصِد لقيل الخنا ... مهلاً فقد أبلغت أسماعي
أنكرته حين توسمته ... والحرب غول ذات أوجاع
من يذق الحرب يجد طعمها ... مُراً وتحبسه بجعجاع

في حين يصف جاس بن مرة الحرب (ت ٥٣٤ م) .

تأهب مثل أهبة ذي كِفَاح ... فان الأمر جلَّ عن التلاحي
واني قد جنيت عليك حرباً ... تُغِصُّ الشيخَ بالماء القراح
مُذَكَّرةً متى ما يَصْحُ منها ... فتى نشبَتْ بآخر غير صاح

وفي شعر مالك البكري نجد وصفاً للحرب :

يا بؤس للحرب التي ... وضعت أراهط فاستراحوا
والحرب لا يبقى لجا ... حمها التخَيُّل والمراح
الا الفتى الصبّار في النّجَدات والفرسُ الوَقّاح

وقيس بن زهير يقول :

وان سبيل الحـرب وعـر مضلة وان سبيل السـلم آمنـة سـهل

وفي هذا المجال يقول حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج المعروف بالطائي ، الذي اشتهر بجوده حتى قال عنه أبو عبيدة أجواد العرب ثلاثة : كعب بن مامة وحاتم طي وهرم بن سنان صاحب زهير بن أبي سلمى .

واني كأشلاء اللجام ولن ترى أخا الحرب الا ساهم الوجه أغبرا

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها وان شمرت يوماً به الحرب شمرا

لعل في هذه الشواهد ما يكفي للدلالة على معرفة العرب الجاهليين للحرب ومخاطرها، وقد نقلت الينا هذه الصور من عصور قديمة من خلال الشعر وبه ، فحفظها ونقلها الينا سالمة وستبقى كذلك لآماد طويلة ما دام الشعر موجوداً تحفظه الدواوين وتتناقله الأجيال بعد الأجيال طيلة مسيرة الحياة .

☐ أيام العرب :

عرفت الحروب التي دارت بين القبائل العربية نفسها أو بين بعضها والدول المجاورة كالفرس بالأيام . رغم أن الكثير منها كان يدوم لأكثر من يوم بل وأكثر من أعوام كما هو الحال في حرب البسوس التي دامت قرابة أربعة عقود كاملة من السنين ، وفنيت جراءها أعداد كبيرة من طرفي الصراع ، والتي شملت عدداً من الأيام منها : يوم النهى، يوم الذنائب يوم واردات ، يوم عنيزة ، يوم القصيبات ، يوم تحلاق اللمم ولقد كانت هذه الأيام مورد أقاصيصهم، وساحة بطولتهم، ومسرد حوادثهم ساهم بها زعماء القبائل ، ورؤساء العشائر ، والعديد من القرون الفرسان الذين ذاع صيتهم من خلال أفاعيلهم وبطولاتهم ، التي كانت تتناقلها الركبان ويتفاخر بذكرها وترداد أخبارها أفراد العشائر كبيرهم وصغيرهم ، نسائهم ورجالهم وغير ذلك . وكانت هذه الأيام من الكثرة والعدد لدرجة كبيرة ، فقد جمع أبو عبيدة كتاباً صغيراً حوى خمسة وسبعين يوماً وآخر كبيراً جمع فيه ألفا ومائتي يوم ، وان أبا الفرج الأصفهاني ألف كتاباً جمع فيه ألفاً وسبعمائة يوم ، هذا في حين جمع محمد أحمد جاد المولى ورفيقيه كتاباً أسموه أيام العرب في الجاهلية، اقتصروا فيه على الأيام المشهورة التي وصل اليهم تفصيل حوادثها وذكر أسبابها ورواية أشعارها وقصائدها ، أما الأيام التي لم يقع في الكتب الا ذكر عنواناتها مجردة من الحوادث وذكر الأسباب فقد جاوزها اختيارنا ، كما يقول المؤلفون في مقدمة الكتابة .

أهمية هذه الأيام تتأتى من كونها واحداً من أهم المصادر عن الحروب والتي وصلت الينا من خلال الأشعار التي قيلت فيها سواء من حيث الفخر والاعتزاز بانتصارات أحرزتها هذه القبيلة أو تلك ، أو وصف لمجريات وقائعها نقلت الينا بريشة الرسامين والمصورين البارعين في هاتيك الأيام وهم الشعراء .

كان من أبرز هذه الأيام هو :

١ ــ أيام القحطانية فيما بينهم عشرة أيـام .

٢ ــ أيام القحطانيين والعدنانيين تسعة أيـام .

٣ ــ أيام العـرب والفرس منهـا يوما الصفقة وذي قار .

٤ ــ أيـام ربيعـة فيمـا بينها حـرب البسـوس والتـي اشتملت عـلى ستة أيـام .

٥ ــ أيام ربيعة وتميـم خمسة عشـر يومـاً .

٦ ــ أيام قيس أحد عشر يوماً .

٧ ــ أيام قيس وكندة عشرة أيام .

٨ ــ أيام قيس وتميم سبعة أيام .

٩ ــ أيام ضبة خمسة أيام .

١٠ــ أيام متفرقة ثلاثة أيام .

وهذه تشكل كما كبيراً حوى من المعلومات الشيء الكثير عن أماكـن وأوقات نشـوب هذه الصراعات القبلية المسلحة ، والمشتركين في القتال من كلا الطرفين ، وأبرز الفرسان ونتائج الحروب وأهم الأسلحة المستخدمـة في هذه الحروب ، وهي التي تشكل كما لا بأس به من المعلومات المفيـدة في مجـال التاريـخ العسكري . وهكذا من خلال الشعر العـربي القديم نقلت الينا العديد من الصور حيـال تلك الحروب ، فكان الشعر سجلا حفظ لنـا وبأمانة تلك القصائد الشعرية الرائعة التي قالها الشعراء سواء كانوا من الفرسان الذين ساهموا وبشكل فعال ، أو قالها شعراء القبائل المشاركة في هذه الحروب .

آ ــ الشعر وأماكن الحروب :

ان مطالعة العديد من القصائد الشعرية الزاخرة بها دواوين الشـعراء نجدها مـلأى بالمعلومات المفيدة من الناحية العسكرية والتي يمكننا أن نخلص منها ما يلي :

ــ أسماء وأماكن الحروب التي جرت بين القبائـل .. فمن خـلال القصائد نجـد العديد من الاشارات للأماكن التي كانت تدور فوقها تلك الحروب ومنها تم استخلاص أسماء الحروب والتي عرفت بالأيـام أو الغـارات والغزوات وغيرها ، ومن ذلك نسـوق بعض الشواهـد .

فمن يوم الصفقة يقول الأعشى يمـدح هوذة بن علي الحنفي الذي كان مكلفاً بخفارة عير كسرى أنوشـروان التي كان يرسلهـا لليمن وهي محملة بالنبع ، وقد دارت الحرب بين قبيلة تميم والفرس ودارت الدائرة على تميم وعرف بالصفقـة ، لأن كسرى أصفـق الباب على بني تميم في حصن المشقر ، ويعرف هذا اليوم أيضاً بيـوم المشقر ، وهـو حصن بالبحرين ، ففي هذا يقول الأعشى :

سائـل تميماً بـه أيـام صفقتهـم　　لمـا رآهـم أسـارى كلهـم ضرعـا
وسـط المشـقر في غبـراء مظلمـة　　لا يسـتطيعون بعـد الضـر منتفعـا

وفي يوم ذي قار، وهو اليوم الذي تمكنت فيه العديد من القبائـل العربية المتضامنـة المتضافرة من ايقاع اكبر هزيمة تحيق بالفرس ، وقد جرت أحداث هـذا اليوم بعد بعث الرسول العربي الكريم محمد بن عبدالله (ﷺ) واخبر بها اصحابه حيث قال : اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا • وذو قار ماء لبكر قريب من الكوفة، ويعد هذا اليوم من اكثر أيام العرب فخراً واكثرها ذكراً لدى الشعراء الذين تغنوا بالانتصار العربي الذي تحقق ولأول مرة على الطغيان الفارسي الذي كان مسيطراً على معظم المناطق الشرقية من بلاد العرب والتي تعـرف اليوم بالكـويت والبحرين وقطر والامارات العربيـة المتحدة وعمان وحتـى اليمـن • فقال اعشـى قيس مفتخرا بهذا اليوم قصيدة رائعة منها :

لـو أن كـل معـد كـان شـاركنـا　　في يوم ذي قـار ما أخطاهم الشـرف
لما آتونـا كـان الليـل يقـدمهـم　　مطبق الارض تغشاهـا بهم سـدف
بطـارق وبنـو ملـك مـرازبـة　　مـن الاعـاجـم في آذانهـا النطـف

وفي قصيدة آخرى يمدح نفس الشاعر بني شيبان مشيراً لليوم ذاته :

فصبّحهم بالحنـو حنـو قـراقـر　　وذي قـارهـا منهـا الجنـود فقلّت

وأما العديل بن الفرج العجلي فقال :

ما أوقـد النـاس مـن نـار لمكرمـة　　الا اصطلينـا وكنـا مـوقـدي النار
وما يعـدون مـن يـوم سـمعت بـه　　للنـاس أفضـل من يـوم بذي قـار
جئنـا بأسـلابهـم والخيـل عابسـة　　لمـا استلبنـا لكسـرى كـل أسـوار

وقال أبو كلبة التيمي :

لـولا فـوارس لا ميـل ولا عـزل　　مـن اللهـازم ما فظلتم بـذي قـار
ان الفـوارس من عجـل هم أنفـوا　　من أن يخلوا لكسـرى عرصـة الدار
لا قوا فوارس مـن عجـل بشكتهـا　　ليسـوا اذا قلصت حـرب بأغمـار
قد أحسنت ذهل بن شيبان وما عدلت　　في يوم ذي قار فرسـان ابـن سيـار

وقد أشاد الكثير من الشعراء بهذا اليوم والنصر الذي أحرزه العرب ممثلين ببعض قبائلهم وأفاضوا في كيل المديح لفرسان العرب وقادة القبائل المشاركة في القتال بل وأكثر من ذلك ، وجه البعض منهم اللوم والتقريع لعدد من القبائل وقادتها الذين لم يشاركوا في صنع هذا النصر العربي الكبير ، والذي لولا قصائد أولئك النفر من الشعراء لما وصلتنا أخبار هذا اليوم ووقائعه وتفاصيل أحداثه ٠

وخلال تجوالنا عبر صفحات الدواوين الشعرية يمكننا الوقوف على عدد من أسماء الأيام الكثيرة منها : قال ابن الرعلاء الضبابي عن يوم عين أباغ :

كم تركنا بالعين عين أباغ　　من ملوك وسوقة أكفاء
أمطرتهم سحائب الموت تترى　　ان في الموت راحة الأشقياء
ليس من مات فاستراح بميت　　انما الميت ميت الأحياء

وعين أباغ واد وراء الأنبار على طريق الفرات الى الشام وكان هذا اليوم للحارث الأعرج بن جبلة ملك العرب بالشام (ت ٥٥٦ م) على المنذر بن ماء السماء ملك العرب بالحيرة والذي يعرف بالمنذر الثالث بن امرىء القيس ، وماء السماء اسم أمه وهو من أشهر ملوك الحيرة وأكثرهم غزوا وفتحا ٠ وقال عمرو بن حوط بن سلمى بن هرمى بن رباح عن يوم طخفة ، وهو لبني يربوع من تميم على المنذر بن ماء السماء وهو موضع في طريق البصرة الى مكة ، حيث يقول :

قسطنا يوم طخفة غير شك　　على قابوس اذ كره الصباح

ونجد لدى الأعشى اشارة ليوم أوارة جبل لبني تميم ، وهو للمنذر بن ماء السماء على قبيلة بكر ، حيث يقول :

ومنا الذي أعطاه بالجمع ربه　　على فاقة وللملوك هباتها
سبايا بني شيبان يوم أوارة　　على النار اذ تجلى به فتيانها

وغير ذلك كثير ، وهي أكثر من أن يطالها حصر في دراسة كهذه ، تروم تسليط الأضواء على بعض الجوانب الدالة على الدور الذي أسهم به الشعر العربي من حيث التأريخ العسكري للحروب ، اذ من النادر أن نجد شاعرا أو ديوانا شعريا لأي من شعراء العرب الجاهليين يكاد يخلو في مجمله أو في قصائده من ذكر لأيام العرب ، سواء شارك بها هذا الشاعر أو عاصرها ، أو شاركت به قبيلته ٠

ب ـ نتـائج الحـروب :

لم يكتف الشعراء بايراد أيـام وأسماء الحروب التي دارت بين القبائل العربيـة في العصر الجاهلي وانما كانوا يتطرقون أيضاً للحديث عن نتائج هذه الحروب ، والاشـادة بالانتصارات التي تحرزها هذه القبيـلة أوتلك ، وأحياناً ومن خـلال نفس القصائـد نجد العديد من الأبيات الشعرية التي يحـاول الشعراءفيها الاستهزاءبخصومهم أو ترداد وذكر بعض العيوب وخاصـة هزيمتهم أو فرارهـم من المعارك ، أو اتخـاذ موقف متخـاذل ازاء بعض الحروب ، والشواهد في الشعر العربي القديم كثيرة ، نقدم بعضاً منها ، للدلالة على مدى الاسهام الذي قـام به الشـعر والشعراء في التدوين والتأريخ العسكري للعرب قبل الاسلام ، بشكل غـير مباشر ، لأنهـم عندما نظموا تلك القصائد لم يكن يدور في خلدهـم أنهم يؤرخون لمعركـة أو واقعة معينـة ، بل كانت القصـائد تنظم أو تقـال وفقاً لهـذه المناسبة أو تلك ومدى تأثيرها في أعماق الشاعر ومن ثم افلات عفاريت الشعر من عقالها حيث تخرج تلك القصائد ، وفي هذا السياق نجد بعضاً من المؤشرات والشواهد المفيـدة ، منها قول قيس بن زهير عندما وقف على جثة حذيفة بن بدر قتيل داحس والغبراء :

شـفيت النفس مـن حمـل بن بـدر — وسيفي مـن حذيفـة قـد شـفاني
شفيت بقتاهـم لغليـل صـدري — ولكنـي قطعت بهـم بنـانـي
فـلا كانت الغبـرا ولا كـان داحس — ولا كـان ذاك اليـوم يوم دهـانـي

وقيس هو سيد بني عبس وكـان يلقب بقيس الرأي لجودة رأيه وكان أيضاً مجرباً ، من أقواله « ان مع الثروة والنعمة التحاسد والتباغض والتخاذل ، وان مع القلة التماضد والتوازر والتناصر» وله أيضاً : « أربعة لايطاقون : عبد ملك ، ونذل شبع ، وأمة ورثت ، وقبيحـة تزوجت » .

أما عروة بن الورد فيذكر فرار الحكم بن الطفيل في نفـر من أصحابـه حتى قطـع العطش أعناقهم فماتوا ، في حين وضع الحكـم حبلا في عنقه وتدلى من احدى الأشجار فاختنق مخافة أن يقـع في الأسر ، وكـان ذلك في يوم الرقم الذي جرت وقائعـه فيما بين غطفـان وبني عامر ، والرقم جبـال دون مكة بديـار غطفان وفي هذا يقول عروة :

ونحن صبّحنـا عامـراً في ديـارهـا — عـلالـة أرمـاح وضـربـاً مذكـرا
بكـل رقـاق الشـفرتين مهنـد — ولـدن مـن الخطي قد طرّ أسمرا
عجبت لهـم اذ يخنقـون نفـوسـهم — ومقتلهـم تحـت الوغـى كان أجلرا

وهنا نجد نوعاً من التهكم والسخرية اللذين يبديهما الشاعر حيـال الهاربين ، يصل في النهاية الى القول أنه كان أجدر وأفضل لهم أن يموتوا ميتة الأبطال بين طعن القنا وخفق

البنود ، بدلا من أن يموتوا خنقاً مخافة الأسر ۰ أما خداش بن زهير فيقول عن يوم العبلاء وهو ذلك اليوم الذي كان لصالح قيس على كنانة وقريش ، والعبلاء علم على صخرة بيضاء الى جانب عكاظ :

ألم يبلغك بالعبلاء أنّا ... ضربنا خندفاً حتى استفادوا
نبني بالمنازل عز قيس ... وودوا لو تسيخ بنا البلاد

ويقول :

ألم يبلغك ما قالت قريش ... وحتى بني كنانة اذ أثيروا
وهمناهم بأرعن مكفهر ... فظل لنا بعقوتهم زئير
تقوّم مارن الخطي فيهم ... يجيء على أسنتنا الخرير

لعل خير ما ننهي به هذا الجانب عن الدور الهام للشعر العربي في تأريخ وتدوين الحروب والوقائع ، أن نذكر بعضاً من أبيات أعشى قيس التي قالها مفتخراً بيوم ذي قار ونتائجه المشرقة للعرب كافة ، فهو يقول :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم ... منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا ململمة شهباء يقدمها ... للموت لا عاجز فيها ولا خرف
فيها فوارس محمود لقاؤهم ... مثل الأسنة لا ميل ولا كشف
بيض الوجوه غداة الروع تحسبهم ... جنان عين عليها البيض والزعف
لما رأونا كشفنا عن جماجمنا ... ليعلموا أننا بكر فينصرفوا
قالوا : البقية والهندى يحصدهم ... ولا بقية الا السيف فانكشفوا
لو أن كل معد كان شاركنا ... في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف

* * *

مصطلحات تراثية للقصة العربية

• د. عبد الله أبو هيف

هناك ثلاث محاولات لوضع تعريفات لمصطلحات القص والسرد العربية، الأولى من صنعة عبد العزيز عبد المجيد في كتابه بالانكليزية :

« THE MODERN ARABIC SHORT STORY »

(مطبوع بدار المعارف بالقاهرة ـ دون تاريخ) ، والثانية من صنعة مجدي وهبة وكامل المهندس في « معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب » (بيروت ط ١ في عام ١٩٧٩ و ط ٢ في عام ١٩٨٤) ، والثالثة من صنعة علي عبدالحليم محمود في كتابه « القصة العربية في العصر الجاهلي » (دار المعارف ـ القاهرة ط ٢ ـ ١٩٧٩) .

وقد اعتمدنا جزئياً على محاولاتهم ، وأكملناها من واقع دراستنا للقصة العربية . وأضفنا اليها بعض المصطلحات التي أطلقها النقد الحديث ، وأسهمت اسهاماً كبيراً في رؤية أفضل للتراث القصصي العربي :

ـ أ ـ

☐ **الأسطورة :**

ترادف الخرافة غالباً ، وتتضمن أحداثاً تنبؤية ، وتفسر وعي الناس في فترة تكون العقل وتعلل مظاهر الطبيعة والنفس البشرية الأولى ، وجاءت في القرآن بمعنى الحكاية ، « أساطير الأولين » ، « حكايات القدماء » ، وعرفت الأساطير مثل الحكايات بالأباطيل والأكاذيب والأحاديث التي لا نظام لها ، أي ابتعادها عن الواقع واغراقها في الخيال في سعيها للتعبير عن تجارب الانسانية البدائية ازاء قوى الطبيعة والآلهة الخيالية والكائنات الواقعية . وثمة أساطير عربية كثيرة في الجاهلية .

ولم يذكر لنا صاحب « الفهرست » الأساطير كنمط أدبي عربي ، أي انها ليست شائعة في عصره ·

والأسطورة قصة خرافية ، تبرز فيها قوى الطبيعة في صور كائنات حية ذات شخصية ممتازة ، وتشيع في الأدب الشعبي مثل أسطورة أهل الكهف · وبهذا تختلف الأسطورة عن الملحمة والخرافة ، فالملاحم تسجل أفعالا انسانية ، والخرافة صيغة سردية تخدم أهدافاً تعليمية وترفيهية عن طريق تصوير الحيوانات أو الجمادات أو المخلوقات الأخرى المتخيلة.

ومن أساطير العرب قبل الاسلام قصة اساف ونائلة ، وقصة طسم وجديث ، وقصة عاد والريح ، وقصة ثمود والناقة ، وقصة مصرع الزباء ، وقصة ربيبة الجان ·· الخ ·

☐ أيام العرب :

هي قصص عن حروب العرب ووقائعهم ، وكانت تسمى بأسماء الأماكن التي دارت فيها غالباً ·

وثمة كتب قصصية حديثة تروي هذه الأيام مثل « أيام العرب في الجاهلية » لمحمد أحمد جاد المولى وزميليه ، وقد بلغت هذه الأيام عندهم ثلاثة وثمانين يوماً ، أما المصادر القديمة مثل أبي الفرج الأصفهاني ، فقد استقصاها في مؤلف له ، وأحصى ألفاً وسبعمائة يوم ، ولكن الكتاب مفقود ·

ومن المتفق عليه ، ان كل يوم وصلنا نجد فيه جذور لقصة كانت كاملة مستوعبة في محتواها أحداث يوم حافل بالأحداث والوقائع ·

ـ ت ـ

☐ التنضيد :

نسق الربط بين أكثر من قصة مستقلة بوساطة شخصية أو رمز أو عبارة أو لازمة لغوية ، وكان هذا شائعاً في التراث القصصي العربي في قصص الرحلات والأسفار ، وفي الطرائف والنوادر ، وفي المغامرات التي حوتها السير الشعبية ·

☐ التحفيز (الحافز) :

الحافز هو الوحدة الحكائية الأصغر في كل نص قصصي ، وهو موجود في الأنماط القصصية القديمة كلها ، بل ان أحدث مصطلحات القصة ، نظريتها وعلمها ، مستنبطة من التراث القصصي القديم ، ولا سيما الشعبي منه ، كما فعل فلاديمير بروب في بحوثه الرائدة في هذا الميدان ·

أما التحفيز فهو نسق الربط بين الحوافز ، وكان موجوداً في الرواية الشطارية وقصص المكدين ، والروايات العاطفية والسير الشعبية ، وكان اكتشافه في القرن التاسع عشر تطوراً كبيراً في فهم القصة حين نظروا في فعلية القصة الحقيقية وافتراقها عن القصة

المتخيلة من حيث التنامي المنضبط والتعليل لما يحدث والايجاز والكثافة ونفي المصادفة .. الخ .

□ التحقيق القصصي :

نمط قصصي لا يتقيد بالطول أو حدود عملية القص ، وقد شاع في الكتابة القصصية الحديثة في مطلع القرن العشرين بتأثير الصحافة ويلجأ فيه كاتبه الى المزج بين القصة والتحقيق الصحفي ، ويتحول أحيانا الى تقرير مليء بالقصص أو السرد والحقائق في الوقت نفسه .

- ح -

□ الحديث :

فن قصصي يتصل بالحدث أو الفعل حين يخبر عنه أو يروى . وقد يكون دينياً أو غير ديني ، وقد انطلق بقوة مع الجماعات الاسلامية والفرق والنحل ، وشاع في مجالس الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء والقواد والحكام فالأحاديث القصصية تروى في مجالس ، وأول تسمية أطلقت على الأحاديث القصصية عن الأنبياء والرسل وغالباً ما تتضمن حكايات أو سرداً لوقائع متخيلة ، من باب المبالغة أو التهويل أو تمويه الوقائع بقصد الوعظ والارشاد ، ثم صارت هناك مجالس للمحدثين في المساجد والجوامع ودور المثقفين .

□ الحكائية (المتن ، البناء) :

الحكائية هي عملية سرد القصة (المتن) كما حدثت في الواقع أو الحقيقة ، ولكنه ، نظرياً ، غير موجود الا عندما يبنيه الحاكي أو الراوي أو السارد ، ونسميه بعد ذلك البناء الحكائي ويميز النقد الحديث ولاسيما الشكلانيون الروس بين بناء حكائي بسيط في القصص القديمة وبين بناء قصصي معقد في القصص الحديثة .

□ الحكاية :

فن قصصي يستند الى فعل « حكى » ، وله معنيان الأول هو التقليد أو المحاكاة ، وقام به في الواقع « الحكواتي » ، والثاني هو الرواية والاخبار والقص ، وقام به في التاريخ الأدبي غالبية الكتّاب والمؤلفين الذين يستعينون على موضوعاتهم بالحكايات ، ومثاله الأبرز الجاحظ .

وذكر صاحب «الفهرست» كتباً استعملت الحكاية بمفهوم القصة ، وقرنتها بالخرافة ، وهي التي تمزج بين التاريخي والخيالي . ويمكننا أن نعرف الحكاية ، كما هو شائع ، وفق ما يلي : لفظ عام يدل على قصة متخيلة أو على أي سرد منسوب الى راوٍ .

ومن الأمثلة على الحكاية ، حكاية أبي القاسم البغدادي لأبي المطهر محمد الأزدي ، وهناك حكايات اللصوص والشطار ، وحكايات المسافرين والرحالة ، ومن أولها ما ورد في « تاريخ عمان » للأزبوسي الذي يسرد رحلات وتنقلات القبائل الجاهلية ...

- خ -

□ الخبـــر :

فن قصصي قصير يغلب عليه قول الحقيقة ويشير الى سرد شيء من التاريخ ، وما لبثت أن داخلته المعلومات المزيفة أو المختلقـة أو الخيالية • ومن أمثلة « الخبر » التي تقارب مفهوم الجنس الأدبي القصصي كتـاب « المكافاة » لأحمد بن يوسف المصري (ت ٩٥١ م) .
ويرى كثير من النقاد أن الخبر كفـن قصصي يشير الى أكثر نزوعات التجديد القصصي ، كما تعرف اليوم ، في الأقاصيص الانطباعية •

□ الخـرافـة :

« خرافـة » اسم رجـل من عذرة كمـا في « الصحـاح » أو مـن جهينـة كمـا لابن الكلبـي ، استهوتـه الجـن واختطفتـه ثـم رجع الى قومه فكان يحدث بما رأى فيعجب منه الناس فكذبوه ، فجرى على ألسن الناس وقالوا : حديث خرافة ، أو حـديث مستملح كذب ، كما عند الزبيدي في « تاج العروس » ، ثم اكتسبت الخرافة معانيهـا فيما بعد لتشير الى فـن قصصي دلالة على أحـداث خياليـة مروية على لسان الحيوان ، أو للدلالة على أحداث خارقـة أو الأحـداث العجـائبيـة والغرائبية ، أو الأحداث مع الجان ، وامتد المفهوم ليشمل الأحـداث غير المعقولـة أو المضحكة ، على أن الخرافة تشير الى مغـزى أخـلاقي أو معنى أخـلاقي حسـب راويهـا وناقلها •

- ر -

□ الروايـة :

هي فن حـديث ، وتستمد معناهـا في الثقافة العربية من فعل « روى » ، أي اعادة السرد لنقل الأحداث وتوصيل القصص والقصائد والتقاليد الأدبية •
وقد اختلط بمعنى « السير » أو القصة الطويلة التي تنقل ترجمة حياة بما يدخل في التخيل ، وقـد ظل هـذا المعنـى سائداً حتى منتصف القرن التاسع عشر •

والرواية الحديثة ، في نشأتها ، انبثقت من القصص التاريخي والرومانسي. والرواية تفيد أيضاً حالة من حالات النص الذي أجريت فيه تعديلات اما بفعل النسـاخ أو الرواة أو المترجمين ، ومثال ذلك روايات **الحديث الشريف** والترجمـة السبعينية للعهـد القـديم ، وهناك معايير للراوي وصدقه والوثوق به •
ثم تطور مفهوم الرواية في الأدب بعيداً عن الدين ، فصـار الى سرد نثري خيـالي طـويـل •
وهكذا ، نستطيع أن نعـد بعض الكتب القصصية القديمة حاملة لبذور فن روائـي مثل « قصة البراق » ، وهي واحدة من مجموعة قصصيـة لعمر بن شـبه (ت ٢٦٢ هـ) سماها « الجمهرة » ، و « حـرب البسوس » والقصص العاطفيـة مثل كثير لبنى وجميـل بثينة ، والقصص العاطفية الموضوعة عـن « مجنون ليلى » وقصـة « حي بن يقظـان » لابن طفيل المشهورة •

ـ س ـ

☐ السـرد :

هو مصطلح حديث للقص ، لأنه يشتمل على قص حدث أو أحداث أو خبر أو أخبار سواء أكان ذلك من صميم الحقيقة أم من ابتكار الخيال ، والسرد بعد ذلك عملية يقوم بها السارد أو الحاكي أو الراوي ، وتؤدي الى النص القصصي ، والسرد موجود في كل نص قصصي حقيقي أو متخيل ·

☐ السمر (المسامرة ، الليلة) :

فن قصصي يقوم على المناقشة أو المحادثة أو الخطبة أو المحاضرة في الأمسيات ·

ويستمد تقليده من عادة اجتماعية مألوفة عند العرب منذ الجاهلية ، حيث يجلسون في خيمة أو قرب النار في الليل ، ويستمعون الى أحد ما يسرد القصص داخل نقاش أو محادثة أو خطبة أو محاضرة ·

ويلعب خيال المسامر ، الراوي أو القاص ، دوراً كبيراً في اختراع أحداث جديدة ، وكانت المسامرة أساساً لمجالس الأدب عبر العصور في قصور الخلفاء والأمراء الذين اجتمعوا مع العلماء والأدباء والشعراء لمناقشتهم والاستماع اليهم · وفي زمن صاحب « الفهرست » كان هناك كتب كثيرة تحت عنوان « سمر » ، وفي « تاريخ الأدب العربي » لكارل بروكلمان فصول متعددة لكتب أدب السمر، اذ جعل كل ماله علاقة بالقص سمراً ·

ويطلق على السمر مفهوم « الليلة » ، كما فعل التوحيدي في مقابساته وأمسياته التي سامر فيها أقرانه · وربما كان السمر منطلق تسمية الليلة في « ألف ليلة وليلة » ·

وما يزال تقليد السمر قائماً الى يومنا هذا في الأمسيات القصصية والأدبية ·

☐ السـيرة :

فن قصصي يعنى بوصف الطريقة التي حدثت فيها الأفعال الخاصة بشخص مما سار من سلوكه بين الناس ، وسار فعل بمعنى « مشى » أو « مضى » ، فالسيرة هي الفعل الذي مضى ومشى حتى صار باقياً يروى ، وبدأ هذا الفن مع السيرة النبوية وسير الأولين القدماء ، ثم توسعت الكتابة في السيرة فشملت سير العشاق والأبطال ·

وهكذا تدل السيرة على تاريخ مدون لحياة شخص مهم ، وتتداخل فيها الوقائع والأخيلة ·

وفي التراث القصصي العربي القديم ، ما زالت سير كثيرة متداولة في طبعات شعبية ورسمية مثل « سيرة الزير سالم » و « سيرة عنترة بن شداد » ، و « سيرة فيروز شاه » و « سيرة الأميرة ذات الهمة » و « سيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذي يزن » و « سيرة حمزة البهلوان » و « سيرة علي الزيبق » و « سيرة الظاهر بيبرس » و « السيرة الهلالية » ·

- ص -

☐ **الصورة القصصيـة :**

نمط قصصي انطباعي موجز وقصير يهدف الى رسم صورة متخيلة غالباً للطبيعة أو البشر مع التركيز على فكرة معينة ، ويجهد كاتبها لنقل الصورة القصصية كما انطبعت في ذهنه أو خياله . ويبدو في هذا النمط الكاتب محوراً للقصة فيما يتخيل أو يسرد أو يوجه من أفكار .

وقد كتب غالبية رواد القصة العربية الحديثة هذا النمط ، وسماه بعضهم « صورة قلمية » .

- ق -

☐ **القص ، القصة ، القاص :**

اسم من فعل « قصّ » ، ويعني تتبع الأثر خطوة خطوة ، أو تتبع الأثر كلمة كلمة أو معلومة معلومة ، وقد ورد في القرآن « نحن نقص عليك أحسن القصص » ، كما وردت لفظة قصة أو مشتقاتها أكثر من ثمانية مرات في القرآن الكريم .

والقاص هو راوي القصة على الورق أو بين الناس وهو الذي يتتبع الحوادث ، وقد يكون مؤلف القصة أو مجرد راو لها .

وكانت مهنة القصاصين شائعة منذ القرن الأول الهجري حتى منتصف القرن العشرين على اتساع ، وحتى اليوم على ندرة .

وقد أطلق العرب القصة على الحديث والخبر والسمر والخرافة أيضاً ، مما يشي بالتداخل بين هذه المصطلحات .

وأقدم القصص العربية المدونة وردت في القرآن ، ثم نشأ القصص الديني ، واتخذ من المساجد أمكنة له .

وزاد الاقبال على القصاصين في عهد الخلفاء الأولين الذين أباحوا لهم التحدث في المساجد ، وأوكلوا اليهم مهمة الوعظ في السلم ومهمة التحريض على الجهاد عند الحرب ، وعلا شأن القصاصين في عهد معاوية بن أبي سفيان حتى استقدمهم الى قصره ، وأمر بتدوين قصصهم .

واتسعت القصص العربية ودونت في العصر العباسي . ويشير ولع الكتّاب والمؤرخين والمفسرين والفقهاء والمتصوفة بالقصة الى أمر طالما أشير اليه ، وهو أن القصة أفسدت كل أنباء المؤرخين ، لما في القصة من خيال لا يوافق الوقائع التاريخية .

وقد بدأت القصة العربية عن طريقين :

الأول : هو الرواة العرب المؤلفين الذين انطلقوا من التاريخ أو الحقيقة أو الواقع ، ثم تداخلت الوقائع مع التخيل ، ومن أوائل التأليف القصصي ما جاء في « كتاب التيجان

في ملوك حمير » المنسوب لوهب بن منبه (ت ١١٠ هـ) ، وهو كتاب يجمع بين الحادثة التاريخية والقصص الديني ، وبين الخرافة والأسطورة .

والثاني : هو الرواة الحكواتيين الذين يؤدون القصص أمام حشد من الناس ، ومن هؤلاء تشكلت بعض الظواهر المسرحية .

فالقص في الثقافة العربية هو استعراض لأحداث ماضية كلاماً ، وقد تكون الحوادث تاريخية مختلقة أو مزيجاً منهما .

والقصص فن للترويح والتسلية والامتاع على الأغلب ، وللتثقيف والتهذيب والوعظ على الأقل . وظهر هذا الفن ، كما لاحظنا ، في عصر التجميع في القرنين الهجريين الأول والثاني ، في عهد الدولة الأموية والعصر العباسي ، وليس ابن المقفع ـ كما يقال ـ (١٤٢ هـ ن) أول قاص يفكر بالترجمة أو الاقتباس فيما نقله عن الهند والفرس في « كليلة ودمنة » و « الأدب الصغير والأدب الكبير » ، لأننا نجد أول الظواهر القصصية في كتب الاخبار بين العرب وواضعي السير والمغازي .

والنقلة الأولى كانت مع الأدباء والمفسرين والمؤرخين أمثال عبيد بن شرية الجرهمي في كتابه « أخبار ملوك اليمن » وابن هشام في « السيرة النبوية » حتى أن بعض الأئمة عدوا التفسير والملاحم والمغازي أقرب الى القصص منها الى الحقائق التاريخية .

غير أن العصر العباسي الثاني شهد نقلة أخرى في التفريق بين الأدب الشعبي والأدب الرسمي ، حيث طور المكدون والمتحامقون القصص الى أشكال متميزة كالمقامة ، بينما طور الأدباء والمثقفون القصص الى ما يناسب الأدب الرفيع كالليلة والسمر ، ومن الصعوبة أن نشير الى حدود دقيقة بين هذه الأشكال ، على أننا نستطيع أن نورد تعريفات مقبولة لهذه الأشكال من خلال النصوص القصصية نفسها :

وفي العصر الحديث ، تأثر القصاصون بتراثهم من جهة ، وبالتراث الغربي من جهة أخرى . وغني عن القول ، أن مفهوم القصة القصيرة ، مثل الرواية ، هو ابن العصر الحديث ، عند العرب ، ولدى سواهم من الشعوب الأخرى .

ـ ك ـ

□ الكتاب القصصي :

مصطلح حديث يطلق على بعض الأنماط القصصية التي يجمع بينها تنضيد ما ، حيث يتألف النمط القصصي من مجموعة قصص أو حكايات أو أخبار قصصية أو أحاديث سمر ، وهذه الأنماط موجودة في « ألف ليلة وليلة » و « رحلات السندباد » و « علي الزيبق » و « السيرة الهلالية » و « طوق الحمامة » لابن حزم الأندلسي ، والأخير كتاب قصصي في الحب .

- م -

□ المثـــل :

فن قصصي يوجز بحكمة تعتمد على قصة فيها الخبرة والتجربة الانسانية وغالباً ما يعمد رواة المثل الى الوهم أو مبالغة القص لتدعيم القصد ، لأن المثل يعني الحكمة النابعة من قصة واقعية ـ وهمية ·

□ الملحمـــة :

فن قصصي يقال شعراً وأسلوبه رفيع ·ويتحدث عن مآثر بطولية كما هو الحـال في السـير الشعبيـة ·

وتعد سيرة «أبو زيد الهلالي» مثالا مناسباً للملحمة ، وهناك قصائد طويلة هي ملاحم مثل ملحمة أبي تمام « فتـح عمورية » (القـرن الرابع الهجري) ·

□ المقـال القصصي :

نمط قصصـي ظهـر في أواخر القـرن التاسع عشر بتأثير الصحافة والاتصال بالغرب وحاجات التأثير بالجماهير ، يركز فيه كاتبه على الفكرة بالدرجة الأولى ، ويبدأ بمقدمة خطابية وعظية ، وتكون أحداث القصة برهاناً أو تمثيلا للفكـرة ، وغالباً ما يختمه كاتبـه بتوكيد قصده الفكري والوعظي أو الارشادي ، ونستطيع أن نجد صلة لهذا النمط القصصي بالحديث والسمر والليلة في التراث القصصي العربي القديم لأن المقال القصصـي غالبـاً ما يتحول الى محاضـرة أو محاورة فكريـة متخيلة ·

□ المقـامـة :

نوع فريد من أنواع القصة ، ظهـر في القرن الرابـع الهجـري ، اشتهر بكتابتـه الهمذاني ، وصار فناً قصصياً مستمراً الـى يومنا هذا ، يسرد هذا الفن مغامرات المكدين والمحتالين والمتسـولين في التـراث القصصي غالباً ، الى أن صار في العصر الحديث وسيلة قصصية لنقد المجتمع والسخرية من النماذج السلبية ، وسبيلا الى وصف معاناة الجماعات الاجتماعية المغمورة ·

يعتمد هذا الفن على البلاغة اللغويـة والبديع اللفظي والأسلوب الخطابي والمنمق ، ويضم غالباً الأشعار ، أما نثرها فله قافية ·

والمقامة في اللغة هي المجلس ، حسب ابن منظور ، في « لسان العرب » ، ومقامات الناس مجالسهم ، ووردت في القـرآن اسماً لموضـع القيام : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ».

ويشير هذا الجذر اللغوي الى اتصال المقامة بفن القص في مجلس أو موضع مسامرة ، ثم تطور المدلول اللغوي للمقامة ليشمل ألوانا من القصص والمواعظ والأحاديث حتى تكونت فناً مميزاً عند بديع الزمان · وهناك أنواع للمقامات في نشأتها مثل « مقامات الزهاد والوعاظ » · وهكذا ، صارت المقامة الفنية نمطاً قصصياً بطلها شخصية انسانية من المكدين والمتحامقين غالباً ، وتقوم على حدث طريف ، يدخل في المفارقات الاجتماعية والفقه الديني والمغامرات الضاحكة والسخرية الناقمة من أوسع الأبواب ·

ـ ن ـ

□ النادرة (الملحمة ، الطرفة) :

وهي فن قصصي موجز وذكي وألمعي ومسل ومدهش ، ومنها « نوادر جحا » و « نوادر أبي نواس » و « نوادر أشعب » · ومن الواضح ، أن النادرة سرد لوقائع وأحداث يدخل فيها الخيال الى حد كبير ·

وترادف النادرة أيضاً « الملحة » أو « الطرفة » ، وتفيد على وجه العموم القول البليغ المثير للانتباه الذي يتميز بالجدة والابتكار واظهار البراعة في التفكير ، والقدرة على تسلية القارىء أو السامع والترفيه عنه ·

وفي الأدب العربي الحديث هناك كتب كثيرة من نوع «المستطرف من كل فن مستظرف» للأبشيهي (القرن التاسع الهجري) ·

★ ★ ★

حوار مع :

الدكتور محمّد زهير البابا

أجرت اللقاء : سمر رسلان

الدكتور محمد زهير البابا من مواليد مدينة دمشق .. حصل على شهادة الصيدلة والكيمياء من الجامعة السورية عام ١٩٤٥ م • أرسل في بعثة دراسية الى بلجيكا للتخصص في علم العقاقير والنباتات الطبية • حصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الصيدلية من جامعة بروكسل ، فعين عقب عودته الى سورية مدرساً في كلية الصيدلة بجامعة دمشق عام ١٩٤٨ • ثم تدرج في سلك التدريس حتى نال رتبة الأستاذية عام ١٩٦٢ •

كان الدكتور البابا مولعاً بدراسة تاريخ الطب والصيدلة ، وحينما أوفد الى فرنسا متفرغاً للبحث العلمي ، بين عامي ١٩٨٠ ــ ١٩٨١ ، اطلع على عدد كبير من المخطوطات العربية المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ، فازداد شغفه بدراسة التراث العلمي العربي ، وقد قبل عضواً في الجمعية الفرنسية لتاريخ الطب •

وبعد عودته من فرنسا انتدب استاذاً لتاريخ الطب والصيدلة وعلم النبات في معهد التراث بجامعة حلب • وهو متفرّغ حالياً للبحث العلمي في كلية الصيدلة بجامعة دمشق •

(*) من مؤلفاته : ١ ــ علم تشخيص العقاقير ج ١ ــ ٢ صدر في عام ١٩٦٤ •
٢ ــ الدروس العملية لعلم العقاقير صدر في عام ١٩٦٥ •
٣ ــ تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة صدر في عام ١٩٧٥ •
كما قام بتحقيق كل من كتاب :
١ ــ اقرباذين القلانسي (تحقيق ودراسة) صدر في عام ١٩٨٣ •
٢ ــ من مؤلفات ابن سينا (تحقيق ودراسة) صدر في عام ١٩٨٤ •
وله أبحاث ودراسات متميزة في تاريخ الطب العربي •• وعلم الأدوية البسيطة والمركبة ، وحضور بارز في المؤتمرات العلمية العالمية • كما أشرف على عدة أبحاث ودراسات عليا لنيل درجة الماجستير والدكتوراة •

نال الدكتور جائزة الكويت للتقدم العلمي عـام ١٩٨٧ ، مكـافاة على أبحاثـه المنشورة في تاريخ الطب والصيدلة وعلم الكيمياء • كما صدر مرسوم بتعيينه عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٨ •

* * *

□ التعريف بالتراث العربي الاسلامي :

س ـ ما هي نظرتك للتراث بصورة عامة ، والتراث العربي بصورة خاصة ، وكيف تعرّف به ؟

ج ـ يختلف مفهوم التراث بين الماضي والحاضر ، كما يختلف هذا المفهوم أحياناً من مفكر لآخر • ففي معجماتنا اللغوية الارث والتراث والميراث بمعنى واحد ، وهو ما يرثـه الأبناء عن الآباء من مال وعقار وغيره •

ويقول بعض اللغويين أيضاً : الورث والميراث في المال ، والارث في الحسب •

أما في الوقت الحاضر فان كلمة التراث تقابل عند بعضهم كلمة Folklore الأجنبية ، ويعتبرها بعضهم الآخر مقابلة لكلمة Patrimony ، علماً بأن مدلولي هاتين الكلمتـين في المعجمات الأجنبية مختلفان •

ان كلمة فولكلور الانكليزية تتألف من مقطعين : فولك وتعني شعب ، ولـور تعني علم • واللفظة بمجملهـا تعني مجمـوع العادات والتقاليد والأساطير والأغاني والألعـاب التي كان يمارسهـا أو يعتقدها أحـد الشعوب ، والتي لما تزل أصولها باقيـة عند هـذا الشعب •

أما كلمة Patrimony فهي مشتقة من Pater اللاتينية والتي تعني الأب ، واللفظة بمجملها لها معنيان حقيقي ومجازي • أمـا المعنى الحقيقي فهو الميراث المادي الذي يحصل عليه المرء بعد وفاة أحد والديه ، أما المعنى المجازي فهو ما يعتبـر ارثاً مشتركاً لجميـع أفـراد شعب ما ، مما خلفه له أسـلافه مـن علوم وفنون وآداب •

واذا أردنا أن نعرف التراث تعريفاً جامعاً مانعاً نقول : هـو تراكم حضاري وثقافي يتم عبر العصور وتتوارثه الأجيال • وهـو يشمـل أموراً معنويـة تتعلـق باللغة والأدب والشعر ، بالاضافة للتقاليد والعادات والمعتقدات ، كما يشمل مهارات عملية وفنية ومهنية• وعلى هذا الأساس يقسم التراث بحسب مدلوله الى عدة أقسام :

علمي ، فني ، ديني ، اجتماعي •••

والتراث بأقسامه المختلفة لا يعتبر ملكاً خاصاً وثابتاًلكل شعب، بل يتطورمعتطور أحوال الشعوب ، وذلك تبعاً للظـروف البيئيـة والاجتماعية التـي تعيش فيهـا ، وتبعاً للتقـدم العلمي والثقافي لأفراد كل شعب • وكثيراً ماتتبنى الشعوب الضعيفـة عـادات وتقاليـد الشعوب الخاضعة لنفوذها • كمـا أن حب التقليد والتطور كثيراً ما يسـري الى أفـراد

الشعوب القوية ، فتقتبس بعض العادات والتقاليد الموجودة عند شعوب أدنى منها حضارة • والمدارس الفنية الحديثة ، والتي تعنى بالرسم ، كالانطباعية والتجريدية والتكعيبية ، أو التي تعنى بالموسيقى والرقص ، كالجاز والروك أندرول ، تعتبر أمثلة حية لتقليد الشعوب المتحضرة لشعوب ابتدائية أو في طريق التطور •

أما التراث العلمي والمهني فهو من الأسرار التي كانت ولما تزل تحافظ عليها الشعوب. فعلوم الطب والصيدلة والفلك والتعدين والصباغة وغيرها ، تعتبر مهارات واكتشافات حصلت عليها بعض الشعوب أو الأسر ، فاحتكرت مزاولتها ، ولم تتنازل عنها وتكشف سترها ، لأنها مصدر ثروتها ومكانتها ، ولكن المغريات المادية أو تسلط القوى القاهرة ، جعل أصحاب تلك المهارات يتنازلون عن حقوقهم راضين أو مرغمين • وفي التاريخ أمثلة كثيرة على شعوب قوية استطاعت عن طريق الحرب أن تسوق الآلاف من المهرة من العلماء والفنيين والمهنيين ، ليعملوا في اعمار بلادها في مجال الزراعة والصناعة والبناء والزخرفة •

وللكلام عن التراث العربي سنقتصر القول على القسم العلمي فيه فقط ، لأن الكلام عن جميع أقسامه ، ولو بصورة مجملة ، يحتاج الى عدة باحثين ، كل واحد منهم يبين أهمية هذا التراث بحسب اختصاصه •

كان الأوروبيون لأمد قريب يعتقدون أن مصدر الحضارة الانسانية وعلومها هو بلاد اليونان • ولكن حينما استطاع علماؤهم في مطلع القرن التاسع عشر قراءة الكتابة الهيروغلفية في مصر ، والكتابات المسمارية في بلاد الشرق الأوسط ، تأكد لهم أن هذه البلاد هي التي أنبتت أقدم الحضارات ، والتي يعود تاريخها الى الألف الخامس أو الرابع قبل الميلاد • وفي كتاب تاريخ العلم لسارتون ، وقصة الحضارة لديورانت ، اعتراف صريح بذلك •

لقد ظهر أوائل فلاسفة اليونان وأشهر علمائهم خلال الفترة الممتدة بين القرنين السادس والثالث قبل الميلاد • وزار بعضهم أمثال تاليس وفيثاغورس بلاد الشرق الأوسط حيث استمدوا نظرياتهم الرياضية والهندسية. كما اعترف بعضهم أمثال أبقراط وجالينوس بحصولهم على كثير من الوصفات الطبية من المعابد المصرية • ويذكر العالم سارتون أن أول موسوعة وضعت في علوم البيئة النباتية والحيوانية والسكانية كانت من تأليف العالم الفينيقي ماجو ، الذي عاش في قرطاجة زمن الحكم الروماني •

مما لا شك فيه أن أهم الانجازات العلمية القديمة ظهرت في مدينة الاسكندرية ، منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، وقد تمت في المعاهد التي نشأ فيها التعاون بين التفكير العقلي المجرد ، الذي اشتهر به فلاسفة اليونان ، مع المهارات الفنية والعملية التي ازدهرت في مصر وبلاد الشرق الأوسط • وكانت حصيلة هذا التلاقح ظهور علماء أفذاذ أمثال بطليموس القلوذي مؤسس علم الفلك ، وأرخميدس الصقلي مؤسس علم الحيل (الميكانيك) ، واقليدس الاسكندري واضع أصول الهندسة ، وغيرهم كثيرون •

بقيت مدينة الاسكندرية منارة للعلم منذ القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن السابع

بعده ، فاستقطبت كثيراً من طلاب العلم الذين وردوا اليها من جميع البلاد المجاورة • لقد اشتهرت بصورة خاصة مدرسة الطب فيها ، وكان من ألمع خريجيها العالم جالينوس البرغامي الذي ظهر في القرن الثاني للميلاد، واستطاع أن يستفيد من جميع المؤلفات العلمية التي خلّفها من سبقه من فلاسفة وأطباء اليونان والرومان • وقام بتصنيف مجموعة من الكتب الهامة بقيت مرجعاً لجميع الأطباء خلال العصر الوسيط •

قلنا ان بلاد الرافدين ووادي النيل كانا منذ الألف الرابع قبل الميلاد مهداً لحضارتين امتدتا في جميع الأطراف فعمتا بلاد حوض الأبيض المتوسط • وكانت الجزيرة العربية ولم تزل حلقة الاتصال بين هاتين الحضارتين، الى جانب حضاراتها المستقلة التي قامت على أكتاف أبنائها من الأكاديين والكنعانيين والعموريين والفينيقيين والآراميين والعرب • وحينما بدأت الديانة المسيحية بالانتشار في الجزيرة العربية وأطرافها كانت هنالك عدة لغات سامية منتشرة فيها : الحميرية في الجنوب، والكنعانية في الشمال والعربية في الوسط، والآرامية في الأطراف• ونظراً لأن هذه اللغات كانت مشتقة من لغة أم مجهولة المنشأ لذلك كانت الأقوام القاطنة في الجزيرة وأطرافها تتفاهم لحد ما فيما بينها •

عاش سكان سوريا في ظل الدولة الرومانية أولا ثم في ظل الدولة البيزنطية ، لذلك كان من بين مثقفيهم ، وخاصة بعض الرهبان النساطرة واليعاقبة ، من يتقن اليونانية أو اللاتينية • وقام بعضهم بزيارة الاسكندرية طلباً للعلم ، أو للحصول على ما في خزائنها من كتب علمية أو فلسفية • ويقول ابن العبري ان أقدم من نقل العلوم من اليونانية الى السريانية كان سرجيس الرأسعيني ، وذلك في زمن الامبراطور جوستنيان الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥) م ، كما اشتهر أهرن القس أيضاً بترجمة كتاب يوناني في الطب الى اللغة السريانية •

☐ دور الأطباء في ظهور التراث العربي :

س : بمناسبة الكلام عن الأطباء السريان واللغة السريانية ، ما هو برأيك الدور الذي قام به هؤلاء الأطباء ولغتهم في ظهور التراث العلمي العربي أو تطوره ؟

ج ـ يقول الأستاذ ولفنسون، مدرس اللغات السامية سابقاً في الجامعات المصرية، نحن نعلم أن الآراميين انما نزحوا من الجزيرة العربية الى سورية ، ولكن من العسير جداً أن نعين البقعة التي كانوا يسكنونها في تلك الجزيرة • أما تاريخ هذه الهجرة فكان حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، أي بعد مرور ألف وخمسمائة عام على استقرار الكنعانيين في فلسطين وسواحل سوريا • وقد ثبت لنا من كتابات مسمارية ترجع الى القرن الرابع عشر ق•م أن جماهير من بطون آرامية استقرت في أطراف دمشق ، وأن قبائل من العنصرين الكنعاني والآرامي استوطنت مناطق في جنوب الفرات ، حيث عرفوا باسم الأخلامو (أي الأصدقاء) •

ولكن في عهد الملك الآشوري تغلات بلاسر تقوضت الممالك الكنعانية والآرامية في سورية وانتهى حكمهم عام (٧١٠ ق•م) • الا أن ذلك لم يؤثر على انتشار حضارتهم ولغتهم اللتين

شاعتا بين جميع الشعوب التي سكنت في بلاد الهلال الخصيب · ومما يدل على تأثر الآراميين بالحضارة الكنعانية التشابه الكبير الموجود بين الخط الآرامي ورموز القلم الكنعاني ·

لقد احتفظت بعض الممالك العربية ، وخاصة في تدمر والبتراء ، بكثير من الألفاظ الآرامية في لغتها ، كما يوجد أيضاً كثير من التشابه بين الخط الآرامي وكل من الخطوط المنقوشة على الآثار التدمرية والنبطية ·

عاش سكان سوريا في ظل الدولة الرومانية الوثنية أولا ، ثم انتقل حكمهم ليد الدولة البيزنطية المسيحية ، لذلك كان من بين مثقفيهم من يعرف اللاتينية أو اليونانية ، كما كان منهم من اعتنق المسيحية أو بقي على عبادة الأوثان ·

ولما ازداد عدد المسيحيين واختلطت لغتهم الآرامية بكثير من الألفاظ الأجنبية أطلقوا على أنفسهم اسم السريان وعلى لغتهم اسم السريانية ، واعتبروا اللغة الآرامية لغة الوثنيين ، ممن لم يعتنق المسيحية · ظلت اللغة السريانية وسيلة التعبير السائدة في سورية منذ القرن الثالث للميلاد حتى الفتح العربي · وهي ما تزال تستخدم الى اليوم في الطقوس الدينية عند عدد من الكنائس المسيحية الشرقية ·

ان أقدم وثيقة سريانية عثر عليها حتى اليوم تعود الى عام ٢٤٣ م ، ولكن هنالك نقوش سريانية وجدت على بعض الأحجار يعود تاريخها الى النصف الأول من القرن الأول للميلاد · ويقسم المؤرخون وعلماء اللغات السريانية الى لهجتين شرقية وغربية · وتحوي السريانية الغربية كثيراً من الألفاظ العربية ، كما أن اللغة العربية زاخرة بالألفاظ السريانية ، وخاصة ما يعود منها الى اسم بعض الخضار والفاكهة، وأسماء الطقوس الدينية والمصطلحات الطبية والعقاقير وغيرها ·

أما ما يتعلق بالدور الذي لعبه العلماء السريان ، وخاصة الأطباء منهم ، فيعود كما ذكرنا سابقاً الى منتصف القرن السادس للميلاد، وذلك حينما بدأ سرجيوس الرأسعيني بنقل بعض الكتب اليونانية الى السريانية · وفي موسوعة الحاوي للرازي يوجد بعض المقتطفات من كتاب له في الطب · وهذا يدل على أن كتابه هذا قد ترجم الى اللغة العربية ولكنه مفقود حالياً ·

أما كناش أهرن القس فقد قام بنقله الى العربية طبيب من البصرة يدعى ماسرجويه ، وذلك في عهد الخليفة الأموي مروان بن الحكم (ت ـ ٦٥ هـ) · وبقيت النسخة المترجمة محفوظة في بيت مال المسلمين الى أن جاء الخليفة عمر بن عبدالعزيز (ت ـ ١٠١ هـ) فسمح بنسخ هذا الكتاب ونشره · وبهذه الصورة يعتبر كتاب أهرن أقدم مؤلف طبي دوّن باللغة العربية ·

★ ★ ★

مصادر التراث الطبي وعلم الصيدلة :

س ــ ما هي مصادر التراث الطبي العربي ، وبخاصة في علم الصيدلة ؟ ومن هم أشهر من أسهم في تقدم هذا العلم ؟

ج ــ ان تاريخ الطب والصيدلة قديم قدم وجود البشر على ظهر الأرض ، ذلك لأن الطب وثيق الارتباط بحياة الانسان الذي ثبت وجوده منذ عدة ملايين من السنين ، كما أظهرت أبحاث علماء الجيولوجيا والآثار أن وجود العوامل الممرضة، من جراثيم وطفيليات وفيروسات ، قد سبق وجودها ظهور الانسان على سطح الأرض • لذلك نجد عند جميع الشعوب القديمة بعض الطرق المتشابهة بالعلاج ، ولكن هذه الطرق تطورت مع الزمن ، وذلك تبعاً للظروف البيئية والمعاشية ، الى جانب التطور الفكري والحضاري الذي عانته تلك الشعوب •

والعرب أمة تعتبر من أعرق أمم الأرض ، لأنها قضت مدة طويلة من الزمن في جزيرتها، تقدر بآلاف السنين • وقد احتكت شعوبها وقبائلها مع سكان بلاد الشرقين الأوسط والأدنى عن طريق التجارة والغزوات والحروب • ونظراً لطبيعة جزيرتهم وبيئتها الفقيرة بالخيرات الطبيعية ، ولزيادة عدد السكان ، فقد قامت منها هجرات ، منذ فجر التاريخ ، باتجاه جميع أطرافها طلباً للرزق • وتعتبر اللغة العربية أهم رابطة جمعت بين هذه الشعوب وحفظت تراثهم الحضاري • كما لعبت دوراً أساسياً في نقل تراث أمم مجاورة ومتحضرة ، وخاصة في عصر ترجمة العلوم اليونانية والهندية عن طريق اللغتين السريانية والفارسية ، وقد امتد هذا العصر من القرن السابع حتى العاشر للميلاد • ويعود للغة العربية الفضل في احياء وحفظ التراث العلمي اليوناني وتطويره •

من المعلوم أنه لايمكن لأمة من الأمم أن تمتلك بعض المنجزات الحضارية لأمة أخرى ما لم تتوافر لديها الكفاءات اللازمة لتمثل تلك المنجزات وتطويرها ، كي تتلاءم مع أوضاعها الاجتماعية والبيئية • وقد أظهر العرب بتعاونهم واحترامهم لعلماء الشعوب التي اعتنقت الاسلام ، أو بقيت على ديانتها اليهودية أو النصرانية ، أنهم أهل لتحمل مسؤولية نشر وتطوير المنجزات الحضارية في مختلف العلوم والفنون •

فالتراث العربي هو جزء من التراث الانساني ، لأنه أدى ولما يزل دوراً أساسياً وهاماً في اغناء الحضارة الانسانية • ومن يتصفح كتب تراثنا يجد أمامه ينابيع غزيرة من المعارف ، كانت تعتبر مصدراً من المصادر الأساسية للعلوم البحتة ، كالجبر والهندسة والفيزياء والكيمياء ، والعلوم التطبيقية كالطب والصيدلة والزراعة (الفلاحة) وغيرها •

لقد اشتهر خلال العصر الأموي بعض الأطباء السوريين منهم ابن أثال طبيب معاوية ، وأبو الحكم الدمشقي وابنه ، وفي عهد مروان بن الحكم ظهر ماسرجويه البصري ، كما اشتهر تياذوق طبيب الحجاج • وفي مدينة دمشق أنشأ أول بيمارستان في البلاد الاسلامية ، أمر ببنائه الوليد بن عبد الملك (٨٨هـ / ٧٠٧ م) ، وبنى الى جانبه دوراً لايواء العجزة والمقعدين والمجذمين والعميان •

الا أن ممارسة الطب والصيدلة لم تتقدم بصوزة محسوسة الا زمن الخليفة أبي جعفر المنصور • فقد وفد الى بغداد عدد كبير من الأطباء والصيادلة الهنود والفرس والسريان، وكان من أشهرهم أفراد عائلة بختيشوع ، الذين كانوا أطباء بيمارستان جنديسابور • ويعود اليهم الفضل في تطور فن المداواة، وتشجيع تجار المخطوطات على جلبها من بلاد الروم ، وترجمتها من اللغة اليونانية الى اللغتين السريانية والعربية • وفي عهد الرشيد تأسس أول بيمارستان في بغداد كما انشأت دار الحكمة ، والتي تحولت في زمن حنين بن اسحاق العبادي الى شبه مؤسسة لجمع المخطوطات وترجمتها ونسخها ونشرها •

لقد أنشأ حنين مدرسة للترجمة ، واستطاع الحصول على أمهات الكتب اليونانية ، في الطب والفلسفة والعلوم ، وتعاون مع تلامذته بتحقيقها ونقلها الى اللغة العربية ، وذلك بين القرنين الثامن والتاسع للميلاد • وبهذه الصورة انتشر طب أبقراط وجالينوس وغيرهما من أطباء اليونان في جميع البلاد الاسلامية ، وهو ما يطلق عليه عادة اسم الطب التقليدي • كما انتشر الى جانبه طب شعبي ، ظهر في البلاد العربية والاسلامية بعد انتشار الدين الاسلامي ، وهو مقتبس من الأحاديث الشريفة المروية عن الرسول ﷺ والمتعلقة بالطبين الوقائي والعلاجي ، وهو ما عرف باسم الطب النبوي •

لقد عُرِّف الطب بأنه علم يراد به حفظ صحة وبرء مرض • وفي شعائر الاسلام من وضوء وصلاة وصوم تطبيقات عملية يراد بها الى جانب العبادة حفظ الصحة ، كما أن في الأحاديث الشريفة كثير من النصائح التي تطلب من المسلم مراعاة النظافة في مأكله ومشربه ومستراحه ، كما تطلب منه الاعتدال في أفراحه ومتعه وأحزانه •

أما الأدوية التي ورد ذكرها في كتب الطب النبوي فقليلة العدد مأمونة التأثير ، وهي ما اعتاد العرب استعمالها في جاهليتهم وأقرهم عليها الرسول ، ومنها استعمال أوراق السنا والشمرة والحبة السوداء والقسط والحناء وغيرها • واستبعدت كثير من المعالجات التي لا يقرها العلم أو العقل ، كالايمان بالسحر والشعوذة والتمائم والمداواة بالخبائث ، والتوجه لغير الله ، وخاصة الايمان بتأثير الأجرام السماوية في حياة الانسان ومستقبله •

بدأ بعض أطباء البلاد الاسلامية بتصنيف مؤلفات في العلوم الطبية منذ القرن التاسع للميلاد ــ ويعد كتاب فردوس الحكمة ، ومؤلفه علي بن سهل الطبري (المتوفى عام ٨٥٠م) أقدم ما ألفه طبيب باللغة العربية • وقد استعان الطبري في تأليف كتابه هذا بكثير من المراجع اليونانية والهندية والفارسية ، كما استعان بمؤلفات بعض الأطباء المعاصرين له وخاصة يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحاق • وجعله في سبعة أنواع مقسمة الى ثلاثين مقالة تحتوي (٣٦٠) باباً • وجمع في مقالاته أبحاثاً عديدة ومتنوعة تعتبر بالنسبة لعصره على غاية الأهمية منها : بحث في طبائع الانسان والكون والأرض وما عليها من حيوان ونبات، تكون الجنين والولادة ، وتدبير الأم والطفل وحفظ صحتهما ، صفات الأعضاء والحواس ، والأمزجة والعوامل النفسية ، الأحلام وتعليلها الطبي ، أنواع الأغذية والأشربة ، دراسة جميع الأمراض التي تصاب بها أعضاء الانسان من الفرق الى القدم ، الحميات

بأنواعها ، الأمراض الجلدية ، مع الكلام عن الأدوية المفردة والمركبة المستعملة في مداواة هذه الأمراض ٠

لقد كان تأثير هذا الكتاب محدوداً ، والاقتباس منه أقل من غيره من الكتب الطبية التي ظهرت بعده ، وخاصة في غرب العالم الاسلامي . لذلك كان عدد مخطوطاته المحفوظة في المكتبات قليلا ، علماً بأنه ترجم الى اللغة اللاتينية وطبع مرتين الأولى عام ١٤٨٤ م والثانية عام ١٥٤٢ م ٠ وبقي هذا الكتاب الطبي الهام مجهولا في العالم العربي حتى عثر المستشرق الانكليزي الدكتور ادوارد براون ، الأستاذ في جامعة كامبردج ، على نسخة مخطوطة منه محفوظة في المتحف البريطاني ٠ فلما تصفحها أعجب بها ، وأراد أن يترجم الكتاب الى لغته ٠ لكنه اكتفى بنشر مقالة منه ، ثم كلف الطالب محمد زبير الصديقي ، الذي كان يعمل بالبحث عن تاريخ الطب العربي تحت اشرافه ، أن يقوم بتحقيق هذا الكتاب ٠ وقد تم ذلك عام ١٩٢٨ م ، ونال السيد الصديقي درجة الدكتوراه على عمله هذا ٠ وعمل مديراً للشعبة العربية بجامعة لكنو في الهند ٠

وحينما جاء القرن الثالث للهجرة ، أو العاشر للميلاد ،لم يتوقف عمل التراجمة ،الذين نقلوا المؤلفات العلمية الأجنبية الى اللغة العربية ، ذلك لأن كثيراً من تلك المؤلفات أعيد النظر اليها اتماماً أو تصحيحاً أو شرحاً ٠

لقد حدث تغير هام في هذا القرن ، وهو ظهور طبقة ممتازة من العلماء العرب والمسلمين ، اطلعوا على الكتب المترجمة ، وتمثلوا ما جاء فيها من علوم ٠ ثم قاموا بوضع مؤلفات عربية ، نسقوا فيها وأوضحوا ما وردفيها من أفكار ، كما أضافوا اليها خلاصة تجاربهم الشخصية ، وحذفوا منها ما لا يقبله العقل أو تثبته التجربة ٠ وأثبت هؤلاء العلماء ، من مترجمين ومؤلفين أن اللغة العربية هي أهل لاستيعاب جميع المعارف البشرية، وأنها لغة العلم والأدب ٠

ومما لا شك فيه أن ألمع طبيب ظهر في القرن العاشر هو محمد بن زكريا الرازي ، وقد قال عنه النديم الورّاق ، صاحب كتاب الفهرست « الرازي هو أوحد دهره وفريد عصره ، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء ، ولا سيما الطب » ٠ كما أن المؤرخ الدكتور لوكلرك يقول « الرازي هو أول من ظهر عند العرب من كبار الأطباء ٠ ونستطيع القول أنه لم يتفوق عليه أحد ممن أتى بعده أو حتى ساواه » ٠

ألف الرازي مجموعة كبيرة من الكتب في علوم شتى ٠ وقد قام العالم أبو الريحان البيروني بجمع أسماء هذه المؤلفات في فهرس ورد ذكره في كتاب عيون الانباء لابن أبي أصيبعة ، وقد تجاوز عددها المائتي مؤلف بين كتاب وموسوعة ورسالة ، منها (٦٥) في الطب و (٢٣) في الكيمياء و(٣٣) في العلوم الطبيعية ٠

من الأقوال الشائعة على ألسنة بعض المؤلفين في تاريخ العلوم أن الطب أوجده أبقراط ، وشرحه جالينوس ، وجمعه الرازي ورتبه ونسقه ابن سينا ٠ وهؤلاء الأطباء الأربعة هم أعمدة الحكمة والطب خلال القرون الوسطى في الشرق والغرب ٠

لقد روى ابن أبي أصيبعة عن عبيد الله بن جبرائيل أن أبا بكر الرازي كانت له منزلة كبيرة في مدينة الري وسائر بلاد الجبل • فلما توفي ترك عدداً كبيراً من المسودات الحاوية على مقتطفات أخذت من مؤلفات طبية قديمة أو حديثة • وكان الرازي ينوي أن يصنفها كتاباً تحت اسم الجامع الحاصر لصناعة الطب، فلما وافاه الأجل تركها بدون ترتيب • فطلب ابن العميد من أخت الرازي أن تعطيه اياها ، فلما فعلت جمع تلاميذ الرازي من الأطباء الذين كانوا بالري فقاموا بترتيب الكتاب ولكن لم يحسنوا العمل فجاء مضطرباً » • وبالنظر لضخامة هذا الكتاب وكثرة عدد أجزائه فقد كان نادر الوجود كاملا • ويقال بأنه لم يدون منه سوى نسختين باللغة العربية. ويعترف ابن أبي اصيبعة بأنه لم ير أي نسخة منه ولا وجد من أخبر أنه رآه •

وحينما سمع شارل آنجو ملك نابولي وصقليا بوجود نسخة كاملة منه في تونس ، أرسل سفيراً للملكها طالباً منه اهداءه نسخة من هذا الكتاب الذي شاع ذكره تحت اسم الحاوي. وحينما حصل عليه أمر الطبيب فرج بن سالم أن يقوم بترجمته عام ١٢٧٩ م • فتعاون الطبيب المذكور مع عدد من أطباء سالرنو ونابولي في هذا العمل ، ويقال انهم أمضوا أكثر من خمسة وعشرين عاماً حتى استطاعوا انجاز ترجمته الى اللغة اللاتينية ، وقد أطلق عليه اسم Continens .

كان كتاب الحاوي من أوائل الكتب الطبية التي طبعت في أوربا ، فقد صدرت منه عدة طبعات كان أولها في مدينة بريشيا بايطاليا عام ١٤٨٦ م ، وآخرها عام ١٥٤٢ م • وهو يتألف من جزءين ضخمين ، وكان يعد أحد الكتب التسعة التي كانت تدرس في كلية الطب بباريس عام ١٣٩٥ م •

في كتاب الحاوي للرازي يوجد عدة انجازات هامة تمت على يد مؤلفه :

أولا : لقد استطاع الرازي أن يحصل على نسخ من كتب طبية لأطباء قديمين ومحدثين، فاقتطف من مؤلفاتهم نبذاً تتطرق لمواضيع مختلفة ، جمعها الى بعضها البعض وجعلها على شكل أبحاث بين فيها آراء هؤلاء الأطباء في موضوع طبي معين • وفي نهاية كل بحث كان غالباً يدلي برأيه الشخصي ، داعماً لأقوال بعضهم ومخطئاً لأقوال آخرين ، معتمداً على تجربته ورأيه المستند على المنطق • وبما أن كثيراً من هذه المؤلفات قد فقدت ، كما أن كثيراً من أسماء مؤلفيها كانت مجهولة بالنسبة لنا لذلك يمكن أن نقول بأن للرازي الفضل في احياء ذكر هؤلاء العلماء والكلام عن مؤلفاتهم •

ثانيا : ومن منجزات الرازي الهامة أيضاً تأليف كتاب عنوانه «الصيدلة في الطب»، وهو أحد الأجزاء التي تتألف منها موسوعة الحاوي • لم يشأ الرازي أن تكون الصيدلة جزءاً من أجزاء علم الطب • بل اعتبر الصيدلة صناعة مستقلة ، وحالها كما يقول كحال الصناعات التي تخدم بعضها بعضاً لذلك يقول « لا يجوز أن يسمى أعرف الناس بأنواع الأدوية وأشكالها وألوانها ، خالصها ومغشوشها ، طبيباً ، بل انما يسمى الطبيب من عرف أفاعيل هذه الأدوية في أبدان الانسان » •

ثالثاً : الرازي أشهر طبيب بيمارستاني ، أي أنه اكتسب مهارته عن طريق العمل في البيمارسانات والاشراف على المرضى ، ومتابعة سير مرضهم وهو ما يعرف بالطب السريري . وقد استطاع الرازي من خلال عمله في البيمارستان أن يقوم بتاليف كتاب دعاه (ما الفارق) بين فيه الأعراض السريرية التي يمكن بواسطتها التفريق بين الأمراض المتشابهة الأعراض . كما أنه استعمل في مداواته أدوية مركبة أطلق عليها اسم (الأدوية البيمارستانية) ويقصد بها مجموعة من تراكيب الأدوية التي يكثر استعمالها في أوقات معينة من السنة ، حيث يصاب عدد كبير من الناس بنفس المرض . ويراعى في هذه الأدوية أن تكون عقاقيرها رخيصة الثمن ومتوافرة في الأسواق .

رابعاً : كان للرازي الى جانب اهتمامه بالطب هواية في اجراء التجارب الكيميائية . وقد استطاع عن طريق هذه التجارب أن يحصل على بعض المركبات الكيميائية المعدنية . فقام بتنقيتها وجربها في بعض الحالات المرضية وخاصة الأمراض العينية والجلدية فوجد لها بعض الفوائد الطبية ، لذلك يعتبر المؤسس لما يعرف باسم علم المداواة بالمواد الكيماوية Chimiotherapie .

خامساً : جمع الرازي كثيراً من الطرق المستعملة في تشخيص الأمراض ، وخاصة ما يتعلق منها بفحص القشع والبول والبراز، الى جانب فحص النبض ومراقبة الحرارة والبرودة وأيام البحران .

سادساً : استعمل امعاء القطط المجففة لتخييط الجروح بعد العمليات الجراحية .

سابعاً : وصف بعض الطرق الدقيقة المفيدة في طرح الحصاة البولية ، وذلك عن طريق تفتيتها بواسطة زراقة تدخل في الاحليل .

ثامناً : لكي يساعد المريض الفقير على تدارك الدواء الذي يحتاج اليه دون الرجوع الى الطبيب ، وضع مؤلفاً أطلق عليه اسم (كتاب من لا يحضره طبيب) ذكر فيه وصفات بسيطة رخيصة الكلفة . كما له رسالة مشهورة ، لها الفائدة نفسها عنوانها (برء ساعة) وقد قام بترجمتها الى اللغة الفرنسية الدكتور Guiges الأستاذ في الجامعة اليسوعية في بيروت سنة ١٩٠٤ م .

لقد صعب اقتناء كتاب الحاوي بسبب طوله المفرط وغزارة مادته ، سيما وأن الرازي جمعه ليكون مرجعاً شخصياً له ، وهذا ما دفعه الى اختصار مادته ليؤلف منها كتاباً دعاه المنصوري وأهداه للأمير منصور بن إسحاق بن إسماعيل ، وقد جعله في عشر مقالات تضم أهم موضوعات الطب السريري مع وصف موجز لبعض العقاقير ، فاشتهر كتابه هذا في أوربا ونقل الى اللغة اللاتينية قبل عام ١١٨٧ م ، وانتشر تحت اسم Mandorem واستفاد منه كثير من أطباء الغرب خلال القرون الوسطى .

من تراث معروف الأرناؤوط :

طارق بن زياد
ومسرحية
أبو عبد الله الصغير

عبد اللطيف الأرناؤوط

طارق بن زياد - رواية تاريخية اجتماعية

بعد أن أصدر معروف الأرناؤوط روايته « سيد قريش » و « عمر بن الخطاب » التي لم يتممها ، تحول الى كتابة رواية عن تاريخ العرب في افريقية والأندلس زمن الفتوح أسماها « طارق بن زياد » فاصدر الجزء الأول منها ولم يتم جزأها الثاني، فقد تحوّل الى اصدار روايته « فاطمة البتول » • وقد قسم الجزء الأول من طارق بن زياد الى قسمين : عرض في القسم الأول تاريخ فتوح افريقية وجعل بطل هذا القسم عقبة بن نافع ، وكان ورود شخصية طارق في هذا القسم عابراً، ثم قدّم في القسم الثاني فتح الأندلس وجعل بطل هذا القسم من الرواية مغيثاً الرومي • وانتهى الجزء الأول من الرواية دون أن يكون لطارق ابن زياد ظهور متميز فيه مع أن المؤلف سمى الرواية باسمه •

تقع المقدمة التي تناولت فتح افريقية في عشرة فصول مجموع صفحاتها (١٣٢) صفحة ، وأما القسم الثاني الذي تناول فتح الأندلس فيقع في أربعة فصول مجموع صفحاتها (٩١) صفحة فرواية طارق بن زياد أقصر روايات معروف الأرناؤوط طولاً وقد طغى فيها التاريخ على القسم الأول في حين برز الفن الروائي بصورة أوضح في القسم الثاني •

وقد خالف الكاتب طريقته التي اعتمدها في سيد قريش وعمر بن الخطاب ، من حيث اقحام فصول تاريخيةفي صلب نسيج الرواية الا ما جاء في الفصلين الأول والثاني منها • ويبدو أنه كان يستفيد من ملاحظات النقّاد الذين عابوا على رواياته عجزها عن ربط التاريخ بالبنية الروائية ، اذ يظهر من النسخة المودعة في الظاهرية لهذا الجزء من الرواية أن مجمع اللغة العربية بدمشق الذي كان الأرناؤوط أحد أعضائه كان يطلع على نتاجه ويبدي ملاحظاته عليه، فقد علق أحد المراجعين على النسخة المودعة ورفعها الى الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع ، وقدم عدة حواش ومقترحات بحذف بعض المقاطع •

ولا شك أن بناء الرواية على شخصيتين تاريخيتين هما عقبة بن نافع ومغيث الرومي ، وفي بيئتين لا يجمع بينهما الا الاطار التاريخي قد أضعف حبكتها ، اذ لم تظهر شخصية مغيث بطلها الا بعد الفصل العاشر ولم تلتحم الحوادث التاريخية بسيرة البطل الشخصية من أول الرواية ، فضعّف الترابط بين القسمين •

وبدا الجزء الأول منها أقرب الى التاريخ وان كان المؤلف قد منحه نفسا روائياً ، واستغل فيه الحوادث الأسطورية والملحمية كأسطورة حصن سبته،ونبوءات الساحرة البربرية (دامية) ابنة زعيم البربر •

في القسم الأول من الرواية استعرض المؤلف انهيار الامبراطورية البيزنطية الشرقية على يد البرابرة ، وفتح مصر على يد عمرو بن العاص،ثم فتح افريقية عام (٦٤٧ م) فالمغرب من قبل معاوية بن جريج زمن الخليفة معاوية ، وتولّى عقبة بن نافع امارة افريقية •

أما الحبكة الروائية في هذا القسم فتدور حول شخصية عقبة بن نافع وقدوم الساحرة (دامية) البربرية لزيارته ، وهي ابنة أمير قبائل جرجورة البربرية التي قتل كسيلا والدها واستأثر بزعامة البربر،وكانت دامية تجيد السحر وتتنبأ بالغيب ، وقد جاءت الى عقبة تستغيث به أن ينقذ قومها البربر من حكم كسيلا

وتسلطه ، وكان والد دامية قد لاقى مصرعه على يد كسيلا الذي اعتصم بالجبال، وراح يشن غاراته على كل من عصاه ، كانت دامية بارعة الجمال غير أن جمالها لم يؤثر كثيراً في عقبة الذي نذر نفسه لنشر رسالة الاسلام والعروبة وكان والد دامية قد أنبأها قبل وفاته أن في الأندلس حصناً مغلقاً لا يفتح ، فيه تابوت مغشى باللؤلؤ ، وفي داخل التابوت صور فرسان بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب ، وعليهم الفراء وهم معممون على ذوائب جعد، ومن تحتهم الخيل العربية وهم متقلدون بالسيوف المحلاة ، وقد جاء في الرق الذي فيه الصور أنه متى فتح هذا التابوت دخل القوم الذين صورهم فيه الى الأندلس، وذهب ملك مَنْ فيها الى أيديهم ، وقد وردت هذه القصة في كتاب «نفح الطيب» واستغلها الأرناؤوط ليمنح الوقائع نفساً ملحمياً شعبياً ، كما جاء في نفح الطيب أن رودريك لما ولي أمر الأندلس ، فتح التابوت وعرف حقيقة ما فيه ، فزادت هواجسه وشدد الحراسة على الحصن ، ثم انصرف الى مباذله ، وتعلق بابنة رجل نبيل اسمه الكونت يوليان من كبار أعيان الأندلس ، وكان أبوها قد أرسلها الى بلاط رودريك لتمارس حياة البلاط ، فمالت نفس رودريك اليها وشغلته عن كل شيء دون أن يميل قلبها اليه .

وتتابع دامية القصة ، فان والدها لما سمع حكاية الحصن سأل كاهنة بربرية فقالت له : قضي الأمر يا سيدي وسينزل العرب في شواطىء اسبانيا فلا يخرجون منها ، وكان والد دامية يخشى على ملكه من العرب بالذات ، الا أن مصرعه جاء على يد كسيلا ، ولم يبق أمام دامية الا أن تثأر له من قاتله ، ولن يقدر أحد على كسيلا الا عقبة بن نافع .

استمع عقبة الى قصة «دامية» فطمأنها الى أنه سيقضي على كسيلا عدو أبيها. فتفرح دامية لوعد عقبة ، ثم يرد البريد من دمشق وفيه رسالة تخبر عقبة بموت أمه ، فيحزن لأنه كان يحبها كثيراً .

وظلت قصة التابوت تؤرق عقبة وتحثه على ركوب البحر وبلوغ ذلك الحصن في سبته ، فندب عشرة من رجاله بينهم طارق بن زياد وطريف ومغيث الرومي

ليجتازوا المضيق الى جبل طارق ، وكان طارق على حد تعبير الأرناؤوط « أشبه ما يكون بغسق الليلة سواداً ، وعيناه حمروان كالضرام وكان بوجهه قروح وجروح، وكان الناس يتحامونه ويجفونه ، ولايطيقونه صامتاً ولا يحبونه متكلماً » • أما طريف فكان أشقر البشرة عميق الايمان ، فأقلهم الزورق الى الحصن ، وكان حارسه بربرياً من صنهاجة، فاستطاع طارق وهو بربري الأصل أن يقنعه بفتح الباب ، ففتحه لهم وتسللوا الى حجرة يوليان صاحبه ، فأيقظوه من نومه وهو يرعش ، وأخبروه أنهما لن يؤذياه، لكن سيعودان اليه مع جيوش الفتح ، وغادرا الحصن بعد أن بعثا في سبته الروع والفزع ، وهاجم كسيلا في تلك الأثناء مضارب « دامية » فأحرقها ونهبها وقتل رجالها فعادت الى عقبة ثانية تستنجد به للثأر ، فلم تجده في القصر ، ولكنها وجدت قائداً من قادة جنده هو مغيث الرومي ، فكلم الساحرة وسألته عن نسبه، فأعلمها أنه عربي من أم بيزنطية ، ثم دلها على مكان عقبة قرب البحر •

ونهدت دامية الى سرادق الأمير عقبة قرب البحر فقصت عليه ما ارتكبه كسيلا من جرائم بحق أهلها وقومها ، غير أن حديثها لم يتم لأن جنود عقبة استطاعوا بعد معارك دامية مع كسيلا في الجبال أن يلقوا القبض عليه، فلم يجد عقبة بداً من سجنه، وكان قد عفا عنه من قبل حين قبض عليه مرة ، الا أن كسيلا نقض العهد وثار على عقبة ثانية •

فرحت دامية لمشهد كسيلا ذليلاً يرسف في قيوده أمام عقبة لكنها كانت تخشى أن يعفو الأمير عن قاتل أبيها وهو الذي فطر على السماحة والحلم فلم تشأ أن تطلب منه الانتقام وشكرته لمساعدتها في تأديب قاتل أبيها •

وصعد عقبة قمة الجبل الكبير حيث مدينة طنجة وأشرف على بلاد الأندلس ثم عاد الى طلل فلافيوش ، وقد قرر أن يرمي بالسفن والزوارق الى البحر لفتح الأندلس بعد أن دانت له افريقية، فتوجه الى معسكره في القيروان ، واصطحب معه كسيلا • ورغب عقبة أن يستفيد من خبرة كسيلا فلاطفه في الطريق وعرض عليه أن يرافقه لفتح الأندلس ، فاستغل الزعيم البربري هذه الفرصة ليغدر ثانية ،

واستسمح عقبة ليحشد قواته ، لكنه نكث العهد واعتصم بالجبال وأعلن العصيان ثانيـة .

لم تكن المعركة مع كسيلا سهلة،اذ كان على عقبة الأمير العربـي أن يتجنب الأودية ويسلك المغاور لئلا يقع جيشه تحت رحمة رجال كسيـلا المعتصمين بالقنن ، وكان البرد قارساً لا يرحم ، فلما بلغ الليل موهنه ، واستقر رجال عقبة في الوادي• هاجمته قوات كسيلا منحدرة كالجراد ، وكانت ملحمة دامية ، كـان فيها كسيلا يبحث عن عقبة بين الرجال دون جدوى،فلم يظفر بهأو ينتصر على قواته فعاد الى الجبال يعتصم بها ، غير أن عقبة أصـر على مطاردته في الشعاب العاليـة الوعرة ، ونجح في احتلال أول قرية من قرى الأطلس ، فاستقبله أهلها بالترحاب وهم يرجون انقاذهم من كسيلا الطاغية ،وفي اليوم التالي التحم الجيشان في معركة دامية سقط فيها من قادة عقبة عشرة رجال ، ونقل كسيلا دائرة المعركة الى الجبال وحاول أصحاب عقبة أن يتسلقوا الروابي، فكانت سهام العدو المتحصن تصطادهم ، ويفتك بهم برد الأطلس ، وقلة المؤن ، فلجأ الى فلج بالجبل عسى أن يباغت فيه كسيلا ، لكن البربري الماكر كان قد وضع له كميناً في الفلج ، فلم ينج ممن دخل من رجال عقبة أحد ، وتدافع اليأس في نفسه ، ثم انحدر رجـال كسيـلا مـن القنن وأحاطوا بفلول الجيش المتفرقة فكانت معركة دامية صرع فيها عقبة بن نافع ، فانتهت حياته بعيداً عـن مغاني وطنه دمشق .

وفي القسم الثاني من الرواية ينتقل الكاتب الى بلاد الأندلس وقد ختم حياة عقبة بطل القسم الأول ختاماً مأساوياً ، فينقلنا الى قصر (فال كلارا) المشـرف على طليطلة ، حيث تعيش فلورنـدا بنة جوليان مع عمها أسقف اشبيلية ، وكان أبوها قد أرسـلها الى الأندلس لتمارس حياة البلاط عند خالها الملك هيتزا، لكنها لم تسلم من أذى رودريك ، فنقلها أبوها الى قصر فال فلارا حيث عمها الأسقـف مع حاشية صغيرة تتألف من مربية وعبد ،وخولي ماهر جيىء به من طنجة وقيل إنه بيزنطي الأصل ، عـاش بين العـرب في افريقية وخالطهم وقبس لغتهم ، ومهر في الزراعة ، لم يكن ذلك الخولي الا مغيثاً الرومي قائـد عقبـة الذي تسـلل الى الأندلس بصفة خولي ليمهد للعرب فتح الأندلس ، ويوافي عقبة بالمعلومات وتنشأ

علاقة حب بين فلورندا ومغيث ، فقدأعجبت الفتاة بثقافة « مغيث » الذي كان يحسن اليونانية والعربية ، ثم تسأله عن حقيقة أصله ، فيصارحها أنه ينحدر من سلالة ملوك ، فأبوه هو الحارث بن جبلة بن الأيهم الذي عاش في القسطنطنية بعد ارتداد جبلة عن الاسلام ، وقد زوجه هرقليوس قيصر الروم ابنته ليظل في القسطنطينية لكنه كان يؤثر العودة الى موطن أجداده بلاد العرب ، فرفضت زوجه فيليس أن تصحبه وكان أبوها شديد التعلق بها ، وكان أبوها شديد التعلق بها ، وكان الحارث يراسل معاوية سراً ليعود الى ديار الغساسنة في الشام ، فرضي معاوية أن يمنحه عشرين قرية من قرى الغساسنة في الغوطة وأطراف دمشق ، فلما منعه قيصر من اللحاق بقومه وحجر عليه ، وأسكن ابنته معه في قصره بعد أن فصلها عن زوجها • عاش الحارث حزيناً حتى وافته منيته ولحقت به زوجته بعد قليل ،واستطاع ثعلبة أحد أعوان الحارث آن يفر بالصبي ابنهما وهو « مغيث » الذي لم يبق سواه من الأسرة ، الى بلاد العرب،فأنزله ديار الغساسنة في الغوطة ،وكان جده قيصر قد حشد له المؤدبين فحذق اليونانية والرومية،وبرع في العلوم والزراعة ولم يشأ مغيث أن يعلن عن حقيقة نسبه في بلاد العرب فعرف باسم مغيث الرومي ، فلما شب في ديار أهله أعلن اسلامه والتحق بالجيوش الفاتحة حتى أصبح أحد قادة عقبة بن نافع البارزين •

ولم يشأ مغيث أن يطلع فلورندا على سره ومهمته التي كلفها ، فظلت تعتقد أنه بستاني متحدر من سلالة النبلاء،وكان يقودها الى نزهات في البحر ، يحميهما زورق تحت ضوء القمر فيقضيان الليل ،فيتناجيان ويتبادلان القبل وأحاديث الغرام •

وكان مغيث يرصد ما حوله ويوافي قومه العرب بأخبار العدو وقواته ، ينقلها رسل متخفون يفدون الى حديقة القصر ، الى أن جاء يوم قرر فيه العودة الى افريقية تمهيداً للفتح ، فيما كان فيها والي افريقية الجديد موسى بن نصير الذي خلف عقبة بن نافع يجهز السفن ليوجهها بقيادة طارق بن زياد الى المضيق الذي عرف باسمه • ويصارح مغيث فلوريندا بعزمه على الرحيل فتحزن أيا حزن ، لكنه يؤكد لها أنه سيعود فيودعها وهو يشعر أن الحب القوي العنيف

الذي لقيه في أرض الأندلس ، لم يستطع أن يضعف طموحه وهو الجندي الشجاع الذي جمع فضائل الفروسية والألمعية ،ويسافر وفي قلبه صوت الوطن الذي نما وترعرع فيه على ضفاف دمشق،وفي عينيه صورة الدنيا الجديدة التي سيحملها الى قومه ، ليبنوا على شطآنهـا وفي جبالهـا وسهولها المدن بالمرمر والرخام والجنات التي يعيش فيها المجد الى جانب الوجد ٠

وينتهي الجزء الأول من الرواية عندهذا الحد ، ولو تابع الأرناؤوط رواية الجزء الثاني لنجح في تقديم صورة رائعة لفتح الأندلس يمتزج فيها الحب بالواجب، وتحظى فلوريندا بحبيبهـا فيكون لقاء ما بعـده لقـاء ٠

في القسم الثاني من الجـزء الأوليبدع (معروف) في تصوير علاقة مغيث بفلوريندا ، وهو الأديب البارع الموفـقأيما توفيـق في تصـويـر مـواقف الحب وتحليل مشاعره ، مـع براعـة في وصفالطبيعة والعمران كوصفـه لقصر فـال كلارا اذ يقول :

«في قصر فال كلارا المنيف وفي حجرةمن حجراته تعيش فلوريندا الحسناء ٠٠ عيشة الزهرة في اناء من الخزف لا عيشة هذه الأزهار التي ينديها الطل في جنـات تضيئها الشمس وتدغدغها السحب ٠ »الى أن يقف عند وصف القصر فيقول :

«يطل قصرفال كلارا على وادي التاج،ويجثم علىشيع من الصخر قاتم اللون، شديد الجهمة ، لا تلين ريوده لقاصد ولاتضحك حدوره لرائـد ، ثم يبين موليـاً ظهره شطر طليطلة ، كأنما هو ينظر اليهامن ناحية الغرب ، حيث يفيض الـوادي ويتدفق بـين شوامخ طليطلـة وبواذخ(ثلابريغة) فلـو أن سائحاً امتـدت به أسفاره الى هذا الطلل الجاهم الباسر ،ونزل عرصاته وسوحه ، وطاف أروقتـه وممراته ، لمـا استطاع أن يجنب نفسه الروع، وذلك لأن في كل ناحية من نواحي هذا الطلل قصة حياة شجية لأي راهب منالرهبان الذين عمروه وأثلوه ، وجعلوا من غرفه ومقاصيره ودهاليزه ومنحنياتهمواضع لذة ومراتع صبوة،وأراقوا على حصبائه الرحيق المائـع ممزوجاً بالـدمالهامع ٠٠٠ فاذا علوت شرقاً من الأرض في مساء رخي الظل ، لم تفتك المخاضـرالبارعة ، ترتادهـا قـوافـل المسافرين وعصائب السائحين ، فـاذا أطلت وقفتك بذروته أبصرت الفلاحـين والقرويـين

يتساقطون على السهل من الجبال تساقط الماء ، وقد تسايلوا من طريق /أفيلا/ وعلى أبدانهم غلائل من الصوف تضرب الى السمرة ، اختلط بهم أناس يلبسون أردية قصيرة من جلد الماعز ... »

وفي هذا الوصف الى جانب روعة اللغة دقة وتفصيل لا يتأتيان الا لمن درس جغرافية المنطقة وعاداتها وتقاليدها وحياة سكانها أو لمن زارها فوصفها بعين خبيرة وبروح واقعية لا تفتقر أيضاً الى الخيال. حتى ليذكرنا وصفه ودقته بفلوبير في قصته مدام بوفاري ، وكان معروف الأرناؤوط من المطلعين جيداً على الأدب الفرنسي .

ومعروف في كل قصصه مولع بتاريخ الغساسنة يختار منه شخصياته أو عالمه القصصي، ويربط الأحداث التاريخية بحبكة رومانسية، وأغلب شخصياته مأساوية، فالبطل كمغيث الرومي ينحدر غالباً من سلالة نبيلة وقد حط به الدهر وعادته الأيام ، وكثيراً ما يختار أبطاله من اليتامى أو من الذين فقدوا الأب فتكفلت الأم رعاية الطفل حتى شبَّ عن الطوق، وللأم عند « معروف » مكانة بارزة في كل رواياته فهي في سيد قريش آمنة البارة بولدها وهي في عمر بن الخطاب زوج مثالي أو أم كريستيا وهي في (فاطمة البتول) فاطمة أم الحسين نفسها ، وأبطاله مأساويون متألمون يدفعهم قدرهم الى الثار والانتقام وهم ليسوا من نماذج الطفل اللقيط الذي يهرب من العالم وينسلخ عنه ، بل هم فاعلون يصنعون التاريخ ويعوضون عن عقدة الأب ببناء عالم يقيمونه بارادتهم . ولم يكن مغيث الرومي الا صورة عن كريستيا الشاعر وامرىء القيس والحسين بن علي وفروة بن عمرو ، كلهم فقدوا الأب قتيلا وكلهم يثأرون من مجتمعاتهم الظالمة ، وهم يتمتعون بقدر من النبل والاباء والشجاعة، ويعيشون حلم الثأر والقصاص ، فهل ترتد روايات (معروف) الى عقدة الأب التي تحدثت عنها « ماريوت » مستندة الى نظرية فرويد ؟ وهل كانت حياة الكاتب نفسه ثمرة حلم طفلي ، فأراد من خلال الكتابة أن ينال اعتراف المجتمع فخلق عالماً عوض فيه عن فقد أبيه الذي مات وهو طفل وتولت أمه تربيته كذلك . ان رقة الكاتب واحساسه المرهف يعودان الى حد كبير الى المرأة التي رعته يتيماً مع طبع عاطفي مفرط الانفعالية الى حد

بعيد ، وخيال جامح يحاول أن يعيد بناء الحياة كما يريد · والأب في روايات الأرناؤوط كلها يخضع للعقوبة ، فيقتل أو يشرد أو يموت منهياً العلاقة الأسرية لتتولى الأم مكانه في تنشئة الأولاد الذين يصبحون أبطالا يحققون المعجزات وينتصرون على الظلم ·

واعتماد (معروف) على الأساطير الشعبية، والمرويات السحرية، ملفت للنظر حتى ليتحول التاريخ عنده الى ملحمة شعبية فيها الكثير من الخرافة، فكأنه يروي التاريخ مثلما تروي النساء والعجائز حكاياتهن التي تمتزج فيها الحقائق بالخرافات ، وقد أشار في مقدمة روايته عمر بن الخطاب الى أثر أمه في تكوين ميوله للقصص والروايات ، أما المرأة فهي أبداً عنده عنصر محرض فعال ، وان كانت تظهر أحياناً غير نقية أو لا همّ لها الا العبث واللهو مثل شخصية بنت نفتالي في (عمر بن الخطاب) . وهو يتوخى الكمال الأدبي في أسلوبه الذي يحفل بالبيان وتثقله التزيينات البديعية والبيانية ، ويحرص على تنقيته من كل شائبة على غرار الكاتب الفرنسي (فلوبير) وهو الأسلوب المثالي الذي كان سائداً في عصره ، فالصياغة لا تستهدف التعبير عن الواقع قدر ما تهدف الى التأثير بالقارىء ونقل الأحاسيس ، أما التاريخ عنده فعظة وعبرة وهو فوق ذلك كله ثقافة وحضارة ونمط حياة ، ولذلك بدا اهتمامه كبيراً في الجوانب الحضارية التي نقلها العرب الى الأندلس ، ومنها زراعة الفاكهة ولاسيما البرتقال والتفاح والليمون والخوخ والمشمش يقول : « ثم لا يلبث هؤلاء القوم (أي أهل الأندلس) أن يحسوا بالغيرة من اولئك الأساتذة الذين جاؤوا من بلادالشام الى إفريقية ليعلموا أبناءها أصول الرمي ، وأساليب الزرع ، فلما برعوا في التدريس والتعليم وطارت شهرتهم الى شواطىء الأندلس وتسامع سكانها وأسيادها بجنات افريقية وحدائقها ، صبت نفوسهم الى مجاراتهم ومحاكاتهم وسألوهم في صداقة وحب أن يهبوا هذه الأرض الأندلسية بعض ألمعيتهم ، فاذا هذه الأرض التي لبثت على عريها خلال عصور حالية بالثمر اليانع والزهر الماتع ، واذا أشجار البرتقال ، والتفاح والليمون والسفرجل والخوخ والمشمش تخلع ظلالها على اليفوع والحدور والجبال والتلال واذا الطبيعة تضحك على ضفاف البحيرات والينابيع والجدول ··· »

وقد بدا الكاتب أكثر التزاماً بالحقائق التاريخية في القسم الأول ، فلم

يضف الى التاريخ أو يحور فيه ، حتى الأساطير والقصص التي بنى عليها روايته ، وردت في الوثائق كقصة الحصن ، وقصة الكاهنة البربرية • وان كان الكاتب قد حوّر قليلاً في الأسماء ،أو بنى حول المعلومات صوراً من الخيال ، فقد جعل (دامية) أقرب الى الكاهنة البربرية التي حاربت العرب ، لكنها في الرواية تبدو طالبة ثأرها من كسيلا ، أما القسم الثاني الذي تحدث فيه عن فلوريندا فقد حرّف قليلاً الوقائع ، اذجعل فلوريندا تستعصي على رودريك ، مع أن كتب التاريخ تذكر أنه اغتصبها ، وكانت قصة حبها لمغيث الرومي من بنات خياله غير أن هذه التعديلات ، لم تسيءكثيراً الى جوهر الحقائق التاريخية، ولا أخرجتها عن المنطق ، كما شاركت الشخصيات التي اختارها في صنع الأحداث والتأثير بمجراها بحدود ما يمكن أن يتصوره القارىء فهي مقبولة من الناحيتين الفنية والتاريخية،ولا سيما شخصية عقبة بن نافع ومغيث الرومي،وان كانت بعض الوقائع التي ذكرها بدت أحياناً مخالفة للواقع كدخول طارق ومغيث الحصن دون أن يتبين الهدف من هذه المغامرة،لأنهما لم يفتحا التابوت ولم يتبينا ما حُفِظَ فيه ، ولم يكن لهذه المغامرة أثر في الأحداث اللاحقة مما جعلها مقحمة في النص •

* * *

هذه لمحة عن رواية طارق بن زياد فيها عالم من السحر الأدبي والجمال ودنيا من المشاعر المتنوعة التي يمتزج فيها حب المرأة بحب الوطن ، ويتحد فيها الشعور الديني بالاعتزاز القومي،فهي مدرسة للأجيال يتعلمون على يد كاتبها دروساً في العزة والكرامة ، ويقتدون بسير الأجداد لمقاومة المستعمر الغربي الذي كان يربض بشبحه البغيض فوق الأرض العربية ، فجهد معروف الأرناؤوط أن يبعث في النفوس المستكينة مشاعر الثورة ، والتمرد ، والأدب هو خير سلاح للتوجيه وأفضل وسيلة لنشر الوعي،فكان للكاتب ما أراد اذ جلا المستعمرون عن أرضنا العربية بعدصدور الرواية بسنوات ، وكان لمعروف شرف الاسهام مع الشعراء والكتاب الآخرين في تعبئة الرأي العام للمقاومة وحفزه الى النضال •

* * *

أبو عبدالله الصغير

مسرحية عن غروب شمس العرب والاسلام عن الأندلس

لفت موضوع خروج العرب من الأندلس بطريقة مأساوية نظر الأدباء والشعراء في العالم وفي وطننا العربي ، ولعل الأديب الفرنسي « شاتوبريان » كان أول من كتب في الرواية أثراً بعنوان « آخر بني سراج » وقد ترجمها الى العربية الأمير شكيب أرسلان ، ونشرها مع تحقيقات وشروح ، وطبع الأثر المترجم طبعة أنيقة في مصر ٠

ويعدّ الكاتب (معروف الأرناؤط) من الرواد الأوائل الذين اهتموا بالأدب المسرحي ترجمة وتأليفاً ، فقد ترجم كثيراً من النصوص المسرحية للكاتب: غوته.. واسكندر ديماس ٠٠ والفريد دي موسيه، منها رواية (الصقيلي الشريف أو عواطف الاخاء) لدى موسيه ٠ نشرتها جريدة « الأحوال البيروتية » ، ثم يؤلف نصوصاً مسرحية وينشرها،ومنها : «أدرنه في النار » التي صور فيها سقوط مدينة أدرنة ثم استردادها بقيادة « أنوربك » القائد العثماني ، وكان هدف « معروف » من هذه البواكير التمرس فيكتابة المسرحية والرواية ٠ ثم استهواه التمثيل ، وحاول أن يتابع دراسته فيه ٠ويحدثنا النقاد أن « الأرناؤوط » ألف مسرحية « جمال باشا السفاح » التيأخرجها ومثلها الفنان عبد الوهاب أبو السعود ، وقد ضاع نص المسرحية ، وليس لدينا اليوم الا مختصر لها ٠

ويرى الأستاذ عدنان بن ذريل أن فضل معروف الأرناؤوط في التأليف المسرحي والاقتباس والترجمة ، يكمن فيأنه استطاع أن يشعر الجمهور العربي بعامة والسوري بخاصة بقيمة المسرح وأهمية التجديد في التأليف له ٠

على أن (معروف) لم يتابع الكتابة المسرحية ، وتابع بعد اصدار مسرحيته (أحلام ودموع أو أبو عبدالله الصغير)[1] التي كتبها في عام ١٩٢٩ الى كتابة

---

١ ـ كتب معروف مسرحيته في خمسة فصول ، وطبعت على نفقة الكلية الفاروقية بحلب ٠

الرواية التاريخية ، ويبدو أنه آثر الفن الروائي ، لأنه أكثر رواجاً وتقبلاً من الجمهور ، وأقل قيوداً من الكتابة المسرحية التي تقيد الكاتب بشروط فنية أكثر دقة ، ولعله بعد أن انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق[1] • وجد أن فن الرواية أقرب الى تحقيق أهدافه الوطنية في تنشئة الأجيال على حب العربية من المسرحية ، ففي الرواية مجال أرحب للوصف والتحليل والسرد وابراز القدرة البيانية والابداعية • على أن (معروف الأرناؤوط) لم يخرج في مسرحياته التي كتبها عن اطار التاريخ الذي اعتمده أيضاً لرواياته ، ولم يتجاوز مذهبه الرومانسي في هذين اللونين من الفنون الأدبية ، سواء من حيث الحوار أم من حيث الاهتمام بالمشاعر الوجدانية ، وتجاوز الواقع الى الخيال ، والاكثار من البوح والنجوى والأحاديث الفردية ، وتصوير لواعج الحب واعطائه حيزاً كبيراً من الرواية ، وخاتمتها المأساوية التي تنتهي بانتحار الحبيبين ، وضياع المُلك ، وتشرد سكان غرناطة العرب ، وهرب أبي عبد الله الصغير الى المغرب الافريقي •

موضوع المسرحية انهيار الحكم العربي في غرناطة وسقوطها ، وهي آخر معقل عربي في الأندلس ، وفيها يُسقط الكاتب مشاعره القومية من خلال تحليل شخصيات المسرحية ، وأهمها أبو عبد الله الصغير آخر ملوك العرب الأمويين في الأندلس •

☐ **فمن هو أبو عبد الله الصغير ••؟؟**

تذكر كتب التاريخ أنه محمد الحادي عشر أبو عبد الله من مواليد ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٣ م عرفه الاسبان باسم (بو عبدل) آخر ملوك غرناطة من بني نصر •• حكمها من عام ٨٨٧ هـ الى عام ٨٩٧ هـ (١٤٨٦ ــ ١٤٩٢ م) وأبوه علي بن أبي الحسن المعروف لدى الاسبان باسم (مولاهسن) أي مولاي حسن ، وكان قد حكم غرناطة من عام ٨٦٦ هـ الى عام ٨٧٧ هـ •

وسمى الاسبان أبا عبد الله الملك الصغير ، كما سماه أهل غرناطة (الزغبي) مثلما كان عمه محمد الثاني عشر الطامع بالحكم يُلقب (بالزَغل) وقد انتزع أبو

١ ــ انتخب معروف الأرناؤوط عضواً في المجمع العلمي العربي بعد صدور روايته (سيد قريش) •

عبد الله الحكم من والده عام ٨٨٧ هـ غير أن الأب استطاع أن يسترد العرش ما بين عامي ٨٨٨ هـ و ٨٩٠ هـ ٠

حاول أبو عبدالله الصغير أن يقيم علاقات سلام مع جيرانه ، غير أن إصرارهم على تصفيته ، قد دفع الى مواجهة عسكرية لم يصمد فيها جيشه ، فاحتل الاسبان غرناطة ، وأعملوا فيها حرقاً ٠ وقتل صفوة قادة الجند ، واستطاع أبو عبد الله أن يفر الى المغرب، حيث عاش بقية عمره في (فاس) ، مات ودفن فيها عام ٩٢٠ هـ ٠

وقد حمّله بعض المؤرخين والأدباء مسؤولية ضياع الحكم في الأندلس ، بسبب انصرافه الى اللهو ، واهمال الواجب نحو بلاده ، في حين رأى بعضهم أن الوحدة التي تمت بين مملكتي قشتاله وآرغونه بفضل إيزابيلا وفرديناند مقابل انقسام الحكم العربي في الأندلس الى دويلات لها ملوك،لا يفكرون الا في مصلحتهم الشخصية ٠٠ هو الذي أدّى الى انهيار الحكم العربي في اسبانيا وسقوط ممالكه الواحدة بعد الأخرى ٠

ومع أن (معروف أرناؤوط) يردّ سقوط غرناطة الى القدر ، وقد تنبأ العرافون بهذا القدر لأبي عبد الله الصغير ، الا أنه لا يكف عن اتهام أبي عبد الله في مسرحيته بالضعف والخور والجبن والهلوسة ، وتنطلق تلك التهم على لسان قادته المخلصين وأمه عائشة ، كقول موسى عنه وقد رآه يطرح تاجه فوق القبور :

— أما عبدالله فلا رجاء في ثباته،فان رجلاً يترك تاجه فوق هذه القبور لجدير بأن يموت ٠

وقول أمه عائشة له وقد رأته جالساً بين القبور :

— « فيم قعودك هنا ، بين القبور ،والمعركة جد حامية في النواحي ، اذهب وناضل عن ميراث أبيك ٠ امض الى الموت والا أمطرتك صوب غضبي الهتون » ٠

★ ★ ★

□ **أحداث المسرحية :**

في الفصل الأول الذي قسمه الكاتب الى ثمانية مشاهد ، ففي المشهد الأول يبدو ابن حامد أحد فرسان بني سراج في القصر وحده يناجي غرناطة مدينة الدمع المتفجر ، السائرة بخطاها الى الفناء ٠٠ ثم يبدي قلقه لتأخر (طرفة) عن موعد ضربه معه في قاعة القصر ، ويشعر بثقل الليل الذي يحمله في ظلامه أسرار نهاية مملكة عاشت ثمانية قرون مجيدة ، وهي الآن تستعد لتلفظ أنفاسها ٠٠ انه ليل القدر والمأساة الذي يحمل بين ثناياه الملمات ٠٠

وفي المشهد الثاني يطل طرفة أحد قادة الجند ، فيهدأ قلق ابن حامد ، ويفاتح طرفة بوضع المملكة البائس ، ورقدة الملك رقاد المطمئن ، فيؤكد طرفة أن الملك لا يفيء قلبه الى الراحة ، لا شك في أنه مسترسل في لذائذه ، لكنه ليس بالرجل الغريق الذي يستعصي على أعوانه انقاذه ، ويدعوه الى التعاون للدفاع عن شرف قرطبة ، ويذكره بتاريخ آبائه وأجداده ، نجوم بني سراج ، والمدافعين عن تاج غرناطة ٠

ويتحدث ابن حامد عن استشهاد أبيه دفاعاً عن غرناطة ، ويندد طرفة بلهو الملك العابث الذي استسلم لمباذله ، ويدعو ابن حامد للثورة على الرجل الذي ما أحب لنفسه أن يقود جيشاً في ساح الوغى ٠

ويصغيان معاً الى وقع أقدام طارق، فيختفيان في أرجاء القصر ، حيث يخرج الملك أبو عبد الله الى الحديقة ، الى جنة العريف ، فيدوس الأزهار بقدميه ، ويحطم جذوع الأشجار ، وقد تناوبته الأحزان ، فراح يصيح كالخارج عن طوره، كانت نبوءة العرافين له بانتهاء ملكه تهز كيانه ، فتنتابه الوساوس ويصرخ حتى يسقط مغشياً عليه ، ويُحمل الى داخل القصر ٠

ويظهر في المشهد الثالث ، وفي قاعة القصر ذاتها البطل موسى وهو من بني سراج أيضاً ومعه حبيبته ضياء ، فيقفان بجانب حوض الأسُود في مشهد عاطفي فيناجيها موسى طويلاً فيقول :

ـ أيتها الجبلية الجميلة ٠٠ يا مليكة الحسن الساحر ، هذه القصور في شبابها كحبنا في شبابه ورونقه ، ٠٠ لكن قلب موسى اليوم لم يعد يخفق لأجلك ،

وقد خمدت ثورته، وهمدت ثورته، أمام حب جديد ، حب خالص أشعر بـه حيال وطني الذبيح ..

ويطلب منها أن تعاهده على أن يتوافيا الى الأبد ، ســواء أكـان على عتبة القصر أم عتبة القبر ، ثم يقودها الى مقابر آبائه في جوار القصر ، فتقسم أنهـا ستكون له حتى النهايـة ، وأن عرسهماسيكون في مملكة الأموات .

ويستمعان الى صوت جلبة وضوضاء في الحمراء ، ويبصـران موكب الملـك قادمـاً .

وفي المشهد الرابع ، يبدو أبو عبد الله وهـو يناجي نفسـه تـارة ويخاطب أتباعه .. فيقول :

– أجيبوني ، فقد أصبح لي ظمأ الى معرفة الأشياء الغامضـة ، أريـد أن أعرف مصير غرناطة كلها ومصيري ، فان نبوءة هائلة ، لا يبرح تذكارها يقرض جسمي ، اليَّ بالعرافين والسحرة .. اليَّ بهم .

ويتدخـل موسى وقد نفد صبره ، فيطلب من الملك الثبات ورباطـة الجأش ولكن الملك يُعلمه أن السبـل سدت فيوجهه ، والأقدار تعاكسـه ، ولـم يبق أمامه الا اليأس ، والعدو يطالبه إمـا بالتسليـم أو المـوت ، وملـوك المغـرب لا يسعفونه بالنجدة ، وصاحب مصر منعه الفرنجة في البحر من ايصـال مـدده ، وصاحب القسطنطينية لم يستجب بعـد لالتماسه .

وفي المشهد الخامس ، يصل المنجمون الى القصر ، فيطلب منهم الملك استشارة الغيب في مصيـره ومصيـر غرناطـة ، ويشجعهم على قول الحقيقة . وقد سمـع منذ طفولته أنه سيكون آخـر ملوك بني أمية في الأندلس . وقال المنجمون يوم ميلاده عنه : انه طفل الخراب والدموع ، وقد عذبته تلك النبوءة ، وما زال صداها يرن في أذنيـه ، ويستقرىء المنجمون الغيب ، ويلتمسون من الملـك أن يعفيهم من قول الحقيقة ، غير أنه يصر على ذلك ، فيخبرونه بصدق النبوءة السابقة ، وأن مصير شعبه واضح وهو الخراب والتشردوالهجرة الى الصحراء ، وأما مصيره كما بدا لهم ، فهو ركوب البحر شريداً طريداً الى رحاب مراكش ، حيث سيطوف الأزقة ذليلاً ، يحتقره الناس ، ويشيرون بأصابعهم الى ملك الأندلس العاثـر الحظ ،

الى أن يلقيه ملك مراكش في غياهب السجون ، بعد أن يفقأ عينيه ، ويأخذ أمواله ، ثم يتركه هائماً على وجهه يتوكأعلى عصاه مثل أوديب ملك اليونان ٠

وفي المشهد السادس ، يخرج المنجمون ، ويبقى الملك وأتباعه فيخاطبهم قائلاً :

ـ ليس من القضاء مفرّ ، ولا يصيبناإلا ما كتب الله لنا ٠ فوالله لو لم يكن سقوط غرناطة قدراً ، لكان شبابي وسيفي زعيمين بحفظهما ٠٠

ويستشير أركانه في أمر مواجهة العدو أو التسليم ، فيرفض موسى تسليم المدينة صلحاً مهما كانت الشروط ٠٠ و يقول :

ـ فلنمت في سبيل استقلالنا ، والانتقام من عدو غرناطة ٠٠

ويختم المشهد بقول أبي عبد الله :

ـ الله أكبر ، لا حيلة في قضاء الله ٠٠ الله أكبر ٠٠ لا حيلة في قضاء الله ٠

وفي المشهد السابع : يبدو الملك ومعه طرفة بن المنصور وابن حامد، فيحذر طرفة أبا عبد الله من غدر ملك الاسبان إذا قَبِلَ بشروط الصلح ، ويتمثل بقول الشاعر :

واذا لم يكن من الموت بدٌ فمن العجز أن تموت جبانا

ويعزز ابن حامد نصيحة طرفة ، فما كان للعربي أن يخنع ٠٠٠ غير أن الملك يتهمهم بالتآمر عليه ، ويعود الى ذهوله المألوف صائحاً :

ـ النبوءة ٠٠٠ النبوءة ٠٠٠ المنجمون ٠٠!! المنجمون ٠٠!!

ويبدو أنه يعيش محنة الصراع بين خيارين كلاهما مرّ ، فهو يعرف مصيره إن حارب ، وإن قبل بالصلح ، لأنه مسيّر الى قدره ٠ ويشجعه موسى الذي يعلم أن خطيبته هي فتاة عذراء نذرت نفسها للهلاك ، وأجدر به أن يملك جولة الرجال ، لكن أبا عبد الله يصرّ على التسليم ٠٠ فيقول له موسى :

ـ يا أبا عبد الله ، ما كان أبوك متخاذلاً ، ولا رعديداً ٠٠

ويصيح طرفة :

ـ الى جيادكم ·· فان رفات الأجداد الراقدة في صحراء جزيرة العرب تستصرخ حميتكم للدفاع عن هذا المُلْكِ العظيم ··

ثم تدخل أم الملك عائشة متكئة على عكازين ··

وفي المشهد الثامن ، توبّخ عائشة ولدها ، وتعيب عليه جبنه ، وتذكره ببطولة آبائه من بني أمية ، ونصر طارق بن زياد ، وطموح الوليد في إقامة هذا المجد الباذخ ، وجهود موسى بن نصير في خوض معركة أقسى مما يواجه الملك الآن ، فيبكي أبو عبد الله ، فتخاطبه أمه بالقول المشهور :

إبكِ مثل النساء مُلكا مُضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال

فينتفض الملك وقد تجددت قواه ·· ويصيح :

ـ الى جيادكم ، فان روح طارق أخذت تعصف في جوانب هذا القصر ، حاملة الى الرقود النيام عبقها المتأجج ·

* * *

أما الفصل الثاني ، فيقع في خمسة مشاهد ·· حيث تظهر مقابر بني أمية وبني سراج على سفح جبل شلير ، وموسى متلفع بردائه وعلى رأسه خوذة الحرب ومعه (ضياء) يتناجيان في الظلام، فتقسم له بتراب هؤلاء الصناديد أنها ستظل وفية له ، ثم يذكرها بطفولتهما وعبثهما فوق روابي تلك الجبال التي شهدت بطولات الأجداد ويتعاهدان على الموت دفاعاً عن الأرض ، ثم يتبين لهما شبح قادم من بعيد ، لم يكن إلا الملك أبا عبد الله قادماً الى المقابر ·

وفي المشهد الثاني يتوارى موسى وضياء ·· ويقف الملك مناجياً القبور فيقول :

ـ يا هوة العدم ·· أيتها الهوة البعيدة المدى ، لقد كرهت الحياة ، بعد أن تمزّق الوطن شرّ ممزق ·· أليس بين ساكنيك مَن ينصت لصوتي ، أما من رجل يُعيد على التاريخ ذكرى ابن العاص وابن أبي سفيان والوليد ·· وهذا التاج غدا مملاً باهظاً ينوء به كاهلي ··

ويتقدم من قبر أبيه ، فينزع التاج، ويطرحه على القبر ويناجيه قائلاً :

ــ الفرار •• الفرار •••!! أيها التاج، إن مشهدك يؤلمني ••وداعاً •• وداعاً يا صفاء الأيام الأولى •• ثم يتوارى في الظلام ••

وفي المشهد الثالث ، يظهر موسى وضياء مجدداً ، فيريان التاج مطروحاً فوق القبر ، فيتناوله موسى وهو يقول :

ــ لقد تداولك الملوك الشمّ من عهد الناصر الى عهد أبي الحسن •

ثم يقبل أصحاب موسى من القادة ،فيدخل طرفة والوليد بن حامد وعدد من الأشراف •

وفي المشهد الرابع ، يتفق الجميع على إخماد الفتنة التي قامت في غرناطة لاسقاط الملك ، سعياً لوحدة الصف ، والتضامن في مواجهة العدو ، ويرون تكليف سيدي غالب إخماد الفتنة ، وهو غرناطي نبيل مخلص لوطنه • ويتفقون على إقناع الملك إطلاق سراح حُماة قلعة أبي رياح الذين اعتقلهم بسبب الفتنة ، كما قرروا خلع الملك بعد انتصارهم على العدو ، والبحث عن أموي بديل ، ثم يريهم موسى تاج أبي عبد الله مطروحاً فوق قبر أبيه، ثم يلوح خيال سيدي غالب قادماً من بعيد فوق فرسه •

وينضاف الى المحتشدين سيدي غالب وعبد الرحمن بن أمية ، فتقرر الجماعة مواصلة القتال ، ويقسمون على الموت فداءً لغرناطة ، ثم يلمحان أبا عبد الله قادماً •

وفي المشهد الخامس : يناجي الملك جبال شلير ، فيلعن الظلام ، ويستنجد بالنور عسى أن يبصر قبس رجاء • وتتوارى الجماعة وهي تسمع نجواه كمن فقد عقله ، ويرجو القبر أن يحتضن جسده وهو الطفل السيء الحظ ، ثم يقع بصره على تاجه ، فيسترد وعيه ، ويلوم نفسه على خلعه ، ويظهر أفراد المجموعة ، فيلومونه الا أنه يرى فيهم أمواتاً خرجت من القبور ، ويقترحون عليه أن يطلق سراح المساجين ، ليدافعوا عن غرناطة ،فيخشى عواقب تحريرهم ، وهم الذين انتفضوا عليه ، ثم تظهر أمه عائشة ،فتلومه على تخاذله ، وتحثه على القتال •

أما الفصل الأخير ٠٠ فنرى أن المعركة التي قامت في مواجهة الاسبان ، كانت خاسرة ، وأنهم دخلوا غرناطة ، وأمعنوا في حرقها ، وسبي نسائها ، وقتل أطفالها. وتمكن أبو عبد الله من الهرب الى البر الافريقي ، فتحققت نبوءة العرافين التي أقضت مضجعه ، بل جاءت مطابقة لتفاصيل حياته في بلاد المنفى ٠

* * *

تُعد مسرحية أبي عبد الله الصغير للكاتب معروف الأرناؤوط أول مسرحية كُتبت بأسلوب فني ، وتحررت من مواقف الغناء ، وقد اعتمد مؤلفها في كتابتها على أساليب كتّاب الغرب من حيث تحليل الشخصيات والافتنان في رسمها على نمط شخصيات المسرح اليوناني والغربي ، فبدا أبو عبد الله الصغير في المسرحية انساناً مريضاً من الناحية النفسية ، يتنازعه صراع نفسي عنيف بين القدر وحرية الارادة ، وكأن معروف الأرناؤوط تأثر بما كُتب عن شخصية : هاملت وماكبث وأوديب ٠ وبرز التأثير واضحاً في الاعتماد على العرّافين ، وإبراز دور القدر والمصير كما هي الحال في شخصية أوديب،وهو متأثر بالتقسيمات الغربية للمسرحية الى مأساة وملهاة ، مخالفاً بذلك فن المسرح الابداعي الذي يمزج النوعين معاً في إطار الدراما ، وهو من هذه الزاوية اتباعي محافظ ، وان كان أسلوبه يجنح الى الرومانسية ، وهو يلتقي الاتباعيين بتصويره حياة الملوك والعظماء ، واعتماد لغة أدبية رفيعة ، غير أنه يتجاوز المسرح الاتباعي الذي يعنى بالانسان الفرد ومصيره الى الاهتمام بقضايا الوطن والأمة والتحرير مما صرفه عن التعمق في رسم الشخصيات ٠ فأبو عبد الله الصغيرمتردد ممزق الشخصية دون وضوح في رسم أبعادها ، وعائشة أمه تبدو رمزاً للكفاح أكثر مما تظهر انسانة لها مشاعر الأمومة والعطف والشفقة ٠ أما بقية الشخصيات المكافحة ، فقد طبعت سماتها بطابع واحد هو الاخلاص للوطن دون أن تتمايز في انسانيتها ٠

ومع ذلك فان فضل (معروف الأرناؤوط) يتجلى في ريادته فن الكتابة المسرحية العربية ، وتحريرها من الحشو والعواطف الزائفة ، والنزعة الغنائية الخطابية ، وتوجيهه المسرح الى أغراض قومية نبيلة ، كانت أمتنا تتعطش لها ، وقد مهد السبيل الى أحمد شوقي وان كان قد تجاوزه في الوعي القومي ، فمسرح

شوقي التاريخي موزع بين النزعة المصرية والاسلامية والعربية ، في حين بدا (معروف الأرناؤوط) داعياً قومياً واضح الأهداف ، صافي العروبة ، لم يشب فكره القومي شائبة ، وان كان ممتزجاً لديه بشعور ديني اسلامي دفعه اليه أنه لم يكن عربي الأرومة ، بل كان عربي الثقافة تجمعه بأبناء العروبة رابطة الفكر والدين ٠

ولا يخفى أن (معروفاً) هدف من اختيار شخصيتين نسائيتين في مسرحيته هما : عائشة أم الملك ٠ وضياء حبيبة موسى ٠ ابراز دور المرأة العربية في الكفاح ، واسهامها الى جانب الرجل عبرالتاريخ في المعارك القومية ، ورمى من وراء ذلك الى تشجيع المرأة العربية اليوم على أن تمارس دورها التاريخي ذاته ، وقد جعل من شخصية عائشة الأم صورةعن شخصية أسماء أم عبد الله بن الزبير حين حثّت ابنها علىَ مناضلة عدوه متجاوزة مشاعرها الانسانية التي تفرضها عاطفةالأمومة ، وقد طغت قيمة الدفاع عن الحق على مشاعرها الذاتية ٠

★ ★ ★

(*) ولد معروف الأرناؤوط في مدينة بيروت عام ١٨٩٢ هاجر والده أحمد الأرناؤوط من البانيا الى لبنان أيام الحكم العثماني ٠٠

اهتم (معروف) بالأدب العربي والتاريخ الاسلامي ٠٠انتقل الى مدينة دمشق ٠٠ وعمل في الصحافة ٠٠ أصدر جريدة (الاستقلال العربي) وانشا مجلة (العلم العربي) ثم أصدر جريدة (فتى العرب) انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي ٠٠ توفي في دمشق في ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٤٨ ٠

كتب الرواية التاريخية الاسلامية ـ وترجم العديد من الآثار الأدبية ٠

اللاذقيّة
كما تحدّث عنها المؤرّخون والجغرافيّون والرّحالة

هاشم عثمان

اللاذقية

هذه المدينة التي طار صيتها في الآفاق من بعد صرخة أبي العلاء المعري : في اللاذقية ضجة ...
هذه المدينة ، تعاقبت عليها أحداث وأزمان . ومر بها قواد عظام وشعراء مفلقون ومؤرخون ورحالة .. وأبدوا اعجابهم بها . وقد كثرت الأقوال في ذكر محاسنها . وأهم ماجذب الأنظار اليها ، ميناها ، مبانيها المهندسة المهندمة ، ودير الفاروس .

قال شمس الدين الأنصاري المعروف بشيخ الربوة (ت/٧٢٧ هـ) .

«واللاذقية محاطة بالبحر من جهاتها الثلاث وهذه المدينة أشبه بالاسكندرية في بنائها وليس بها ماء جار يسقي أرضها وهي قليلة الشجر ، قديمة البناء ، وبأرضها معدن رخام أبيض أضفر موشى وبها دير الفاروس من أعجب البناء في الديور ، وله يوم في السنة تجتمع النصارى اليه والمينا الذي باللاذقية من أعجب الموانى في البحر وأوسعها لا يزال حاملا للسفن الكبار وعليه سلسلة من حديد حاصرة لمراكبه مانعة مراكب العدو »(١) .

وقال أبو الفداء (ت/٧٣٢ هـ) .

« وهي بلدة ذات صهاريج وهي على ساحل البحر وبها مينا حسنة مفضلة على غيرها وبها دير مسكون يعرف بالفاروس حسن البناء . قال في العزيزي ومدينة اللاذقية جليلة من أعمال حمص.....وهي أجل مدينة بالساحل منعة وعمارة ولها مينا عظيم »(٢) .

ووصفها صفي الدين عبد المؤمن بن عبدالحق البغدادي (ت/٧٣٩ هـ) بقوله :

١ ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر .　　٢ ـ تقويم البلدان .

«مدينة عتيقة رومية فيها أبنية مكينة ، وهي بلد حسن في وطاء من الأرض ، وله مرفأ جيد محكم وقلعتان متصلتان على تل مشرف على الربض »(٣) .

ومن المؤرخين ذكرها كل من البلاذري في (فتوح البلدان) وابن الأثير في (الكامل) وابن شداد في (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وشهاب الدين المقدسي في (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) وأحمد بن ابراهيم الحنبلي في (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب) ... وغيرهم ... وغيرهم ....

قال ابن الأثير (ت/ ٦٣٠ هـ) وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه .

وقال ابن شداد (ت/ ٦٣٢ هـ) وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مستور وله ميناء مشهور ، وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد .

وقال شهاب الدين المقدسي المعروف بأبي شامة (ت/ ٦٦٥ هـ) في كتاب عمادي الى سيف الاسلام باليمن عن السلطان قال : « وهذه اللاذقية مدينة واسعة وخطة جامعة معاقلها لاترام وأعلاقها لا تستام ، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها وأزيدها أعمالا وضياعاً وأزينها وما في البحر مثل ميناها ولا للمراكب الواردة مثل مرساها وهي جنة ... »

وقال الحنبلي (ت/ ٨٧٦) وهو بلد كبير له قلعتان متصلتان على تل ، وهي أحسن البلاد وأطيبها ...

وأجمل وصف للاذقية وصل الينا ، ما ذكره العماد الاصفهاني (ت/ ٥٨٩) في (الفتح القسي في الفتح القدسي) عندما فتحها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤/هـ . قال: « ورأيتها بلدة واسعة الأفنية ، جامعة الأبنية متناسبة المعاني ، متناسقة المغاني ، قريبة المجاني ، رحيبة المواني . في كل دار بستان ، وفي كل قطر بنيان ، أمكنتها مخرمة، وأروقتها مرخمة ، وعقودها محكمة ، ومعالمها معلمة ، ودعائمها منظمة ، ومساكنها مهندسة مهندمة، وأماكنها ممكنة ، ومحاسنها مبنية ، ومراتبها معينة ، وسقوفها عالية ، وقطوفها دانية ، وأسواقها فضية ، وآفاقها مضية ، ومطالعها مشرقة ، ومرابعها مونقة . وأرجاؤها فسيحة وأهواؤها صحيحة .... »

وكان من الطبيعي أن مدينة بجمال اللاذقية ، أن تستأثر باهتمام الرحالة والجغرافيين العرب وغيرهم وأول من أتى على ذكرها ووصفها ، المختار بن الحسن بن عبدون الحكيم أبو الحسن الطبيب البغدادي المعروف بابن بطلان (ت/ ٤٤٤ هـ) .

وابن بطلان كما يذكر القفطي (ت/ ٦٤٦ هـ) طبيب منطقي من أهل بغداد يرتزق بصناعة الطب ، خرج عن بغداد الى الجزيرة والموصل وديار بكر ودخل حلب وأقام بها مدة وما حمدها ، وخرج عنها الى مصر وأقام بها مدة واجتمع فيها بابن رضوان المصري

---

٣ ـ مراصد الاطلاع على أسماء امكنة والبقاع .

الفيلسوف في وقته وجرت بينهما منافرة أحدثتها المغالبة في المناظرة ، وخرج ابن بطلان عن مصر مغضباً على ابن بدران وورد أنطاكية راجعاً عن مصر فاقام بها وانقطع الى العبادة الى أن توفي بها في شهور سنة أربع وأربعين وأربعمائة .

وقد وجه ابن بطلان الى أبي الحسن هلال الصابيء رسالة يصف فيها رحلته الى الرحبة وحلب وانطاكية واللاذقية التي قام بها سنة ٤٤٠/ هـ . ومما قاله : « وخرجت من انطاكية الى اللاذقية وهي مدينة يونانية لها مينا ، وملعب وميدان للخيل مدور وبها بيت كان للاصنام وهو اليوم كنيسة وكان في أول الاسلام مسجداً وهي راكبة البحر وفيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه واذان في أوقات الصلوات الخمس . وعادة الروم اذا سمعوا الأذان أن يضربوا الناقوس . وقاضي المسلمين الذي بها من قبل الروم . ومن عجائب هذا البلد أن المحتسب يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم في حلقة وينادي على كل واحدة منهن ويتزايد الفسقة فيهن لليلتها تلك ويؤخذن الى الفنادق التي هي الخانات لسكنى الغرباء بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتماً هو خاتم المطران حجة بيدها من تعقب الوالي لها فانه متى وجد خاطياً مع خاطية بغير ختم المطران الزمه جناية . وفي البلد من الحبساء والزهاد في الصوامع والجبال كل فاضل يضيق الوقت عن ذكر أحوالهم والألفاظ الصادرة عن صفاء عقولهم وأذهانهم .. » .

وقد نقل ياقوت الحموي في (معجم البلدان) وزكريا بن محمد بن محمود القزويني في (آثار البلاد وأخبار العباد) كلام ابن بطلان ، لكن الاثنين اختلفا في اسمه فبينما يذكره ياقوت باسم ابن فضلان ، يسميه القزويني باسم ابن رطلين ..

وتجدر الاشارة الى أن ياقوت الحموي ينقل عن لسان ابن فضلان انه رأى في اللاذقية سنة ٤٤٦ اعجوبة وذلك أن المحتسب يجمع القحاب الخ ... مع أن ابن بطلان توفي سنة ٤٤٤ هـ كما ذكر القفطي . وليس من المعقول أن يكون ياقوت الحموي قد نقل عن ابن فضلان لأن رحلة ابن فضلان كانت الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ولم يمر باللاذقية .

ومن الذين مروا باللاذقية أيضاً ، ابن بطوطة أثناء رحلته الى المشرق التي قام بها في شهر رجب من عام ٧٢٥/ هـ ــ ١٣٢٥/ م .

وابن بطوطة انما قصد اللاذقية لزيارة الولي الصالح عبد المحسن الاسكندري . كما يفهم من قوله : « ثم سافرت الى مدينة اللاذقية . وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر ، يزعمون أنها مدينة الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا . وكنت انما قصدتها لزيارة الولي الصالح عبد المحسن الاسكندري . فلما وصلتها وجدته غائباً بالحجاز الشريف ، فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيداً البجائي ويحيى السلاوي ، وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء ، أحد فضلاء الشام وكبرائها ، صاحب الصدقات والمكارم .. » .

وأهم ما شاهده ابن بطوطة في اللاذقية وتحدث عنه ، دير الفاروس وميناء المدينة . قال : « وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص ، وهو أعظم دير بالشام ومصر ،

يسكنه الرهبان ، ويقصده النصارى من الآفاق ، وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه ، وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكبر • وميناء هذه المدينة عليه سلسلة بين برجين ، لا يدخله أحد ولا يخرج منه حتى تحط له السلسلة ، وهو من أحسن المراسي بالشام » •

ولم يذكر ابن بطوطة مدة بقائه في اللاذقية • كل ما ذكره أنه غادرها الى حصن المرقب ، ثم الى الجبل الأقرع ، ومنه سافر الى جبل لبنان •

وممن مروا باللاذقية أيضاً ، الملك الأشرف قايتباي أثناء الرحلة الرسمية التي قام بها سنة ٨٨٢/هـ ــ ١٤٧٨/م في سورية وشملت الصالحية والعريش وغزة وقاقون والناصرة وصفد وبعلبك وطرابلس واللاذقية وانطاكية وبغراس (بغرص) وعينتاب وديار بكر ، ووصل قلعة المسلمين ، ثم عاد من ديار بكر بطريق حلب وسرمين وحماة وحمص والنبك ودمشق وسعسع وجسر بنات يعقوب وخان منية وقاقون ثم اتبع نفس الطريق التي جاءها الى القاهرة(٤) •

وقد كتب رحلة قايتباي أبو البقاء بن جيعان وهو أحد الذين رافقوا السلطان وسماها بـ (القول المستظرف في رحلة مولانا الملك الأشرف) •

ومما تجدر الاشارة اليه أن ثمة خلافاً حول اسم كاتب رحلة قايتباي • فعلى حين يذكر نقولا زيادة في (الرحالة العرب) ان الذي كتبها هو أبو البقاء بن جيعان • يذكر الدكتور عمر التدمري أن الذي كتبها هو محمد بن ابراهيم الطيبي(٥) يقول : من كتب الرحلات هذا الكتاب الذي يحمل عنوان « القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف » الذي وضعه مؤلفه محمد بن ابراهيم الطيبي وتتبع فيه رحلة الملك الأشرف قايتباي الى فلسطين وبلاد الشام ، في سنة ٨٨٢/هـ ــ ١٤٧٧/م مرافقاً للملك الأشرف في رحلته هذه فوضع عنها مصنفاً لطيفاً •

وأيا ما كان الأمر ، فان كاتب رحلة الملك قايتباي ، كتب عما سمعه عن طاحونة في اللاذقية تديرها الريح قال : « ومما سمعناه عنه في اللاذقية طاحونة تديرها الريح ، سواء أكان هبوبها من الشمال أو الشرق أو الغرب على نحو ما هو معروف عند الافرنج واذا دارت يوماً كاملا ، ليلا ونهاراً طحنت ١٢ أردباً بالكيل المصري وقد أقام هذه الطاحون رجل من اللاذقية كان الافرنج قد أسروه ، فلما عاد أنشأ هذا الشيء العجيب في بلده • وممن مروا باللاذقية أيضاً وذكروها في رحلاتهم ، الشيخ أحمد بن صالح الأدهمي الطرابلسي المتوفى سنة ١١٥٩/هـ ــ ١٧٤٦/م في رحلته المسماة (تحفة الأدب في الرحلة من دمياط الى الشام وحلب) التي قام بها في سنة ١١٥٠/ هـ ــ ١٧٣٧/م •

وسبب القيام بهذه الرحلة أن الأدهمي كان عند أخيه في مصر، فحن الى وطنه طرابلس الشام وأحب العودة اليها فركب بحر النيل ثم البحر الملح ومر على حيفا وعكا وصيدا

---

٤ ــ نقولا زيادة ــ الرحالة العرب •

٥ ــ مجلة المسيرة ــ العدد ١٣ ــ ١٤ ك/٢ ــ ١٩٨٢ •

وبيروت وطرابلس وطنه ومنها أخذ مع رفقته ساحل البحر عن شمالهم الى اللاذقية ومنها سلكوا طريق الوعر الى ادلب فحلب ٠

ومعلوماتنا عن هذه الرحلة مستقاة مماكتبه الشيخ عبدالقادر المغربي(٦) قال : والمؤلف مع رفقته لم يسافروا الى حلب من طريق حماه ، وانما أخذوا ساحل البحر عن شمالهم الى اللاذقية ومنها سلكوا الوعر الى ادلب فحلب ٠ وصلوا جبلة فلم يروا من أهلها حفاوة فلجأوا الى جامع ابراهيم بن أدهم المشهور ثم دخلوا اللاذقية ضيوفاً على أحمد الزيادي بتشديد الياء كما يظهر من قوله فيه :

خل الغناء بزينب وسعاد ... واقصد مرابع أحمد الزياد

ووصف ما كان من حفاوة هذا الكريم المضياف بهم كما وصف غلمانه وحسنهم وجمالهم من ذلك قوله في الواحد منهم :

فكأن مالكه المفضل أحمداً ... غذاه لين الأنس للعواد

ثم وصف حماماً دخله في اللاذقية بأشنع الأوصاف وقال انه سأل عن اسمه فقيل له انه حمام العواني أو العشور كذا ٠٠٠ ومما وصف به الحمام ان صابونه منتن الروايح واستطرد من بشاعة هذا الحمام الى ذكر ما قاله الشعراء في الحمامات مدحاً وقدحاً وافتتح ذلك بقوله هو في حمام اللاذقية :

وحمام حوى ما ليس يحصى ... من الأوساخ والدنس القديم
ينادي من أتى يبغي قراه ... لك البشرى قدمت على الجحيم

وممن زاره في اللاذقية الشيخ عبدالفتاح وقد وصفه بالتقوى والصلاح ٠٠ وصلوا في جامع الوزير سليمان باشا ودعاهم للضيافة أحمد بن بديع وقال ان من المدعوين اليها حضرة الشيخ عبدالرحمن أفندي مفتي اللاذقية ولعل عبدالرحمن أفندي هذا هو جد جد كاتب هذه السطور فقد ترجم له المرادي في تاريخه (سلك الدرر) ج ٢ ، ص ٣٠٣ـ وقال ان عبدالرحمن أفندي المغربي استقام مفتياً في طرابلس واللاذقية مقدار خمس وأربعين سنة وكانت وفاته سنة احدى وتسعين ومائة وألف أي بعد زمن من هذه الرحلة بأربعين سنة ثم قال عنه ما نصه : فجرينا معه في الكلام والمذاكرة وبسطنا له بساط المفاكهة والمحاضرة ووهو لا يطوي عن مرامنا كشحا ٠ ولا يضرب عن الذي طلبناه صفحاً ٠ بل كلما فتحنا له مسألة فقهية سلك طريق ـ المطارحة بالكلية ٠ فعلمنا بقرائن الحال ، انه رجل في غاية الكمال فعندها اعتقدنا محبته وحققنا مع حضرة الوالد صحبته ٠

ثم غادروا اللاذقية الى حلب فمروا بقرية البهلولية وهي ملك أحمد الزيادي الذي كانوا ضيوفه في اللاذقية ٠ ومروا بعقبة السكون (أو السفكون) ووادي القرشية ووصف

---

٦ ـ مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ـ ٧ ـ ٠

وعورة هاتين العقبتين وصعوبة السير فيهما قال : « وفي أثناء ذلك الضيق لاح لنا بيت على قارعة الطريق فتقدمنا لطلب البيان فاذا نحن بشيخ وثلاثة نسوان فسألنا عن الناس الأجواد فقيل لنا أنهم من أهلهم الأكراد · واحدى الثلاثة رعبوبة ذات جمال وغادة قد تسربلت برداء الدلال فتقدم اليهن رفيقنا ابن بدران وقال هل ماء الى ابن السبيل الوارد العطشان وصار يطيل النظر اليها · ويلقي من أسرار لواحظه عليها · فاندفعت تسقي الوراد وطفقت تطفي ببرودة كلامها حرارة الأكباد ومرت علينا ونحن في ذلك المكان قافلة كبيرة من الركبان فسألنا الى أين أيها الاخوان · فقالوا لنا من ادلب الى زيارة حضرة السلطان فقلنا لهم مصحوبين بالسلامة ولا زالت العناية بكم ترعى ولا تنسونا معاشر الاخوان من صالح الدعاء ··· »

ومما يؤسف له أن هذه الرحلة الممتعة ،لم تنشر بعد ، ولم تلق العناية الكافية من الدارسين · وممن مروا باللاذقية أيضاً ،، البطريرك بولس بطرس مسعد بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للطائفة المارونية أثناء رحلته التي قام بها سنة ١٨٦٦ الى روما ، بطريق البحر ·

وسبب هذه الرحلة ، انه في آخر سنة ١٨٦٦ وردت رسائل من الكردينال كازيني رئيس مجمع الفحص عن المشاكل المتعلقة بالمجمع التريدنتيني بأمر قداسة الأب الأقدس البابا بيوس التاسع الى جميع البطاركة والجثالقة ورؤساء الأساقفة الكاثوليكيين في العالم كله · تنطوي على الدعوة لهم للحضور الى رومة لتعظيم اشهار قداسة الشهداء والمقدمين الآتي ذكرهم وتكريم العيد الأكبر للقديسين الروسليين بطرس وبولس زعيمي الرسل في ختام القرن الثامن عشر بعد استشهادهما · فلما بلغت رسائل الكردينال المومى اليه الى غبطة البطريرك بولس بطرس مسعد بطريرك أنطاكية وسائر المشرق ومطارين الطائفة المارونية قام بالسفر بحراً الى رومة وكان خط سفره كما يلي : من بكركي الى بيروت ومن بيروت الى طرابلس ، ومن طرابلس الى اسكندرونة ، ومن اسكندرونة الى ازمير ، ومن ازمير الى مسينا، ومن مسينا الى رومة · مروراً بمدن الساحل السوري وهي طرطوس وبانياس واللاذقية ·

وقد سجل أخبار هذه الرحلة الخوري يوسف الياس الدبس وسماها بـ (سفر الأخبار في سفر الأحبار) وعن اللاذقية قال :

« قد بلغنا مينا اللاذقية صباح الأحد في الثاني عشر من أيار الساعة ٩ من ساعات الليل ست ساعات ونصف بعد السفر من مينا طرابلس فأتى لتحية غبطته هناك نائب قونصل دولة افرنسة الموسيو ادلف جفروا ووجوه طائفتنا هناك ولم ينزل أحد من رفقائنا الى المدينة لقصر مدة المكث هناك واضطراب البحر حينئذ حتى اعترى بعضنا قليل من الدوار وليس في المدينة الا مينا صغيرة لا تدخلها السفن الكبار وعلى جانبها من الشمال برج داخل في البحر والمدينة في طرف لسان ومن ورائها تل صغير وترى فيها

المواذن من البحر وحولها أشجار وبساتين تزيدحسن منظرها · وفي المدينة بعض آثار قديمة أخصهـا قوس نصـر يظن أنـه أقيم تكرمـة لليقيوس وسبتيموس ساويروس وعدد سكانها على ما قيل لنا هناك نحو اثني عشر ألفاً · ومن حاصلاتها التبغ المعروف بأبو ريحة وتبغ وطننا أحسن منه على الأقل نظراً الى ذوقناوكان أعظم حاصلاتهـا قديماً الخمر كمـا ذكـر استرابون ··· » ·

ومن الرحلات الطريفة في العصر الحديث رحلة فؤاد أفرام البستاني المسماة (خمسة أيام في ربوع الشام) أو (رحلة الموزاييك في سيارة بويك) وهي رحلة قصيرة الزمن، تناولت أنحاء سورية بكاملهـا ساحلية وداخلية منحدود النهر الكبير الى طرطوس فأرواد الى اللاذقية ، الى حلب، الى المعرة وحماة وحمص رجوعاً الى دمشق بطريق النبك ودير عطية، وهي رحلة تجمـع بين التاريخ والجغرافيـة والآداب والفنون والعلوم · ويهمنا من هـذه الرحلة ما يتعلق باللاذقية ، وبعد أن يتحدث المؤلف عن تاريخ المدينة يقول :

« ومما يذكر من آثارها بناء مربع الأركان يرقى الى العهد الروماني ، أقيم اما على عهد أنطونيوس ، واما على عهـد سبتيموس ساويروس ، في مفرق الطرق المهمة ، وازدان بنقوش نافرة في بعضها أدوات حربية · وفي الطريق الآخذة من هذا المربع بقايا أعمـدة كورنثية رشيقة القوام ، دقيقة الزخـارف ، هي كذلك من العهد الروماني ·

وأقدم منها المقبرة الشهيرة القائمة شمالي المدينة الغربي ؛ ممتدة على نحو كيلومتر محفورة قبورها في الصخر على تصاميم متنوعة فاقت كل المعـروف من نوعهـا في البـلاد الفينيقية ، على قول رينان ، الذي وصفهـاوصفاً مطولاً في « البعثة الفينيقية » فذكـر قبورها الظاهرة على شكل المربعات ، والمغاور والآبار ، والأقبية وأشار الى أنه كثيراً ما كان يصادف فيها في زمنـه أي في السنة ١٨٦٠ ،أوجه من الذهب ، وتماثيل صغيرة ، ونقـود عليها النقوش والكتابات الفينيقية · وكـل ما فيها من القبور سابق ، على قول رينان ، للقرن الثالث قبل المسيح ·

ومن الآثار القديمة في المدينـة كنيسة المعلقة ، وجامع المغربي المتصاعد فوق المنازل حتى ان الناظر من مئذنته يشرف على مشهدفسيح يمتد من البحر الى وادي النهر الكبير ، الى جبل القصيرية ، الى جبل كاسيوس ولوكان لنا متسع من الوقت لأشرفنا على اللاذقية جميعها من قهـوة أبو دردار على تل شرقي ·

ويذكر المؤرخون خارج اللاذقيـة ديراًقديماً اسمه دير الفاروص زاره ابن بطوطة في القرن الرابع عشر فقال فيه : هو أعظـم دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان ، ويقصده النصارى من الآفـاق · وكل من نزل بـه من المسلمين ، فالنصارى يضيفونه · وطعامهـم الخبز والجبن والزيتون والخل والكبر · أما اليوم فلا يعرف شيء من آثاره · وقد تكـون أسسه مدفونـة في تل غاروس ، بين اللاذقيـة وبسنادا ، كما يرجح دوسو ··

★ ★ ★